غابرييل غارسيا ماركيز

حجيج غرباء

ترجمة: فائز خنية

حجيج غرباء

حجيــج غـربـاء

اثنتا عشرة قصة للكاتب الكولومبي

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة فائز خنيسة

العنوان الأصلي للكتاب

Gabriel García Márquez

Doce Cuentos Peregrinos

دار ورد – دمشق

ترجمة فائز خنيسة 2005

غابرييل غارسيا ماركيز

ولد غابرييل غارسيا ماركيز في أركاتاكا،كولومبيا، في عام 1928. التحق بجامعة بوغوتا وعمل لاحقاً مراسلاً لجريدة إيلسبيكتاتور الكولومبية في كل من روما، باريس، برشلونة، كاراكاس ونيويورك.

كتب العديد من الروايات والمجموعات القصصية القصيرة. تتضمن مؤلفاته: " لا أحد يكتب إلى الجنرال وقصص أخرى " ، " مئة عام من العزلة " ، " خريف البطريرك "، " أريديرا البريئة وقصص أخرى " ، " وقائع موت معلن " ، " قصة بحار جنحت سفينته " ، " الحب في زمن الكوليرا " ، " الجنرال في متاهته " ، " في ساعة نحس " ، " عاصفة ورقية وقصص أخرى " ، " حجيج غرباء " و " عن الحب وشياطين أخرى ". بالإضافة إلى " خبر اختطاف " وهو عمل غير قصصي. نشر أخيراً سيرته الذاتية بعنوان " أعيش لأحكي الحكاية ". مُنح غابرييل غارسيا ماركيز جائزة نوبل للآداب عام 1982, وهو يعيش الآن في مدينة مكسيكو وفي بوغوتا، كولومبيا.

" هذه القصص، مثلها مثل *الحب في زمن الكوليرا* تبدو مشحونةً بسحر و غموض هذا العالم "

يو. اس. أي. توداي

" *حجيج غرباء* تثبت ثانية بأن الواقعية الخيالية المميزة للكاتب يمكن أن تقدم في جرع صغيرة نسبياً ... هذه القصص تجسد التكثيف الآسر المميز لفن القص عند غارسيا ماركيز أفضل تجسيد "

تايم

" استثنائية ... لا يعوزها تألق ... كل من هذه الحكايا جوهرة بحد ذاتها "

سياتل تايمز

" مليئة بنكهة غريبة لسير حياة غير عادية ...قدرة غابرييل غارسيا ماركيز ليجذب و يسحر ... تجعل *حجيج غرباء* آسرة و جديرة بالاهتمام "

نيويورك تايمز بوك ريفيو

ا لمحتويات

توطئة :	
لماذا اثنتا عشرة، لماذا قصص، ولماذا حجيج	8
رحلة سعيدة سيدي الرئيس	18
القديسة	51
الحسناء النائمة والطائرة	69
أنا أبيع أحلامي	77
" أتيت كي أستخدم الهاتف فقط "	88
أشباح شهر آب	107
ماريا دوز برازيريس	112
سبعة عشر رجلاً إنكليزيا مسموماً	131
ترامونتانا	148
صيف الآنسة فوربيس السعيد	156
الضوء مثل الماء	173
أثر دمك في الثلج	179

توطئة: لماذا اثنتا عشرة، لماذا قصص، ولماذا حجيج

تمت كتابة الإثنتي عشرة قصة في هذا الكتاب على مدى الثمانية عشر عاماً الماضية. قبل أن تصل هذه القصص إلى شكلها الحالي، خمس منها كانت قد ظهرت بشكل مقالات صحفية وسيناريوهات سينمائية وواحدة منها كانت مسلسلاً تلفزيونياً. منذ خمس عشرة سنة مضت رويتُ واحدة أخرى خلال مقابلة مسجلة مع صديق لي قام بتدوين ونشر القصة، والآن أعدت كتابتها اعتماداً على النسخة التي كتبها هو. كانت تلك تجربة إبداعية غريبة يجب الحديث عنها، على الأقل لكي يعرف الصبية الذين يريدون أن يصبحوا كتاباً عندما يكبرون مقدار الأثر الكاشط لعادة الكتابة التي لا يمكن إرضاؤها، حيث هناك دائماً تصور جديد للمادة الإبداعية يحاول أن ينفي ما سبقه.

راودتني فكرة القصة الأولى في بدايات عام 1970، كانت نتيجة حلم موحٍ أتاني بعد العيش في برشلونة لخمس سنوات. حلمت بأنني كنت أحضر جنازتي، ماشياً مع مجموعة من الأصدقاء بلباس الحداد الوقور، لكن المزاج كان مهرجانياً بهيجاً، بَدونا جميعاً سعداء كوننا اجتمعنا معاً. وكنت أنا الأكثر سعادة من الآخرين، بسبب الفرصة الرائعة التي منحني

الموت إياها لأكون مع أصدقائي من أمريكا اللاتينية، وهم من أقدم وأعز الأصدقاء، أولئك الذين لم أرهم منذ مدة طويلة جداً. في نهاية الشعائر وعندما بدؤوا بالتفرق، حاولت أن أغادر أيضاً، لكن واحداً منهم جعلني أفهم وبشكل لا لبس فيه بأنه بقدر ما كنت منسجماً مع الأمر بقدر ما أسرعت الحفلة إلى نهايتها. وقال لي: " أنت الشخص الوحيد الذي لا يمكنه المغادرة ". عند ذلك فقط عرفت بأن الموت يعني ألا تكون مع الأصدقاء ثانية أبداً.

لا أعرف سبباً لذلك، لكني فسرت الحلم الأمثولة بأنه امتحان لضميري بخصوص هويتي الحقيقية، وأعتقد بأن ذلك كان نقطة تحول للكتابة عن الأشياء الغريبة التي تحصل لأمريكيين لاتينيين في أوروبا. كان ذلك الحلم لقية شدت أزري، فقد كنت قد أنهيت للتو رواية " خريف البطريرك "، أكثر أعمالي صعوبة وجسارة، ولم أكن أعرف إلى أي هدف علي أن أتجه من بعده.

بقيت مدة تقارب السنتين أكتب ملاحظات عن موضوعات قصصية مدوناً إياها كما تأتي إلى ذهني، لكني لم أستطع أن أقرر كيف سأتعامل معها. وحيث أنني لم أكن أملك دفتر ملحوظات في المنزل في الليلة التي قررت أن أبدأ الكتابة فيها، فقد أعارني أولادي واحداً من دفاتر الإنشاء الخاصة بهم. وفي رحلاتنا المتكررة كانوا هم الذين يحملونه في حقائبهم المدرسية لخوفهم عليه من الضياع. جمعت ستاً وأربعين فكرة مع ملاحظات تفصيلية عديدة جداً بحيث كان كل ما احتاجه هو أن أكتبها بأسلوب أدبي.

في عام 1974 عندما عدت إلى المكسيك من برشلونة، أصبح واضحاً بالنسبة إلي أن هذا الكتاب لن يكون الرواية التي بدت لي في

البداية، بل مجموعة من القصص القصيرة المبنية على وقائع صحفية سوف نتجنب هلاكها بمساعدة الأساليب الحاذقة للعمل الإبداعي. كنت قد نشرت سابقاً ثلاث مجموعات من القصص القصيرة، ومع ذلك فإن أياً من تلك المجموعات لم يكن مفهوماً ومتصوراً أو مؤلَّفاً كوحدة مترابطة. بل على العكس، فكل قصة كانت قطعة أدبية ذات حدث وموضوع مستقل. وبالتالي فإن الكتابة الأدبية لهذه الست والأربعين فكرة ستكون مغامرة آسرة لو استطعت كتابتها كلها بطابع واحد، مع وحدة داخلية في الجرس والأسلوب مما يجعلها متلازمة في ذهن القارئ.

نظمت أول قصتين – " أثر دمك في الثلج " و " صيف الآنسة فوربيس السعيد " – في عام 1976 ونشرتهما بعد ذلك بوقت قصير في ملاحق أدبية شتى في العديد من البلدان. تابعت بالعمل بلا انقطاع، لكن في منتصف القصة الثالثة، تلك التي كانت عن الجنازة، شعرت بأنني منهك أكثر مما لو كنت أعمل على رواية. نفس الشيء حصل مع الرابعة. في الواقع، لم امتلك الطاقة لكي أنهيهما. الآن أعرف لماذا: الجهد المبذول في كتابة قصيرة كثيف جداً يماثل الجهد المبذول عند الابتداء برواية؛ كل شيء يجب أن يوضَّح في الفقرة الأولى: البنية، الإيقاع، الأسلوب، الطول وأحياناً طبائع الشخصيات. كل ما يتبقى هو متعة الكتابة، المتعة الأكثر نأياً وحميمية التي يمكن للمرء تخيلها، وإذا لم يقضِ المرء بقية حياته يصحح الرواية، فذلك مرده إلى أن نفس القساوة الحديدية المطلوبة لنبدأ الكتاب مطلوبة لإنهائه. لكن قصة قصيرة ليس لها مقدمة ولا خاتمة: إما أن تفلح وإما لا. وإذا لم تفلح فإن خبرتي الخاصة، وخبرة الآخرين بينت بأنه في أغلب الأحيان من الأفضل لصحة المرء أن يبدأ مرة ثانية بمعالجة الفكرة في اتجاه آخر ، أو أن

يقذف القصة إلى سلة المهملات. أحد الأشخاص والذي لا أتذكر اسمه لخَّص الفكرة بهذه العبارة السلوى: " الكتَّاب الجيدون يستحقون الإطراء لما مزقوا من كتابات أكثر منه لما نشروا ". صحيح أنني لم أمزق المسودات الأولى والملاحظات، لكني فعلت ما هو أسوأ من ذلك: لقد قذفت بها إلى مجاهل النسيان.

أتذكر أن دفتر الإنشاء كان لدي على مكتبي في مكسيكو مرمياً بين ركام الأوراق حتى عام 1978 .وفي أحد الأيام وبينما كنت أبحث عن شيء آخر، انتبهت إلى أنني لم أره منذ بعض الوقت. لم أهتم في بداية الأمر. لكن عندما تأكدت بأنه ليس على المكتب إطلاقاً، أصبت بالذعر. لم تبق زاوية في البيت إلا وفُتِّشت. حركنا الأثاث من مكانه، سحبنا المكتبة جانباً لكي نتأكد من أنه لم يسقط وراء الكتب، وأخضعنا الخادمة في المنزل وأصدقاءنا إلى استجواب لا يرحم. لم نعثر على أثر. وكان التفسير الممكن أو المعقول الوحيد هو أنه في واحدة من حملاتي المتكررة لإفناء ركام الأوراق، وجد دفتر الإنشاء طريقه إلى صندوق القمامة.

أدهشتني ردة فعلي: الكتابات التي كنت قد نسيتها قرابة الأربع سنوات أصبحت مسألة شرف بالنسبة لي. في محاولة لاستعادتها بأية كلفة، وبجهد كان شاقاً كجهد الكتابة، استطعت أن أعيد صياغة الشذرات لحوالي ثلاثين قصة. وبما أن الجهود المضنية للتذكر تشبه عملية تطهير، فقد حذفت بدون شفقة القصص التي بدا من غير المجدي محاولة إنقاذها وبقي لدي منها ثماني عشرة. وفي هذا الوقت قررت أن أكتب دون توقف، لكن في الحال أدركت أنني فقدت الحماسة للكتابة، مع ذلك، وبشكل مناقض للنصيحة التي دائماً ما كنت أسديها للكتاب

الشباب، لم أتخلص منها وأرمها للخارج. بدلاً من ذلك أعدت تبويبها لتكون جاهزة عندما أعاود الكتابة.

عندما بدأت بكتابة " وقائع موت معلن " في عام 1979، أثبتُّ حقيقة أنه في الوقفات التي أقضيها بين كتابة الكتب أنزع لأن أفقد عادة الكتابة، ويصبح من الصعوبة بمكان بالنسبة لي أن أعاود الكتابة ثانية. وذلك يفسِّر أنني ما بين تشرين أول 1980 وآذار 1984 أخذت على نفسي مهمة كتابة عمود رأي أسبوعي ليُنشر في صحف بلدان عديدة كنوع من التمرين لكي تبقى ذراعي محافظة على مهارتها الإبداعية. بعد ذلك خطر ببالي أن صراعي مع المادة الأدبية في دفتر الملحوظات كان وما يزال مسألة أجناس أدبية، وأن تلك المادة يجب أن تكون مقالات صحفية وليس قصصاً قصيرة. لكن بعد أن نشرت خمسة أعمدة صحفية مبنية على مواد دفتر الملحوظات، غيرت رأيي ثانية: من الأفضل أن تكون أفلاماً. وبالتالي تم إنجاز خمسة أفلام ومسلسل تلفزيوني اعتماداً على تلك المواد.

الشيء الذي لم أتنبأ به أبداً هو أن عملي مع الصحافة والسينما سيفرض علي تغييراً في بعض أفكاري في هذه القصص، وبالتالي عندما كتبتها بعد ذلك في شكلها القصصي النهائي، وجب علي أن أكون حذراً جداً لكي أفصل أفكاري الخاصة بملقاط عن تلك التي اقترِحت علي من قبل المخرجين بينما كنت أكتب مخطوطات الأفلام. في الحقيقة إن تعاوني في وقت واحد مع خمسة مخرجين مختلفين قد أوحى إلي طريقةً أخرى في كتابة القصص: أبدأ بكتابة الواحدة عندما يتوفر لدي وقت فراغ، ثم أتخلى عنها فيما إذا شعرت بالضجر أو برز مشروع ما غير متوقع، وبعدئذٍ أبدأ بواحدة أخرى. في غضون سنة وبعض السنة، ستٌ

من المواد القصصية الثماني عشرة غادرت إلى سلة المهملات، ومن بينها تلك التي تتعلق بجنازتي، لأنني لم استطع أبداً جعلها تعبر بصدق عن ذلك المرح الوحشي الذي عشته في حلمي. على كل حال فإن القصص الباقية، بدت جاهزة لتبدأ حياة طويلة.

إنها القصص الاثنتا عشرة الموجودة في هذا الكتاب. في أيلول الماضي بعد سنتين أخريين من العمل المتقطع، كانت جاهزة للطبع. ذلك كان سينهي حجها الذي لا ينتهي جيئة وذهاباً إلى سلة المهملات لو لم أُنْخر بشكوك دامت إحدى عشرة ساعة مؤخرة بشكل حاسم تلك النهاية. فحيث أنني وصفت المدن الأوروبية التي كانت مسرحاً لهذه القصص من ذاكرتي، ومن مسافة بعيدة، أردت أن أتثبت من دقة ذكرياتي بعد عشرين سنة، فقمت برحلة خاطفة لأعيد التعرف على برشلونة، جنيف، روما وباريس.

لم أجد في أي منها انعكاساً لذكرياتي. بارتكاس صاعق، كل تلك المدن، مثل كل أوروبة الأيام الحاضرة، أصبحت غريبة: الذكريات الحقيقية بدت مثل سرابات، على حين أن الذكريات المزيفة بدت مقنعة جداً بحيث حلت محل الحقيقة. هذا يعني أنني لم أستطع أن أميز الخط الفاصل ما بين التحرر من الوهم وما بين الوطان. لقد كان في ذلك الجواب الحاسم لكل تساؤلاتي. ففي النهاية وجدت ما كنت في أشد الحاجة إليه لإنهاء هذا الكتاب، حيث كان لانقضاء السنين الفضل في ذلك، ألا و هو الرؤية من منظور زمني.

عندما عدت من تلك الرحلة الموفقة أعدت كتابة القصص من البداية حتى النهاية في ثمانية أشهر محمومة. وبسبب شكوكي التي كانت مفيدة لي والتي أوحت إلي بأنه ربما لا شيء كان صحيحاً مما

خبرته قبل عشرين سنة في أوروبا، كان علي ألا أسأل نفسي أين انتهت الحياة الواقعية وأين بدأ الخيال. بعد ذلك أصبحت عملية الكتابة سلسة جداً بالنسبة لي حتى أنني كنت أشعر أحياناً بأنني أكتب لمجرد المتعة الصرفة في سرد حكاية، وربما كانت تلك هي الحالة الإنسانية التي تشابه العوم في الفضاء. ولأنني عملت على كل القصص في آن واحد وشعرت بالحرية لأن أقفز إلى الخلف والأمام من واحدة إلى أخرى، فقد اكتسبت في ذهني مشهداً بانورامياً أنقذني من الوقوع في التشابه الممل لبدايات القصص المتعاقبة وساعدني لأن أتعقب الإطناب غير المدروس والتناقضات المهلكة. ذلك في اعتقادي هو السبب في إنجاز هذه المجموعة القصصية أقرب ما تكون إلى ما أردت دائماً أن أكتب.

ها هي المجموعة، جاهزة لأن توضع أمامك على الطاولة بعد كل تجوالاتها من وجهة إلى أخرى وصراعاتها لكي تنجو من انحرافات عدم اليقين. كل القصص ماعدا القصتين اللتين نشرتهما مسبقاً، تم إكمالها في نفس الوقت، وكل منها تحمل تاريخ بدء كتابتي لها. ترتيب القصص في هذه المجموعة هو نفسه كما كان في دفتر الملحوظات.

كنت دائماً على اعتقاد بأن كل صياغة تنقيحية للقصة سوف تكون أفضل من سابقتها. كيف للمرء أن يعلم إذاً أياً منها تمثل الصياغة النهائية ؟. إن ذلك يتم بنفس الطريقة التي يعرف بها الطباخ أن الحساء أصبح جاهزاً، هذا هو سر المهنة الذي لا يُطيع قوانين العقل بل سحر الغريزة. على كل حال، وبناء على ذلك، فإنني لن أعيد قراءتها، كما هي الحال مع جميع كتبي، إذ أنني لم أعد قراءة أي منها أبداً لخوفي من أنني سأندم لما كتبت. القراء القادمون سوف يدرون كيف يجب عليهم أن

يتصرفوا معها. ولحسن الحظ فبالنسبة لمجموعتي " حجيج غرباء " هذه، سيكون مصيرها إلى سلة المهملات شبيهاً بمتعة الرجوع إلى البيت.

غابرييل غارسيا ماركيز
قرطاجنة دي أنديز
نيسان 1992

حجيــج غربــاء

رحلة سعيدة، سيدي الرئيس

جلس على مقعد خشبي في ظلال الأوراق الصفراء في حديقة مهجورة، متأملاً طيور السنونو التي علا ريشها الغبار، مسنداً كلتا يديه على المقبض الفضي لعصاه، وشاغلاً فكره بقضية الموت. في زيارته الأولى لجنيف كانت البحيرة هادئة وصافية، وكانت هناك نوارس داجنة بحيث يمكن أن تطعمها من يديك، وبائعات هوى تراهن في سرابات بعيد الظهيرة بكشاكش الموسلين الشفاف وهن يحملن بأيديهن مظلات الباراسول الحريرية. أما الآن فالمرأة الوحيدة التي يمكن أن تراها هي بائعة الأزهار على الرصيف المهجور. كان من الصعب عليه أن يصدق بأن الزمن يمكن أن يسبب خراباً كهذا ليس فيما يتعلق بحياته فقط بل بكل هذا العالم.

كان يمثل إضافة أخرى للمتنكرين في مدينة ملآى بالمتنكرين المشهورين. يرتدي بدلة مخططة بخطوط ضيقة زرقاء داكنة، وصدرة من القماش المطرز، وقبعة قاسية لرجل قضاء متقاعد. كان له شاربان متعجرفان كشاربي جنديٍ ببندقية الموسكيت، وشعراً غزيراً أسوداً ضارباً إلى الزرقة مع تموجات رومانسية، ويدي عازف قيثارة مع خاتم أرمل في إصبع يده اليسرى، وعينان فرحتان. وحده التعب البادي على بشرته يفشي حالته الصحية. وعلى الرغم من ذلك، فبالنسبة لرجل في الثالثة والسبعين تبدو أناقته جديرة بالملاحظة. على كل حال فقد شعر ذلك الصباح بأن التباهي أمر بعيد عن متناوله. سنوات المجد والسلطة خلفها وراءه إلى الأبد، ولم يتبقى لديه الآن إلا سنوات موته.

عاد إلى جنيف بعد أن تركها زمناً حصلت فيه حرب ان عالميتان، باحثاً عن جواب محدد لمرض لم يستطع الأطباء في المارتينيك تحديد كنهه. كان قد خطط ألا يقيم أكثر من أسبوعين لكنه قضى ستة أشهر تقريباً في فحوصات منهكة ونتائج غير حاسمة، والنتيجة النهائية بقيت غير واضحة. بحثوا عن الألم في كبده، في كليتيه، في البنكرياس، في البروستات، وفي كل مكان لم يكن متواجداً فيه. حتى جاء ذلك الخميس البغيض عندما أخذ موعداً في التاسعة صباحاً مع قسم الأمراض العصبية الذي كانت شهرته أقل بكثير من العديد من الأطباء الذين عاينوه.

بدا المكتب أشبه ما يكون بصومعة راهب، أما الطبيب فكان صغير القد، رزيناً، ويضع جبيرة على إبهام يده اليمنى المكسور. عندما أطفأ النور ظهرت على الشاشة الصورة المضيئة لعموده الفقري المأخوذة بأشعة إكس. لكنه لم يعرف أنها تخصه حتى استخدم الطبيب مؤشراً ليدل على اتصال فقرتين أسفل ظهره.

قال الطبيب : " ألمك هنا " .

لم يكن الأمر بهذه البساطة بالنسبة له. كان ألمه غير محتملٍ ومراوغاً، و بدا أحياناً كأنه في أضلاعه في الجهة اليمنى وأحياناً أخرى في أسفل بطنه وكثيراً ما باغته بطعنة مفاجئة في أصل الفخذ. أصغى إليه الطبيب دون حراك، والمؤشر ساكن على الشاشة ثم قال: " ذاك يفسر لماذا خدعنا لهذه المدة الطويلة ". ثم أردف: " لكن نا الآن نحن نعرف بأنه هنا ". ثم وضع سبابته على صدغه وأعطى إفادته بدقة : " حتى لو تكلمنا بأشد التعابير تحديداً يا سيدي الرئيس فسنقول بأن الألم كله متوضع هنا ".

كان أسلوبه في التشخيص في غاية الدرامية بحيث بدا الحكم النهائي رحيماً: " على الرئيس أن يخضع لعملية خطيرة لا مفر منها ". سأل الرئيس حول هامش المخاطرة، أجابه الطبيب العجوز مطوقاً إياه بضوء غامض:

" نحن لا نستطيع أن نحدد ذلك على وجه الدقة ".

وبعد برهة شرح بأن نسبة عدم النجاح في الحوادث الخطيرة كبيرة في العادة. و حتى هي أكبر من ذلك في الأنواع المختلفة من الشلل. لكن مع التقدم الطبي الذي حدث في فترة مابين الحربين العالميتين فإن تلك المخاوف أصبحت أموراً من الماضي. ثم اختتم الطبيب حديثه قائلاً: " لا تقلق، رتب أمورك و بعدئذٍ اتصل معنا. لكن لا تنس، كلما كان الأمر مبكراً كان ذلك أفضل " .

لم يكن ذلك الصباح بالملائم لهضم قدرٍ كهذا من الأخبار السيئة، و خصوصاً و أنت في العراء. فقد غادر الفندق مبكراً جداً، بدون أن يرتدي المعطف لأنه رأى شمساً براقة من خلال النافذة . مشى بخطوات محسوبة من درب الشمس الصافية حيث يوجد المشفى حتى ذلك الملاذ

للعاشقين المختلسين : الحديقة الإنكليزية. بقي هناك أكثر من ساعة لا يفكر بشيء سوى الموت. صارت البحيرة هائجة كبحر غاضب. وريح خارجة على القانون بثت الرعب في النوارس التي فرّت بصحبة آخر الأوراق. قام الرئيس، وبدلاً من أن يبتاع زهرة الربيع من بائعة الأزهار، قطف واحدة من المشتل العمومي ووضعها في عروته. أمسكته بالجرم المشهود قائلة بغيظ: " هذه الأزهار ليست مشاعاً يا سيد، إنها من ممتلكات المدينة ".

تجاهلها ومشى مبتعداً بخطوات سريعة، قابضاً على عصاه من منتصفها وملوحاً بها لتدوِّم في الهواء من وقت لآخر بأسلوب فيه بعض الخلاعة. على جسر الجبل الأبيض كانت رايات الاتحاد المثارة بهبات الريح منخفضة إلى أدنى حدودها، والنافورة الجميلة المتوجة بالزبد توقف تدفق الماء فيها أبكر من المعتاد. لم ينتبه الرئيس إلى مقهاه الأثير على الرصيف، لأنهم كانوا قد فككوا الظلَّة التي تغطي المدخل، والتراس الصيفي المليء بالأزهار كان قد أغلق. في الداخل كانت هناك أضواء تتوهج في منتصف النهار، والفرقة الرباعية الوترية كانت تعزف مقطوعة لموزارت مليئة بالنذير. التقط الرئيس جريدة من على النضد من كومة مخصصة للزبائن. علق قبعته وعصاه على المشجب، وضع النظارة ذات الإطار الذهبي على عينيه ليبدأ بالقراءة على الطاولة الأكثر انعزالاً. بدأ بقراءة الصفحة الدولية، إذ كان يجد من وقت لآخر أخباراً متناثرة عن الأمريكيتين، واستمر بالقراءة من الصفحة الأخيرة حتى الأولى إلى أن جلبت له النادلة الزجاجة اليومية من مياه إيفيان المعدنية. كونه يأخذ بتعليمات طبيبه، فقد هجر عادة شرب القهوة منذ ثلاثين سنة مضت، لكنه كان يقول : " إذا عرفت مرة وبشكل مؤكد أنني سأموت، فسوف أشربها ثانية ". وربما الآن ذاك الوقت قد أتى.

طلب من النادلة بفرنسية صحيحة: " اجلبي لي القهوة أيضاً " . ثم حدد نوعها دون أن يلاحظ المعنى المزدوج: " على الطريقة الإيطالية، ومركزة جداً بحيث يمكنها أن توقظ ميتاً".

شربها بدون سكر، في رشفات بطيئة، وبعد ذلك أدار الفنجان رأساً على عقب في صحن القهوة، وبذلك فإن ثفل القهوة، وبعد سنوات عديدة، سيكون لديه الوقت الكافي لكي يدوّن له قدره. الطعم الذي استرد بعد زمن أنقذه للحظة من الأفكار الكئيبة. وبعد لحظة أخرى وكأنها جزء آخر من نفس السحر، أحس بأن شخصاً ينظر إليه. قلب الصفحة وهو ينظر نظرة عرضية. بعدئذٍ ألقى نظرة من أعلى نظارتيه، ورأى الرجل الشاحب غير حليق الوجه، الذي يلبس قبعة رياضية وسترة مبطنة بجلد الخروف، والذي نظر بعيداً في الحال وبحيث لم تتلاقَ نظراتهما.

كان وجهه مألوفاً. كان كل منهما قد مر متجاوزاً الآخر في ردهة المشفى، رآه أحياناً يركب دراجة سكوتر في م تزنزه دولاك بينما كان يتأمل طيور السنونو، لكنه لم يشعر أبداً أن أحداً يمكن أن يتعرف عليه. على كل فإنه لم يشك في فكرة أن ذلك ما هو إلا أحد الأوهام المضايقة الكثيرة في المنفى.

أنهى جريدته على مهل شارداً في ألحان رائعة على الفيولونسيل للفنان براهمس، إلى أن أصبح الألم أكبر من القدرات المسكنة للموسيقا. عندئذٍ نظر في ساعة ذهبية صغيرة معلقة بسلسلة يحملها في جيب صدرته، وأخذ الحبتين المسكنتين المخصصتين لمنتصف اليوم مع ملء الفم من مياه إيفيان . قبل أن يخلع نظارتيه كان قد حلَّ شِفرة قدره في ثفل القهوة وشعر برعدة جليدية: لقد رأى شيئاً غامضاً. أخيراً دفع الفاتورة، ترك بقشيشاً شحيحاً، التقط عصاه وقبعته عن المشجب، ومشى خارجاً إلى الشارع دون أن يلتفت إلى الرجل الذي كان ينظر إليه. انتقل

مبتعداً بمشيته المهرجانية، وهو يخطو حول مساكب الأزهار التي خربتها الريح، واعتقد بأنه تحرر من تلك التعويذة، لكن عندئذٍ سمع وقع خطوات وراءه فتوقف وهو يدور الزاوية، وقام بالالتفاف قليلاً. الرجل الذي يتبعه توقف أيضاً لبرهة ليتجنب التصادم معه، وعيناه الجافلتان تنظران إليه من مسافة لا تتعدى عدة بوصات.

تمتم الرجل قائلاً: " سينيور رئيس ".

قال الرئيس: " أخبر الناس الذين يدفعون لك بألا يُحلِّقوا بآمالهم عالياً " . ثم أضاف من دون أن يفقد الابتسام أو سحر صوته: " إن صحتي بأحسن حال ".

قال الرجل مسحوقاً بثقل الكرامة الذي سقط عليه: " لا أحد يعرف أكثر مني، أنا أعمل في المستشفى ". كان أسلوبه، نغمته، وحتى جبنه كاريبياً صرفاً .

قال الرئيس : " لا تقل لي أنك طبيب " .

" أرغب أن أكون كذلك، سينيور . أنا سائق سيارة إسعاف " .

" أنا آسف " . قال الرئيس ذلك مقتنعاً بأنه كان على خطأ ثم أردف: " إنه عمل صعب " .

" ليس صعباً كعملك، سينيور " .

نظر إليه مباشرة، متكئاً على عصاه بكلتا يديه، وسأله باهتمام حقيقي:

" من أين أنت ؟ " .

" من الكاريبي " .

قال الرئيس : " لقد عرفت ذلك للتو، لكن من أي بلد ؟ ".

" من نفس بلدك، سينيور " قال الرجل ذلك ومد إليه يده.

" اسمي هوميرو ري " .

قاطعه الرئيس مندهشاً دون أن يترك يده:

" تباً، يا له من اسم رائع ! ".

شعر هوميرو بالارتياح .

ثم قال: " كان الأفضل هوميرو دي لاكازا – أنا هوميرو ملك بيته".

رياح شتائية كطعنات السكاكين فاجأتهما في منتصف الشارع دون أن يأخذا الحيطة. ارتجف الرئيس حتى العظم وعرف أنه بدون معطف لن يستطيع أن يجتاز صفي البنايات لكي يصل إلى المطعم الرخيص الذي يأكل فيه عادة .

سأله الرئيس: " هل تناولت الغداء " .

أجاب هوميرو: " أنا لا أتغدى في العادة، أنا آكل وجبة واحدة في الليل في منزلي ".

" ليكن اليوم استثناءً " قال الرئيس ذلك مستخدماً كل سحره، ثم أضاف: " دعني أصحبك إلى الغداء ". أمسكه بيده مرافقاً إياه إلى المطعم في الجانب الآخر من الشارع. كان اسمه مكتوباً بحروف مذهبة على الظلَّة: " الثور المتوج ". كان داخل المطعم ضيقاً ودافئاً، وبدا أنه لا يوجد طاولة فارغة هناك. تعجب هوميرو بأن أحداً لم يقدِّر الرئيس، وعاد إلى الوراء ليطلب المساعدة.

قال صاحب المطعم: " هل هو رئيس في السلطة ".

أجاب هوميرو: " لا، بل مطاح به ".

ابتسم صاحب المطعم موافقاً.

" بالنسبة لهم، لدي دائماً طاولة خاصة ".

قادهما إلى طاولة منعزلة في مؤخرة الصالة، حيث بإمكانهما أن يتكلما كما يشاءا. شكره الرئيس قائلاً:

" لا أحد يعترف بكرامة المنفي كما تفعل أنت ".

كانت الوجبة الخاصة بالمطعم أضلاع العجل المشوية على الفحم. تطلع الرئيس وضيفه حواليهما وشاهدا شرائح اللحم الكبيرة المشوية والمكسية حوافها بالزبدة الطرية على الطاولات المجاورة. تمتم الرئيس:

" إنه لحم فاخر، لكن من غير المسموح لي أكله ". ثم نظر إلى هوميرو بعينين خبيثتين وغيّر نغمة صوته:

" في الحقيقة، من غير المسموح لي أن آكل أي شيء ".

قال هوميرو: " من غير المسموح لك أن تشرب القهوة أيضاً، لكنك شربتها على أية حال ".

" هل اكتشفت ذلك ؟ ". ثم أردف الرئيس: " لكن ذلك كان استثناءً في يوم استثنائي ".

لم تكن القهوة الاستثناء الوحيد الذي فعله ذلك اليوم. فقد طلب أيضاً أضلاع العجل المشوية على الفحم وسلطة الخضار الطازجة مع رشة قليلة من زيت الزيتون. طلب ضيفه نفس الشيء أيضاً، بالإضافة إلى نصف إبريق من النبيذ الأحمر.

بينما كانا ينتظران اللحم. أخرج هوميرو محفظة صغيرة خالية من النقود ومليئة بالكثير من الأوراق من جيب سترته، وعرض صورة باهتة على الرئيس، الذي تعرف فيها على نفسه وهو يرتدي القميص فقط دون السترة، وأخف وزناً بعدة أرطالٍ وبشعرٍ أسود كثيفٍ وشاربين، محاطاً بحشدٍ من الشبان الذين يقفون على أطراف أصابعهم كي يتمكنوا من الرؤية جيداً. في نظرة واحدة تعرف على المكان. تعرف على شعارات الحملة الانتخابية البغيضة، وذلك التاريخ البائس. ثم تمتم: " إنه أمر صاعق، دائماً ما أقول بأن الشخص يشيخ بشكل أسرع في الصورة منها في الحياة ". وأعاد الصورة بإيماءة قاطعة قائلاً:

" إني أتذكر ذلك جيداً، لقد حدث منذ آلاف خلت من السنين، في ميدان صراع الديكة في سان كريستوبال دي لاس كازاس ".

" إنها بلدتي ". قال هوميرو ذلك ثم أشار إلى نفسه ضمن المجموعة.

" هذا أنا ".

تمكن الرئيس من أن يميزه.

" لقد كنت ولداً ".

" إلى حد ما ". قال هوميرو ثم أردف: " لقد رافقتك في الحملة الجنوبية كلها كقائد لفرق الجامعة ".

توقع الرئيس لوم هوميرو عندما قال:

" أنا، بالطبع لم أعرك اهتماماً ".

رد هوميرو: " لا شكر على واجب، لقد كنت رائعاً جداً، لكن كان هناك الكثير منا حيث أنه من غير الممكن أن تتذكر الجميع ".

" وبعد ذلك ".

أجاب هوميرو: " أنت تعرف ذلك أفضل من أي شخص آخر، فبعد الانقلاب العسكري، المعجزة كانت أنني أنا وأنت هنا، جاهزين لأكل نصف بقرة. لم يكن الكثيرون محظوظين مثلنا ". تماماً في تلك اللحظة أُحضر طعامهما إلى الطاولة. وضع الرئيس منديله حول رقبته، فبدا أشبه بفوطة طفل، وكان مدركاً لدهشة مضيفه: " إذا لم أفعل ذلك فسوف أبلي ربطة عنق في كل وجبة ". قبل أن يبدأ، ذاق اللحم ليتأكد من طعم التوابل، أبدى استحسانه بإيماءة رضا، وعاد إلى الموضوع.

" الذي لم أستطع فهمه هو لماذا لم تقترب مني وتحدثني من قبل، بدلاً من أن تتبعني وتقتفي أثري ككلب صيد ". قال هوميرو بأنه استطاع التعرف إليه منذ أن رآه يدخل المشفى من خلال الباب

المخصص للحالات غير العادية. لقد كان ذلك في منتصف الصيف، وكان يلبس بدلة كتان من ثلاث قطع من صنع جزر الأنتيل، وجوارب سوداء وحذاء أبيض، زهرة الربيع في طية سترته، وشعره الجميل يتطاير في الريح. علم هوميرو بأنه كان وحيداً في جنيف. ولم يكن معه أحداً ليقدم له العون، فالرئيس يعرف المدينة عن ظهر قلب فقد أكمل فيها دراسته للحقوق.

إدارة المشفى وبناء على طلبه، اتخذت كل الإجراءات الداخلية الضرورية لتضمن تتكره على نحو مطلق. في ذلك المساء بعينه اتفق هوميرو وزوجته أن يتعرفا عليه. ومنذ ذلك الحين ولخمسة أسابيع ما فتئ يتبعه، منتظراً لحظة مناسبة. وربما لم يستطع الحديث لو لم يقف الرئيس قبالته.

" أنا سعيد أنني تعرفت إليك، على الرغم من أنني في الحقيقة لا أنزعج على الإطلاق كوني وحيداً ".

" ذلك غير صحيح ".

" لماذا ؟ ". سأل الرئيس بصدق ثم قال: " النصر الحقيقي في حياتي أنني جعلت الجميع ينسونني ".

" نحن نتذكرك أكثر مما تتصور ". قال هوميرو ذلك دون أن يخفي عواطفه ثم أضاف: " إنه لأمر مفرح أن أراك بهذه الحال، فتياً ومعافىً ".

أجاب الرئيس بصوت خال من الإثارة: " ومع ذلك، كل شيء يشير إلى أنني سأموت قريباً جداً ".

رد هوميرو: " فرصتك في أن تتعافى جيدة جداً ".

بدرت من الرئيس ارتعاشة مندهش لكنه لم يفقد روح الدعابة لديه.

هتف بقوة: " اللعنة: هل ألغيت السرية الطبية في سويسرا الجميلة".

أجاب هوميرو: " لا يوجد أية أسرار تخفى على سائق سيارة إسعاف في أي مشفى في أي مكان في العالم ".

" حسناً، لكن ما أعرفه حصلت عليه منذ ساعتين مضتا فقط من شفتي الرجل الوحيد الذي يمكن أن يعرفه ".

" على كل حال فإنك لن تموت عبثاً " قال هوميرو ذلك ثم أردف: " شخص ما سوف يعيدك إلى مكانك الصحيح، كمثل عظيم للشرف والعفاف ".

تظاهر الرئيس بدهشة فيها بعض الهزل وقال:

" شكراً لإخبارك إياي بذلك ".

أكل كل شيء كعادته: بدون عجلة وباهتمام كبير. وبينما هو يفعل ذلك نظر إلى وجه هوميرو مباشرة، وتملك الرجل الشاب الانطباع بأنه يستطيع أن يرى ما يمكن للرجل العجوز أن يفكر به. وبعد حديث طويل مليء بالذكريات التي تثير الوطان، تحولت ابتسامة الرئيس إلى ابتسامة خبيثة وقال:

" لقد كنت قررت ألا أعير اهتماماً إلى جثتي " ثم أردف:

" لكن الآن أرى بأنه يجب أن آخذ احتياطات جديرة برواية بوليسية لكي لا يفشى أمرها بين الناس ".

قال هوميرو هازئاً بدوره: " ذلك لن يجديك نفعاً. لا توجد أسرار تستمر في المشفى لأكثر من ساعة ".

عندما انتهيا من شرب القهوة، قرأ الرئيس قعر فنجانه، وارتعد ثانية: كانت الرسالة نفسها. ومع ذلك، فتعابير وجهه لم تتغير. دفع الفاتورة نقداً، لكنه تفحص الجموع أولاً لعدة مرات، عد نقوده بعناية بالغة مرات عديدة، وترك بقشيشاً لم يستدعِ أكثر من مجرد نظرة من النادل .

" كانت فرصة سعيدة " اختتم كلامه وهو يستأذن هوميرو بالانصراف ثم أردف: " لم أحدد موعداً للجراح بعد، وحتى لم أقرر فيما إذا كنت سأخضع للعملية أم لا. لكن إذا جرت الأمور على ما يرام، فسوف يرى كل منا الآخر ثانية ".

قال هوميرو: " ولم لا نلتقي قبل ذلك ؟ زوجتي لازارا تطبخ للناس الأثرياء. لا أحد يستطيع أن يحضر الرز بالقريدس أفضل منها، ونحن بودنا أن ندعوك إلى بيتنا في مساء قريب ".

قال الرئيس: " من غير المسموح لي أبداً تناول الأسماك القشرية، لكن سأكون سعيداً فيما لو أكلتها. فقط أخبرني متى ".

قال هوميرو: " الخميس هو يوم عطلتي ".

" هذا ممتاز " قال الرئيس، ثم أضاف: " الخميس في الساعة السابعة سأكون في منزلك. سوف يكون ذلك مدعاة لسروري ".

" سوف آتي لاصطحابك ". قال هوميرو ذلك ثم تابع: " هوتيليري دامس، شارع المنطقة الصناعية، 14 – وراء المحطة. هل ذلك صحيح؟ ".

" ذاك صحيح " قال الرئيس، ثم وقف وبدا ساحراً أكثر مما مضى.

" يظهر أنك تعرف حتى مقاس حذائي ".

قال هوميرو بدعابة: " بالطبع، سينيور، مقاس واحد وأربعون ".

الأمر الذي لم يخبر به هوميرو الرئيس، لكنه قاله بعد ذلك بسنوات لكل شخص رغب بسماعه، هو أن اهتمامه لم يكن بالأصل بهذه البراءة. مثله مثل سائقي الإسعاف الآخرين، كان قد أجرى ترتيبات معينة ما بين مؤسسات دفن الموتى وشركات التأمين ليبيع خدماتهم داخل المشفى، وقبل كل شيء للمرضى الأجانب ذوي الموارد المالية المحدودة. كانت المنفعة التي يجنيها من ذلك قليلة وكان عليه تقاسمها مع المستخدمين

الآخرين الذين يطَّلعون على الملفات السرية للمرضى المصابين بأمراض خطيرة. لكن ذلك كان فيه بعض السلوى لمنفي بلا مستقبل يحاول أن يعيل زوجته وولدين من راتب هزيل.

زوجته لازارا دافيز كانت أكثر منه واقعية. امرأة خلاسية نحيلة من سان جوان في بورتوريكو، كانت ذات قدٍّ قصير وجسم متين. وبشرة بلون الكاراميل، ولها عينا ثعلبة، يتلاءمان مع مزاجها تماماً. التقى بها في الجناح الخيري للمشفى، حيث كانت تعمل كمساعدة عمومية بعد وفاة خبير مالي من بلدها كان قد جلبها إلى جنيف كمربية لأطفاله، وخلَّفها وحيدة في المدينة على غير هدى. تزوجا على الطريقة الكاثوليكية برغم أنها كانت أميرة من شعب اليوربا، وعاشا في شقة تحتوي على غرفتي نوم في الطابق الثامن من بناية ليس بها مصعد ويسكنها مهاجرون أفارقة. ابنتهما باربرا، كانت تبلغ من العمر تسع سنوات، وابنهما الذي بلغ السابعة بدت عليه علامات إعاقة عقلية خفيفة.

كانت لازارا دافيز امرأة ذكية و ذات مزاج رديء، لكنها كانت تملك قلباً رقيقاً. كانت تعتبر نفسها ثوراً نقياً، وآمنت إيماناً أعمى في تنبؤاتها النجومية. ومع ذلك فلم تستطع تحقيق حلمها بأن تكسب عيشها كمتنبئة فلكية لأصحاب الملايين. من جانب آخر، فقد ساهمت بشكل جزئي وأحياناً بقسط مهم في الموارد المالية للعائلة وذلك من خلال تحضير وجبات العشاء للسيدات الغنيات اللواتي أردن أن يثرن إعجاب ضيوفه ن بجعلهم يعتقدون بأنهن حضرن الأطباق الأنتيلية الشهيرة بأنفسهن. جبن هوميرو كان يدعو للأسى، ولم يكن لديه أي طموح خلا القليل الذي يكسبه، لكن لازارا لم تكن تتصور الحياة بدونه نظراً لطيبة قلبه وحجم عضوه. كانت الأمور تسير معهما بشكل مقبول، لكن كل سنة كانت أصعب من سابقتها والولدان يكبران وتزداد احتياجاتهما. في الوقت الذي

وصل فيه الرئيس، كانا قد بدءا ينفقان من مدخرات خمس سنين خلت. وهكذا عندما اكتشفه هوميرو ري بين المرضى المتنكرين في المستشفى ، انتعشت آمالهما ثانية.

لم يكونا يعرفان بوجه الدقة ما الذي سيطلبا نه وبأي وجه حق. في البداية خططا أن يبيعاه خدمات الجنازة كاملة متضمنة التحنيط والإعادة إلى الوطن. لكن أدركا شيئاً فشيئاً بأن موته لا يبدو وشيكاً كما ظنا في البداية. وفي يوم الغداء الموعود كانت الشكوك تملأ ذهنيهما تشوشاً.

في الحقيقة إن هوميرو لم يكن قائداً لفرق الجامعة أو لأي شيء آخر، والدور الوحيد الذي لعبه في الحملة الانتخابية هو وجوده في الصورة التي استطاعا أن يجداها بما يشبه المعجزة تحت كومة من الأوراق في الخزانة. لكن حماسته كانت حقيقية. الأمر الصحيح الآخر هو أنه أجبر على أن يهرب من بلده بسبب مشاركته في احتجاجات جماهيرية ضد الانقلاب العسكري، برغم أن السبب الوحيد لبقائه في جنيف بعد هذه السنوات الكثيرة كان افتقاره للعزيمة. وهكذا فإن كذبة أو أكثر لن تكون عقبة في كسب حظوة الرئيس.

المفاجأة الأولى لهما كانت أن هذا المنفي الشهير يعيش في فندق من الدرجة الرابعة في منطقة كئيبة في ليه غروت، ما بين المهاجرين الآسيويين وبنات الليل، ويأكل وحيداً في مطعم رخيص، في الوقت الذي تمتلئ فيه جنيف بالمساكن التي تليق بالسياسيين المطرودين. يوماً بعد يوم، رآه هوميرو يكرر ذلك الروتين اليومي. كان يتبعه بعينيه أحياناً من مسافة أقل مما يستدعيه الحذر، في مشاويره الليلية بين الجدران الحزينة وأزهار الجرس الممزقة في المدينة القديمة. رآه غارقاً في أفكاره لساعات أمام نصب كالفن. وبينما أنفاسه عابقة بروائح العطر الشذي للياسمين، تبعه خطوة بخطوة وهو يصعد الدرج الحجري ليتأمل الغروب البطيء

للشمس في الصيف من قمة بورغ دوفور. رآه في إحدى الأمسيات تحت المطر في أول هطول له في الموسم، بدون معطف أو مظلة، يقف في صف من الطلاب لحضور حفلة موسيقية لروبشتَين. قال هوميرو بعد ذلك لزوجته: " لا أدري لماذا لم يصب بذات الرئة ". في السبت الماضي، عندما بدأ الطقس بالتبدل، رآه يشتري معطفاً شتوياً بقبة من فرو المنك الاصطناعي، لكن ليس من المتاجر المتألقة على طول شارع دون رون، حيث أمراء اللاجئين يتبضعون حاجياتهم، بل في سوق السلع المستهلكة.

صرخت لازارا عندما أخبرها هوميرو بذلك: " إذاً ليس لدينا ما يمكن أن نفعله " ثم أردفت: " إنه بخيل لعين سوف يحصل لنفسه على جنازة خيرية وسوف يدفن في قبر للمعوزين، لن نحصل منه على شيء ".

قال هوميرو: " ربما كان فقيراً حقيقةً، بعد سنوات كثيرة دون عمل".

" آه يا صغيري. أمر واحد مؤكد إما أن تكون من برج الحوت وبرفقة شخص من برج الحوت نجمه ساطع، أو أن تكون أحمق تافهاً ". قالت لازارا ذلك ثم أردفت: " الكل يعرف بأنه سرق ذهب بلاده وهرب به وأنه المنفي الأكثر غنىً في المارتينيك ".

هوميرو الذي كان أكبر سناً منها بعشر سنين، تربى متأثراً بالمقالات الصحفية التي تتحدث عن أن الرئيس درس في جنيف وكان يعيل نفسه عن طريق العمل كعامل بناء. لازارا، بالمقابل، كانت قد تربت بين المقالات الفضائحية في صحف المعارضة والتي كانت تبجِّل في الأسرة المعارضِة التي عملت عندها كمربية أطفال منذ أن كانت شابة صغيرة. وبالنتيجة، أتى هوميرو ليلاً إلى البيت مقطوع الأنفاس ابتهاجاً لأنه تغدى مع الرئيس. لم تكن مقتنعة بخلاصة أنه صحبه إلى

مطعم غالٍ. أزعجها أن هوميرو لم يطلب منه أياً من الأشياء التي لا حصر لها والتي حلما بها، بدءاً من منح تعليم ية للأولاد وحتى عمل أفضل في المشفى. قرار الرئيس بأن يترك جسده للنسور بدلاً من أن ينفق الفرنكات على دفن لائق، وإعادة مجيدة لجسده إلى بلده بدا وكأنه يؤكد لها شكوكها. لكن القشة الأخيرة كانت الأخبار التي تركها هوميرو حتى الأخير، وفحواها أن هوميرو دعا الرئيس إلى وجبة من الرز بالقريدس مساء الخميس.

صرخت لازارا: " ذلك هو ما نحتاجه بالضبط " ثم أضافت: " لكي يموت هنا، مسموماً بالقريدس المعلب، وأن نستخدم مدخرات الأولاد من أجل دفنه ".

لكن الذي حدد قرارها في النهاية كان ثقل إخلاصها الزوجي. قامت باستعارة ثلاثة أطقم مائدة فضية وزبدية سلطة من الكريستال من إحدى الجارات. دلة قهوة كهربائية من أخرى، وغطاء طاولة مزركش وطقم قهوة صيني من الثالثة. فككت الستائر القديمة وركبت بدلاً منها الستائر التي تستخدمها في الأعياد، وأزالت الأغطية عن الأثاث. استغرقت يوماً كاملاً في تنظيف الأرضيات، نفض الغبار، نقل الأغراض من هنا إلى هناك. حتى أنجزت في النهاية تماماً عكس ما يمكن أن يفيدها جداً، وهو أن تثير احترام ضيفها للفقر.

وفي مساء الخميس، وعندما كان قد التقط أنفاسه بعد صعوده إلى الطابق الثامن، ظهر الرئيس على الباب بمعطفه الجديد، وبقبعةٍ بلون البطيخ والتي تنتمي إلى عصر آخر، ومعه وردة وحيدة حمراء للازارا. نظراته الرجولية الجذابة ومحياه الذي يليق بأمير خلّفا فيها انطباعاً قوياً، لكن بغض النظر عن هذا فقد رأت ما كانت تتوقع أن تراه: رجلاً مخادعاً وجشعاً. لقد اعتبرته لازارا رجلاً بعيداً عن الأعراف الاجتماعية، لأنها

طبخت الطعام والنوافذ مفتوحة لتمنع رائحة القريدس من الدخول إلى المنزل، وكان أول شيء فعله عندما دخل أخذه نفساً عميقاً، وكأنه أحس بنشوة مفاجئة، وهتف وعيناه مغلقتان وذراعاه مبسوطتان: " آه، إنها رائحة محيطنا ! ". لقد اعتبرته شحيحاً أكثر من أي وقت مضى لأنه جلب لها وردة واحدة، مسروقة بلا شك من الحديقة العامة. لقد اعتبرته متغطرساً لنظرته المزدرية إلى قصاصات الجرائد التي تتحدث عن أمجاده الرئاسية، والأعلام المثلثة والرايات الخاصة بحملته الانتخابية، والتي علقها هوميرو بإخلاص شديد إلى جدار غرفة المعيشة. لقد اعتبرته رجلاً متحجر الفؤاد لأنه لم يكلف نفسه عناء إلقاء التحية على بربارا و لازارو، الذين صنعا هدية له، وخلال العشاء أشار إلى أمرين لا يمكنه تحملهما: الكلاب والأولاد. لقد شعرت بكراهية تجاهه. وبرغم ذلك، فإن ملكة الضيافة الكاريبية لديها غلبت تحاملها عليه. كانت قد ارتدت عباءة افريقية تعودت أن ترتديها في المناسبات الخاصة. لبست أيضاً عقودها وأساورها، وخلال تناول الطعام لم تقم بأية حركة أو التفاتة غير ضرورية أو تقول كلمة وحيدة زائدة. كانت أكثر من كونها شخص بلا عيوب، كانت شخصاً كاملاً بكل ما في الكلمة من معنى.

في الحقيقة لم يكن الرز بالقريدس من الوجبات التي تطهى في مطبخها، لكنها حضرته برغبة واهتمام إلى أبعد الحدود وكانت النتيجة رائعة. أخذ الرئيس حصتين من الطعام ولم يبدِ تحفظاً في امتداحه. وكان مسروراً بشرائح موز الجنة الناضج المقلي، وبسلطة الأفوكادو، برغم أنه لم يشترك معهما في حنينهما إلى الوطن. روضت لازارا نفسها كي تصغي حتى موعد تقديم الحلوى، عندما، وبدون سببٍ واضح، وجد هوميرو نفسه معترَض السبيل في نهاية طريق مسدود فيما يخص مسألة وجود الله.

" أنا أعتقد بوجود الله " قال الرئيس ذلك ثم أضاف: " لكن ليس هناك ما يفعله بخصوص البشر، إنه مهتم بأشياء أكبر بكثير ".

قالت لازارا: " أنا أومن فقط بالنجوم " وأمعنت النظر برد فعل الرئيس وهي تقول: " في أي يوم ولدت ؟ ".

" في الحادي عشر من آذار ".

" لقد عرفت ذلك " قالت لازارا مع وثبة نصر صغيرة وسألت في صوت عذب: " ألا تعتقد أن وجود حوتين على نفس الطاولة هو أمر زائد عن الحد ؟ ".

كان الرجل ما يزال يناقش مسألة وجود الله عندما ذهبت إلى المطبخ لتحضر القهوة. نظفت الطاولة وتاقت من كل قلبها لموعد حلول المساء لتنتهي الأمور على خير ما يرام. وبطريق عودتها إلى غرفة المعيشة حاملة القهوة، سمعت ملاحظة عابرة من الرئيس كان لها وقع الصاعقة.

" كن على يقين يا صديقي: إن أسوأ شيء يمكن أن يحصل لبلدي الفقير هو أن أكون رئيساً له ".

رأى هوميرو لازارا في المدخل ومعها فناجين الصيني المستعارة ودلة القهوة وظن أنه سيغمى عليها. انتبه إليها الرئيس قائلاً بنغمة ودية: " لا تنظري إلي بهذا الشكل سينيورة، أنا أتكلم من كل قلبي ". وعندئذٍ تحول إلى هوميرو مختتماً حديثه: " إنه أمر حسن أنني أدفع غالياً ثمن حماقتي ".

قدمت لازارا القهوة وأطفأت الضوء فوق الطاولة لأن الإضاءة الشديدة لم تكن تساعد على الحديث ، وبقيت الغرفة في عتمة حميمية خفيفة. وللمرة الأولى أثار الضيف اهتمامها، والذي لم يستطع ظرفه أن

يخفي حزنه . زاد فضول لازارا عندما انتهى من شرب القهوة ثم قلب الفنجان رأساً على عقب في الصحن ليثبت الثفل في الفنجان.

أخبرهما الرئيس بأنه اختار جزيرة المارتينيك كمنفى له بسبب صداقته مع الشاعر إيميه سيزار، الذي كان قد نشر في تلك الفترة ديوانه " دفتر العودة إلى مسقط الرأس ". وقد ساعده على أن يبدأ حياة جديدة. باستخدام ما تبقى من ميراث زوجته اشترى الرئيس منزلاً مصنوعاً من الخشب الفاخر في تلال فورت دي فرانس. كان البيت مزوداً بشريط منخلي على النوافذ، وتراساً يطل على البحر، ومليء بالأزهار البرية، حيث كان من مدعاة السرور أن ينام المرء على أصوات صراصير الليل والنسيم العابق بالمولاس وشراب الروم المنبعث من طواحين السكر. هناك أقام مع زوجته التي تزيده بأربعة عشر عاماً وابنهما المريض، مقوياً عزيمته تجاه الأقدار عن طريق قراءاته المعتادة للكلاسيكيات اللاتينية بلغتها الأصلية، وعن طريق الاقتناع بأن ذلك هو المشهد الأخير في حياته. كان عليه أن يقاوم لسنوات إغراءات المغامرات من كل الأصناف والتي اقترحت عليه من قبل مواليه المهزومين.

قال الرئيس: " لكني قررت ألا أفتح رسالة أخرى ثانية أبداً، حيث اكتشفت بأن الأكثر عجلاً منها هي الأقل عجلاً بعد أسبوع، وفي غضون شهرين ، فإن المرء ينساها وينسى الأشخاص الذين كتبوها ".

نظر إلى لازارا في الظلام الخفيف عندما أشعلت سيجارة، وأخذها من يدها بحركة شرهة من أصابعه. وبعد مجة دخان طويلة. أبقى الدخان في حنجرته. لازارا التي جفلت من تصرفه، التقطت علبة السجائر وعلبة الثقاب لتشعل أخرى، لكنه أعاد السيجارة المشتعلة إليها قائلاً: " أنت تدخنين بمتعة كبيرة بحيث لا أستطيع أن أقاومها ". ثم كان عليه أن يطلق الدخان بعد أن بدأ بالسعال.

" لقد هجرت هذه العادة منذ سنوات خلت لكنها لم تهجرني تماماً أبداً " ثم أضاف: " أحياناً تهزمني، مثلما حدث للتو ". نخعه السعال مرتين أخريين. لقد عاد الألم. نظر الرئيس إلى ساعة الجيب الصغيرة، وأخذ حبتي الدواء المخصصتين للمساء. بعدئذٍ حدَّق في قعر الفنجان: لم يبدُ أي تغير عليه لكنه لم يعد يرتجف.

قال الرئيس: " بعض من مناصريَّ أصبحوا رؤساء من بعدي ".

" سایاغو " قال هوميرو .

رد الرئيس: " سایاغو وآخرون " ثم أضاف: " كل منا يغتصب لقباً لا يستحقه، ومنصباً لا يعرف كيف يشغله ، البعض يسعى إلى السلطة ، ولكن الأغلب يبحث عما هو أقل من ذلك: عن عمل ".

أضحت لازارا غاضبة وسألته: " هل تعرف ما يقولون عنك ؟ ".

تدخل هوميرو و بشكل مفاجئ :

" إنهم كاذبون ".

قال الرئيس بهدوء سماوي: " إنهم كاذبون وغير كاذب ين " ثم أضاف: " عندما يتعلق الأمر بالرئيس فإن أكثر الأشياء خزياً يمكن أن يكون صحيحاً وكاذبلًفي الوقت نفسه ".

لقد عاش في المارتينيك كل أيام منفاه، اتصاله الوحيد مع العالم الخارجي كان بعض المواد الإخبارية في الصحيفة الحكومية. كان يحصل على بعض المال اللازم لاحتياجاته المعيشية من خلال تعليمه الأسبانية واللاتينية في مدرسة ثانوية رسمية، بالإضافة لبعض الترجمات التي كان يكلفه بها إيميه سيزار من وقت لآخر. الحرارة في آب كانت لا تطاق. وكان عليه أن يمكث في أرجوحة شبكية حتى الظهيرة، يقرأ على همهمة المروحة في غرفة النوم. حتى في أشد الأوقات حرارة من اليوم كانت زوجته منصرفة للعناية بالطيور التي تربيها في الفناء غير

المسور. حامية نفسها من الشمس بارتدائها قبعة قش ذات حواف عريضة مزخرفة بفواكه اصطناعية وأزهار من الأورغاندي. لكن عندما تهبط الحرارة، كان من المناسب الجلوس في الهواء المعتدل على التراس. هو يجلس وعيناه مثبتتان على المحيط حتى حلول الظلام، وهي تجلس في كرسيها الهزاز من القصب المجدول، ترتدي قبعة ممزقة، وخواتم ذات أحجار كريمة براقة في كل أصابعها، تراقب السفن من شتى أنحاء العالم وهي تمر عن قرب. قد تقول : " تلك السفينة متجهة إلى بورتو سانتو ". ثم تقول: " وتلك الأخرى تكاد لا تستطيع الحركة، إنها مثقلة بالموز من بورتو سانتو ". فلم يكن ممكناً بالنسبة لها أن تمر أية سفينة دون أن تكون متجهة من أو إلى بلدها. كان يتظاهر بأنه لا يسمع، مع أنها في خاتمة المطاف تمكنت من أن تنسى بشكل أفضل منه لأنها فقدت ذاكرتها. لقد اعتادا أن يجلسا على هذه الحال حتى يصل الغسق الصاخب إلى نهايته، ومن ثم يلوذان بمنزلهما . مهزومين بالبعوض. خلال أحد أيام آب تلك وبينما كان الرئيس يقرأ الجريدة على التراس بدرت منه جفلة مفاجئة وقال:

" اللعنة، لقد هلكت، لقد مت في استوريل " .

زوجته التي كانت شاردة يغالبها النعاس، دبَّ الخبر الذعر في قلبها. كان المقال من خمسة أسطر في الصفحة الخامسة من صحيفة تطبع على مقربة من مكان تواجدهما، حيث ترجماته العرضية كانت تنشر فيها ويأتي مديرها ليزوره بين حين وآخر. والآن أُعلن أنه توفي في استوريل دي لشبونة: منتجع وملاذ الانحلال الأوروبي، والمكان الوحيد في العالم الذي لا يرغب أن يموت فيه . في الواقع توفيت زوجته بعد ذلك بسنة معذبة بما بقي لديها من ذاكرة : ذكرى ابنها الوحيد، الذي كان

له دور في هزيمة والده، والذي قتل بعد ذلك من قبل أحد شركا ئه في الإجرام.

تنهد الرئيس قائلاً: " ذلك هو قدرنا، ولا يمكن لأحد أن ينقذنا ". ثم أضاف: " قارة حبلى بنفاية الأرض ليس فيها لحظة واحدة للحب: الأولاد المختطفون، الاغتصاب ، انتهاك الحرمات، الصفقات التجارية سيئة السمعة، الخداع، تحالف الأعداء مع الأعداء ". تقابلت عيناه بعيني لازارا الأفريقيتان اللتان كانتترمقاه بنظرة خالية من الرحمة، وهو يحاول أن يكسبها إلى جانبه مستخدماً بلاغة أستاذ قديم.

" خلط الأعراق يعني خلط الدموع المذروفة على الدم المسفوك. ما الذي يمكن للمرء أن يتوقعه من جرعة كهذه ؟ " .

ثبتت لازارا نظرها عليه وهي جالسة في مكانها بادياً عليها صمت الموت. لكنها استطاعت أن تستعيد السيطرة على نفسها قبل حلول منتصف الليل وتقول له ليلة سعيدة مع قبلة مجاملة. رفض الرئيس أن يدع هوميرو يرافقه إلى الفندق. لكنه لم يستطع أن يمنعه من مساعدته في العثور على سيارة أجرة. وعندما عاد هوميرو كانت زوجته تشتاط غضباً:

" إنه في طليعة من يستحق الإطاحة به من بين رؤساء العالم كله، يا له من ابن عاهرة ".

على الرغم من جهود هوميرو كي يهدئها فقد قضيا ليلة مزعجة لم يناما فيها. اعترفت لازارا بأنه كان واحداً من أجمل الرجال طلة الذين رأتهم في حياتها. بسلطته المغرية المدمرة، ورجولته التي تليق بجواد الاستيلاد. وقالت: " تماماً كما هو الآن، عجوزاً، وتالفاً، فإنه ما يزال نمراً في الفراش ". لكنها اعتقدت بأنه شتت هذه المنح التي وهبه الله إياها في سبيل المظاهر والتباهي. لم تستطع أن تتحمل تفاخره بأنه كان أسوأ

رئيس لبلاده. أو مظاهر الزهد التي تبدو عليه، وهي التي كانت على قناعة بأنه كان يمتلك نصف مزارع السكر في المارتينيك. أو نفاقه بخصوص ازدرائه للسلطة، بينما كان واضحاً بأنه يمكن أن يدفع الغالي والرخيص ليعود إلى السلطة ويبقى مدة كافية تمكنه من القضاء على أعدائه.

ثم اختتمت: " وفوق كل هذا، يود أن يجعلنا نتعبد عند قدميه ! ".

سألها هوميرو: " وما الذي يمكن أن يفيده ذلك ؟ " .

ردت لازارا: " لاشيء على الإطلاق، لكن في الحقيقة أن تكون مغوياً فذاك يعني أن لديك إدمان لا يمكن إشباعه ".

كان غيظها شديداً إلى درجة أن هوميرو لم يتحمل البقاء معها في الفراش، وقضى بقية الليل ملفوفاً ببطانية على الأريكة في غرفة المعيشة. استيقظت لازارا أيضاً في منتصف الليل عارية من رأسها إلى أخمص قدميها – على عادتها عندما تنام أو عندما تكون في المنزل – وتحدثت إلى نفسها في مناجاة تركزت على فكرة واحدة. وبضربة واحدة محت من ذاكرتها البشرية كل آثار العشاء البغيض. وعند حلول الفجر أعادت كل ما كانت قد اقترضته، نزعت الستائر الجديدة وأعادت القديمة، أرجعت الأثاث كما كان عليه، وهكذا بدا المنزل فقيراً ومتواضعاً مثلما كان في الليلة قبل الماضية. بعدئذٍ مزقت قصاصات الورق، الصور، والأعلام المثلثة والشعارات المتعلقة بالحملة الانتخابية المقيتة، ورمتها في سلة المهملات مصحوبة بصرخة أخيرة:

" بمقدورك الآن الذهاب إلى الجحيم ".

بعد أسبوع من ذاك العشاء، وجد هوميرو الرئيس وهو خارج من المشفى، ودعاه لاصطحابه إلى الفندق الذي يقيم فيه، صعدا ثلاثة أدراج

ذات درجات عالية حتى وصلا إلى العلية التي فيها منور واحد في السقف يطل على السماء الرمادية؛ الثياب كانت منشورة كي تجف على حبل غسيل يمتد عبر الغرفة. كان يوجد أيضاً سريراً مزدوجاً شغل نصف مساحة المكان، كرسي غير مريح، مغسلة، و " بيْديه " محمول، وخزانة رجل فقير ذات مرآة ملطخة. لاحظ الرئيس ردة فعل هوميرو:

" هذا هو الجحر الذي عشت فيه عندما كنت طالباً ". قال ذلك وكأنه يعتذر ثم أضاف: " لقد قمت بالحجز من فورت دي فرانس ".

أخرج من محفظة مخملية البقية الباقية من ثروته وعرضها على السرير: أساور ذهبية عديدة مزخرفة بحجارة كريمة متنوعة، عقداً من اللآلئ مجدولاً جدائل ثلاثية، واثنين آخرين من الذهب والحجارة الكريمة، ثلاث سلاسل ذهبية تحمل ميداليات لصور القديسين؛ زوج أقراط من الذهب والزمرد، وآخر من الذهب والألماس، وثالث من الذهب والياقوت؛ مذخرتين ومدلاة؛ أحد عشر خاتماً ذوات فصوص كريمة باطارات متنوعة؛ وعصابة رأس مرصعة بالألماس تليق بملكة. ثم أخرج من صندوق ثلاثة أزواج من أزرار الأكمام الفضية واثنين آخرين من الذهب وكلها مصحوبة بمثبتات ربطات عنق مناسبة، وساعة جيب ملبسة بالذهب الأبيض. بعد ذلك أخرج أوسمته الستة من إحدى علب الأحذية: اثنان من الذهب، وواحد من الفضة والبقية لا قيمة لها. ثم قال:

" ذلك كل ما أملكه في هذه الدنيا " .

لم يكن لديه خيار إلا أن يبيعها كي يفي بمصاريف علاجه الطبي، وطلب من هوميرو أن يتفضل ويقوم بتلك المهمة بحذر وكتمان شديد. لكن هوميرو أشعره بأنه لن يستطيع القيام بذلك ما لم تكن لديه الإيصالات المناسبة.

أوضح الرئيس بأن الجواهر كانت تخص زوجته، وهي ميراث عن جدتها التي عاشت في العهود الاستعمارية التي ورثت مجموعة أسهم في مناجم الذهب الكولومبية. أما الساعة وأزرار الأكمام ومثبتات ربطات العنق فهي تخصه وحده. ومثلها الأوسمة بالطبع لا تخص شخصاً آخر سواه.

قال الرئيس: " لا أعتقد أنه لدى أي شخص إيصالات لأشياء كهذه ". لكن هوميرو كان صلباً وعنيداً فكان رد فعل الرئيس أن قال: " في هذه الحال، ليس هناك ما يمكن أن أفعله سوى أن أتدبر الأمر بنفسي ".

بدأ بجمع الجواهر بهدوء وترو مقصود وقال: " أرجوك سامحني يا عزيزي هوميرو، لكن لا يوجد تعاسة أسوأ من تعاسة رئيس مسلوب القوى، حتى النجاة بحياته تبدو أمراً يبعث على الازدراء ". في تلك اللحظة رق قلب هوميرو وألقى بجميع أسلحته.

عادت لازارا متأخرة إلى البيت تلك الليلة. وما أن فتحت الباب حتى رأت الجواهر تلمع على الطاولة تحت ضوء المصباح الزئبقي، وبدا وكأنها رأت عقرباً في فراشها وخاطبت هوميرو مرتعبةً: " لا تكن أبله يا صغيري، قل لي لماذا هذه الأشياء هنا ؟ " .

توضيحات هوميرو زادتها إرباكاً. ومن ثم جلست لتتفحص القطع واحدة تلو الأخرى بعناية صائغ. وبعد قليل صدر عنها تنهيدة وقالت: " إن قيمتها تعادل ثروة حقيقية ". وفي النهاية جلست تنظر إلى هوميرو دون أن تجد طريقة تخرجها من مشكلتها ثم قالت: " اللعنة، كيف نستطيع أن نعرف أن كل ما يقوله ذلك الرجل صحيحاً ؟ ".

رد هوميرو: " ولمَ لا يكون ذلك صحيحاً، لقد رأيته يغسل ثيابه ويعلقها لتجف على حبل في غرفته كما نفعل نحن ".

قالت لازارا: " لأنه شخص شحيح ".

رد هوميرو : " أو لأنه فقير ".

تفحصت لازارا الحلي ثانية، لكن هذه المرة باهتمام أكبر وتوتر أقل لأنها هي أيضاً شعرت بأنها قد هزمت. وهكذا في الصباح التالي لبست أفضل ما لديها من ثياب، وتزينت بالقطع التي بدت بأنها الأغلى ثمناً، ووضعت ما أمكنها من الخواتم في كل أصابعها، حتى في إبهامها. وكل ما أمكنها أن تلبس من الأساور وبالشكل اللائق في كلا ذراعيها، وخرجت لكي تبيعها جميعها. وقالت عندما كانت تهم بمغادرة المنزل وهي تختال ضاحكة: " لنرى إذا كان سيطلب أياً كان إيصالات من لازارا دافيز. اختارت متجر المجوهرات المناسب: واحداً تظهر عليه الخيلاء أكثر مما يبدو عليه الاحترام، حيث كانت تعرف بأن أمثال هؤلاء يبيعون ويشترون دون طرح الكثير من الأسئلة، ومشت إلى الداخل بوجل لكن بخطوات تبدو الثقة فيها.

البائع النحيف الشاحب، الذي كان يرتدي لباس السهرة انحنى لها انحناءة مسرحية وقبَّل يدها وسألها كيف بإمكانه أن يساعدها. المرايا والأضواء القوية جعلت داخل المحل أكثر إضاءة من وضح النهار، وبدا المتجر بكامله وكأنه مصنوع من الألماس. تبعت لازارا البائع إلى صدر المتجر وبدون أن تنظر إليه لخوفها من أن يدرك المرامي الخفية لمسرحيتها الهزلية.

دعاها لتجلس وراء واحد من ثلاثة مكاتب من طراز لويس الخامس عشر، والتي تخدم كنضد مستقلة، وفوق كل منها نشر قطعة قماش خالية من النقوش. وجلس قبالة لازارا منتظراً ثم قال:

" كيف يمكنني أن أساعدك ؟ " .

نزعت لازارا الخواتم، الأساور، العقود، الأقراط وكل ما كانت تلبسه من حلي على مرأى العين، وبدأت تضعها على المكتب على شكل

نموذج رقعة شطرنج. وقالت أن جل ما تريد هو أن تعرف قيمتها الحقيقية.

وضع الجوهري عدسة تحت عينه اليسرى، وبدأ يتفحص القطع بصمت طبيب تشخيص. وبعد مدة طويلة وبدون أن يوقف تفحصه سألها:

" من أين أنت ؟ " .

لازارا التي لم تتوقع هكذا سؤال أجابت متنهدة:

" أجل، سينيور، من مكان بعيد جداً ".

رد الجوهري: " أتصور ذلك ".

عاد إلى همته ثانية بينما كانت عينا لازارا الرهيبتان تتفحصانه دون رحمة. كرَّس الجوهري اهتماماً كبيراً لعصابة الرأس المرصعة بالألماس ووضعها بعيداً عن الحلي الأخرى. تنهدت لازارا قائلة:

" إنك رجل عذراء حقيقي ".

قال الجوهري دون أن يوقف تفحصه:

" كيف عرفت ؟ ".

قالت لازارا: " من الطريقة التي تتصرف بها ". لم يصدر عنه أي تعليق حتى انتهى من عمله، وعندئذٍ خاطبها بنفس الحذر الذي ظهر به في البداية.

" ما مصدر هذه الأشياء ؟ ".

" إنها ميراث من جدتي " قالت لازارا ذلك بصوت متوتر ثم أضافت: " لقد توفيت السنة الماضية في باراماريبو عن عمر السابعة والتسعين ".

نظر الجوهري في عينيها وقال: " أنا آسف جداً " ثم أضاف: " لكن قيمتها تكمن فقط في وزن الذهب ". التقط عصابة الرأس برؤوس أصابعه وتركها تلمع تحت الضوء الباهر وقال:

" ماعدا هذه، إنها قديمة جداً. ربما كانت فرعونية. و كان يمكن أن لا تقدر بثمن لولا الحالة السيئة للألماسات، وفي جميع الأحوال فإن لها قيمة تاريخية ".

لكن فيما يتعلق بالحجارة في الحلي الأخرى، أحجار الجمشت والزمرد، الياقوتات وأحجار الأوبال – جميعها، بلا استثناء – قد تم استبدالها بأخرى مزيفة. وقال هو يجمع القطع ويعيدها إليها: " لا شك أن الأصلية كانت نفيسة جداً، لكنها انتقلت من جيل إلى جيل بحيث أن الحجارة الحقيقية سرقت واستبدلت بأخرى من الزجاج المستخدم في العبوات الزجاجية ". شعرت لازارا بغثيان المغفلين، أخذت نفساً عميقاً وسيطرت على الذعر الذي انتابها. واساها البائع قائلاً:

" كثيراً ما يحصل ذلك يا سيدتي ".

أجابت لازارا وقد عادت إليها الحياة ثانية: " أعرف، وذلك هو السبب الذي يجعلني أقرر التخلص منها ".

شعرت بأنها قد خلَّفت المسرحية وراءها، وعادت إلى شخصيتها الحقيقية ثانية. وبدون أي تأخير أخرجت من حقيبتها اليدوية أزرار الأكمام، ساعة الجيب، مثبتات ربطات العنق، أوسمة الذهب والفضة وبقية حلي الرئيس الشخصية ووضعتها على الطاولة.

قال الجوهري: " وهذا أيضاً ؟ " .

ردت لازارا : " كله " .

قبضت الثمن بالفرنكات السويسرية التي كانت جديدة لدرجة أنها ظنت بأن أصابعها ستتلطخ بالحبر الطري. أخذت النقود دون أن تعدها،

وكان وداع الجوهري على الباب رسمياً كما كان ترحيبه. وعندما فتح لها الباب الزجاجي، أوقفها للحظة قائلاً: " هناك شيء أخير، يا سيدتي. أنا من برج الدلو ".

في بداية عشية ذلك اليوم أخذ هوميرو ولازارا النقود إلى الفندق. وبعد حسابات أكثر عمقاً وجدا أنهما يحتاجان إلى كمية قليلة أخرى من النقود. وهكذا بدأ الرئيس بنزع خاتم زواجه ووضعه على السرير، ثم ساعته وسلسالله، وأزرار الأكمام ومثبت ربطة العنق التي كان يلبسها.

أعادت لازارا إليه الخاتم قائلة:

" لا، ليس هذا، تذكار مثل هذا يجب ألا يباع ".

سلم الرئيس بصحة ما قالت وأعاد الخاتم إلى إصبعه، أعادت لازارا أيضاً الساعة والسلسال قائلة: " ولا هذه أيضاً ". لم يوافق الرئيس، لكنها أشعرته بالخجل من مراده:

" من ذا الذي يفكر بمحاولة بيع ساعة في سويسرا ؟ ".

قال الرئيس: " لقد فعلنا ذلك سابقاً ".

" نعم، لكن ليس الساعة، نحن بعنا الذهب ".

قال الرئيس: " وهذه من الذهب أيضاً ".

قالت لازارا: " أجل " ثم أضافت: " قد تشفى بدون إجراء عملية جراحية، لكن الساعة ضرورية للتعرف على الوقت ".

لم تأخذ نظارته ذات الإطار الذهبي أيضاً، على الرغم من أن لديه واحدة أخرى ذات إطار من عظم السلحفاة. رفعت القطع في يدها ووضعت نهاية لكل تساؤلاته قائلة:

" وفي كل الأحوال، هذا سوف يكفي ".

قبل أن تغادر غرفته فككت ثيابه الرطبة، دون أن تستشيره، لتجففها وتكويها في المنزل. وانطلقا إلى المنزل على دراجة سكوتر يقودها

هوميرو، ولازارا راكبة خلفه، ذراعاها تطوقان وسطه. أضواء الشوارع كانت قد أنيرت للتو في الشفق الخبازي. وكانت الريح تطيّر بعيداً آخر الأوراق وبدت الأشجار مثل بقايا نباتيةٍ متحجرةٍ مقتلَعة من الأرض. كانت هناك شاحنة قاطرة تسير على محاذاة نهر الرون. جهاز المذياع فيها يغني بأقصى جهارة صوت ممكنة مخلفاً وراءه تياراً من الموسيقا على طول الشارع. كان جورج براسين يغني: " أمسك الدفة جيداً يا حبيبي، الزمن يمر من هناك والزمن شخص همجي من جنس عطيل؛ من هناك حيث حصانه يعبر حباً لن ينبت من جديد ". كان هوميرو ولازارا يركبان الدراجة صامتين، ثملين من الأغنية والروائح المتبقية من زهرة الياقوتية. بعد قليل بدا عليها وكأنها تستيقظ من سبات طويل وقالت:

" تباً ".

" ماذا ".

" الرجل العجوز المسكين " قالت لازارا ذلك ثم تابعت: " يا لها من عيشة مزريةٍ ".

في يوم الجمعة التالي، السابع من تشرين الأول، خضع الرئيس لعملية جراحية استغرقت لخمس ساعات، تركت وضعه الصحي بعد الانتهاء منها غامضاً كما كان عليه من قبل. وبالمعنى الأدق فالعزاء الوحيد كان معرفة أنه مازال على قيد الحياة. بعد عشرة أيام نقل إلى غرفة يشاركه فيها عدد من المرضى، ويمكن لهوميرو ولازارا أن يزوراه. لقد أضحى رجلاً آخر: فاقداً الإحساس بالزمان والمكان ومهزولاً، شعره الخفيف يتساقط عند ملامسته الوسادة. كل ما بقي من حضوره السابق كان الحركة الرشيقة ليديه. أول ى محاولاته للمشي

بمساعدة زوج من العصي الخاصة بتقويم الأطراف كانت مبعثاً للحسرة. بقيت لازارا عنده ونامت بجانبه كي توفر عليه نفقات ممرضة خاصة. أحد المرضى في الغرفة قضى الليلة الأولى يصرخ خائفاً الموت. تلك الليالي التي لا نهاية لها تخلصت منها لازارا بمعاونة ما تبقى معها من مدخرات.

عندما صرف من المستشفى كان قد مضى أربعة أشهر على وصوله إلى جنيف. هوميرو، المدير الشديد التدقيق لموارد الرئيس المالية الشحيحة، دفع فاتورة المشفى وأخذه إلى المنزل بسيارة الإسعاف مع المستخدمين الآخرين الذين ساعدوا في حمله إلى الطابق الثامن. وضعوه في غرفة نوم الأولاد دون أن يلحظ ذلك، وشيئاً فشيئاً بدأ يعود إليه وعيه. كرَّس وقته لتمارين إعادة التأهيل بصرامة انضباط عسكري، ومشى ثانية بمساعدة عصاه فقط. لكن حتى وهو يلبس ثيابه الأنيقة التي تعود للأيام الخوالي فقد كان بعيداً عن كونه نفس الرجل سواء في المظهر أو السلوك. ونتيجة خوفه من الشتاء الذي بدا أنه سيكون قاسياً جداً، والذي انتهى به الأمر ليكون الشتاء الأقسى في هذا القرن، فقد قرر الرئيس وخلافاً لنصائح أطبا ئه الذين أرادوا أن يبقوه تحت المراقبة لفترة أطول أن يعود إلى وطنه على متن سفينة تبحر من مرسيليا في الثالث عشر من كانون الأول. وفي الدقيقة الأخيرة وجد أنه ليس لديه المال الكافي لدفع تكاليف الرحلة، وبدون أن تخبر زوجها حاولت لازارا أن تسد النقص عن طريق مزيد من الكشط من مدخرات الأولاد، لكنها وجدت هناك أقل مما توقعت. عندئذٍ اعترف هوميرو بأنه ودون أن يخبرها قد استخدم قسماً منها ليكمل دفع فاتورة المشفى.

قالت لازارا في إذعان: " حسناً، فلنفرض أنه ابننا الأكبر ".

في الحادي عشر من كانون الأول أصعداه إلى قطار متجه إلى مرسيليا أثناء عاصفة ثلجية شديدة، ولم ينتبها حتى عادا إلى المنزل أنه ترك رسالة وداع على طاولة دراسة الأولاد، حيث ترك أيضاً لبربارا خاتم الزواج بالإضافة إلى خاتم زواج زوجته الراحلة، الذي لم يحاول أن يبيعه أبداً، وترك الساعة والسلسال للازارو. وكون ذلك اليوم يوم أحد فإن بعض الجيران الكاريبيين الذين علموا بالسر جاؤوا إلى محطة كورنافين ومعهم فرقة موسيقية تعزف القيثارة من فيراكوز. كان الرئيس يجهد نفسه كي يستطيع أن يتنفس داخل معطفه الفظ ووشاحه الطويل المتعدد الألوان الذي يعود للازارا، ولكن على الرغم من ذلك فقد وقف في الشرفة المكشوفة للعربة الأخيرة ولوح بقبعته مودعاً في الريح الهائجة. كان القطار قد بدأ يزيد من سرعته عندما لاحظ هوميرو أنه مازال بحاجة إلى عصاه. ركض إلى نهاية الرصيف ورماها بقوة إلى الرئيس كي يقوم بإمساكها، لكنها سقطت تحت العجلات وتكسرت. لقد كانت لحظة رعب. آخر شيء رأته لازارا كان يد الرئيس المرتعشة تمتد لتقبض على العصا ولم تستطع أن تبلغها أبداً، وقاطع التذاكر هو الذي تمكن من أن يمسك بالرجل العجوز المغطى بالثلج ويسحبه من وشاحه وينقذه وهو معلق في الجو. ركضت لازارا في رعب مطلق إلى زوجها، وهي تضحك برغم دموعها صائحة:

" يا إلهي، لا شيء بمقدوره أن يقتل هذا الرجل ".

وصل إلى الوطن سليماً ومعافى، طبقاً لبرقية الشكر الطويلة التي أرسلها. لم يسمع بعد ذلك أي شيء عنه لأكثر من سنة. وفي النهاية تلقيا رسالة مكتوبة بخط اليد من ست صفحات كان من المستحيل من خلالها معرفة أنه هو الشخص نفسه. عاد الألم حاداً كما كان من قبل، لكنه قرر أن يتجاهله ويعيش حياته على عواهنها. أعطاه الشاعر إيميه

سيزار عصا أخرى مرصعة بعروق اللؤلؤ، لكنه قرر ألا يستعملها. وعلى مدى ستة شهور كان يتناول اللحم وكل أنواع القشريات البحرية وكان بمقدوره أن يشرب حتى عشرين فنجاناً من القهوة الأكثر مرارة في اليوم. لكنه توقف عن قراءة قعر الفنجان، لأن التنبؤات لم تتحقق أبداً. وفي اليوم الذي بلغ فيه الخامسة والسبعين شرب بعض الكؤوس من شراب الروم المارتينيكي المركز، الذي راق له، وبدأ بالتدخين ثانية. لم يشعر بالطبع بأنه يتحسن، لكنه أيضاً لم يشعر بأنه يزداد سوءاً. مع ذلك فإن السبب الحقيقي لكتابة الرسالة كان ليخبرهما بأنه يحس برغبة شديدة في العودة إلى بلده كولومبيا كقائد للحركة الإصلاحية – قضية عادلة من أجل شرف الأمة – حتى ولو ربح فقط مجداً بائساً كونه لن يموت في السرير بفعل الشيخوخة. وبهذا الشعور الذي انتهت به الرسالة فإن رحلته إلى جنيف كانت موفقة وبترتيب من العناية الإلهية .

حزيران 1979

القديسة

رأيت مارغريتو دوراتي بعد انقضاء اثنـتين وعشرين سنة، في واحد من الشوارع المنعزلة الضيقة في تراستيفيري، وفي البداية وجدت صعوبة في التعرف إليه، لأنه كان يتكلم الأسبانية متلعثماً وله سيماء رجل روماني قديم. كان شعره أبيض وخفيفاً، ولم يعد هناك أي أثر للسلوك الوقور لمفكر من الأنديز و للثياب الرمادية الكئيبة التي قدم بها إلى روما. لكن في سياق حديثنا، بدأت شيئاً فشيئاً استرده من السنين الغادرة وأراه ثانية كما كان: كتوماً، لا يمكن التنبؤ بأفعاله، وقوياً كحجّار. وقبل أخذ فنجان القهوة الثاني في أحد البارات التي تعود للأيام الخوالي، تجرأت لأسأله السؤال الذي كان ينخر في داخلي:

" ما الذي حصل مع القديسة ؟ ".

أجاب: " القديسة موجودة هنا، إنها تنتظر ".

فقط أنا ومغني التينور رفاييل ريبيرو سيلفا كان بإمكاننا أن ندرك العبء البشري الضخم المختفي وراء جوابه. لقد كنا على دراية كاملة بمأساته بحيث أنني اعتقدت لسنوات بأن مارغريتو دوراتي كان الشخصية التي تبحث عن مؤلف والتي ننتظرها نحن الروائيون على مدى حياتنا،

وإذا لم أسمح له أن يجدني فإن ذلك سيكون مرده إلى أن نهاية قصته بدا من غير الممكن تصديقها.

لقد قدم إلى روما خلال ذلك الربيع الطلق عندما كان البابا بيوس الثاني عشر يعاني من نوبة فواق لم تستطع المهارات الخيرة والشريرة للأطباء والعرافين أن تجد لها علاجاً. كانت تلك هي المرة الأولى التي يسافر فيها خارج توليما، القرية العالية في جبال الأنديز الكولومبية – وهي حقيقة كانت واضحة حتى في الطريقة التي ينام فيها. قدَّم نفسه ذات صباح في قنصليتنا وهو يحمل صندوقاً مصقولاً من خشب الصنوبر له شكل وحجم حقيبة الفيولونسيل، وشرح للقنصل السبب الغريب لرحلته، فهاتف عندئذٍ ابن بلده، مغني التينور رفاييل ريبيرو سيلفا، طالباً منه أن يجد له غرفة في البنسيون الذي يقيم فيه. وذلك هو السبب الذي جعلني ألتقي به.

لم يتجاوز مارغريتو دوراتي مرحلة التعليم الابتدائي، لكن النداء الباطني الذي لديه تجاه الحرف أهله لثقافة واسعة من خلال القراءة النهمة لأي شيء مطبوع يصل إلى متناول يده. في سن الثامن عشر ة، عندما كان يعمل كاتباً للقرية، تزوج فتاة جميلة توفيت بعد فترة قصيرة من ولادتها لمولودهما الأول، و كان بنتاً. كانت البنت على قدر كبير من الجمال ويفوق حتى جمال أمها، وماتت هي الأخرى نتيجة حمى شديدة في سن السابعة. لكن القصة الحقيقية لمارغريتو دوراتي بدأت قبل ستة شهور من وصوله إلى روما، عندما تطلب بناء أحد السدود نقل المقبرة الموجودة في قريته. مارغريتو مثله مثل ساكني المنطقة الآخرين أخرج رفات أمواته لينقلها إلى مقبرة جديدة. كان جسد زوجته قد أصبح رماداً. لكن في القبر التالي لها، كانت البنت ماتزال سليمة على حالها بعد أحد عشر سنة. في الواقع، عندما رفعوا غطاء التابوت، استطاعوا

أن يشموا رائحة الأزهار المقطوفة النضيرة التي دفنوها معها. أما الشيء المذهل الذي فاق ما عداه، فهو أن جسدها كان لا وزن له.

مئات القادمين من الفضوليين الذين جذبوا بالأخبار المدوية للمعجزة، تدفقوا إلى القرية. لم يكن هناك أي مجال للشك: فعدم تحلل الجسد كان إشارة لا لبس فيها لقدسيته. وحتى أسقف الأبرشية وافق بأن مثل هذه الأعجوبة يجب أن تخضع لحكم الفاتيكان. ومن هنا فقد قبلوا وبالإجماع العام بأن مارغريتو دوراتي سيسافر إلى روما لخوض معركة من أجل قضية لم تعد قضيته وحده، أو مقصورة على الحدود الضيقة للقرية، بل أصبحت قضية وطنية.

وبينما كان يخبرنا قصته في البنسيون في مقاطعة باريولي الهادئة، نزع مارغريتو دوراتي القفل ورفع غطاء الصندوق الجميل. هكذا بدأ اهتمام مغني التينور ريبيرو سيلفا وأنا في المعجزة. لم تكن تشبه مومياء ذاوية كتلك المعروضة في متاحف عديدة في أنحاء العالم، لكنها كانت فتاة صغيرة تلبس ثياب عروس ما تزال نائمة بعد إقامة طويلة تحت التراب. كانت بشرتها ناعمة ودافئة، وعيناها المفتوحتان كانتا صافيتين وتخلقان انطباعاً لا يقبل الشك بأنهما تنظران إلينا من عالم الموت. الساتان وأزهار البرتقال الاصطناعية في تاجها لم تقاوم صرامة الزمن كما قاومت بشرتها، لكن الأزهار التي وضعت في يديها كانت ما تزال نضيرة. وكان صحيحاً ما أشيع ، حيث أن صندوق الصنوبر لم يتغير وزنه عندما أخرجنا الجسد منه.

بدأ مارغريتو دوراتي مفاوضاته في اليوم التالي لوصوله، في البداية مع معاون دبلوماسي, والذي كان شفوقاً أكثر من كونه مساعداً، وبعد ذلك من خلال كل استراتيجية يراها فعالة للتغلب على العقبات التي لا حصر لها التي وضعها الفاتيكان. كان دائماً متحفظاً جداً حول الإجراءات التي كان يتخذها، لكننا عرفنا أنها كانت كثيرة وبدون طائل.

اتصل بجميع المؤسسات الدينية والمنظمات الإنسانية التي عرف لها سبيلاً، وقد استمعوا إليه باهتمام ولكن دون دهشة ووعدوه بخطوات فورية لم يتخذوها أبداً. الحقيقة أن الوقت لم يكن بالوقت المناسب. فجميع الأمور التي تتعلق بالكرسي البابوي كانت قد أجلت حتى يتغلب البابا على نوبة الفواق التي أثبتت أنها عصية ليس فقط على التقنيات الأكثر تقدماً للطب الأكاديمي، بل أيضاً على كل أنواع العلاجات السحرية التي أرسلت إليه من كل أنحاء العالم.

وفي النهاية، وفي شهر تموز، تعافى بيوس الثاني عشر وغادر مقره الصيفي في كاستل غاندولفو. أخذ مارغريتو القديسة إلى اللقاء الجماهيري الأسبوعي الأول، آملاً بأنه سيتمكن من أن يريها للبابا، الذي ظهر في الساحة الداخلية على شرفة منخفضة جداً بحيث استطاع مارغريتو أن يرى أظفاره المصقولة ويشم رائحة عطر الخزامى التي تفوح منه. لم يط ف بين السواح الذين أتوا من كل الأمم ليروه، كما توقع مارغريتو، لكنه كرر نفس البيان في ست لغات مختتماً اللقاء بقداس عام.

بعد إعاقات عديدة جداً، قرر مارغريتو أن يتولى الأمر بنفسه، وأرسل رسالة تقدر بستين صفحة إلى وزارة الخارجية لكنه لم يتلق جواباً. كان قد تنبأ بهذا لأن الموظف الذي قبل رسالته المكتوبة بخط اليد مصحوبة بكل الإجراءات الشكلية المقتضاة لم يتفضل ليلقي أكثر من نظرة رسمية على الفتاة الميتة. والموظفون الذين مروا بجانبه نظروا إليها بدون اهتمام على الإطلاق. أحدهم أخبره بأنهم في السنة الماضية تلقوا أكثر من ثمانمائة رسالة تطالب بالقدسية لأجساد موتى مازالت سليمة لم تمس في أمكنة مختلفة حول العالم. في النهاية طلب مارغريتو بأن يؤخذ انعدام وزن الجسد كإثبات. الموظف تحقق من ذلك لكنه رفض الاعتراف به وقال:

" لا بد وأنها حالة إيحاء جماعي " .

في ساعات فراغه القليلة، وفي أيام الآحاد الحارة في فصل الصيف، اعتاد مارغريتو أن يبقى في غرفته، يقرأ بنهمٍ أي كتاب يبدو له صلة بقضيته. وفي نهاية كل شهر، وبمبادرة منه يسجل حسابات تفصيلية لنفقاته في دفتر إنشاء مدرسي مستخدماً الخط المتقن لكاتب عدل متقاعد لكي يزود المتبرعين من قريته بأدق وآخر التفاصيل. قبل أن يكمل السنة في الخارج كان قد أصبح على دراية بمتاهات روما كابن من أبنائها، ويتكلم الإيطالية بطلاقة وفصاحة كما يتكلم لغته الأسبانية الأنديزية، ولديه معلومات عن قضية تطويب القديسين كأكثر الناس معرفة بهذا الأمر. لكن مر الكثير من الوقت قبل أن يغير رداءه الكئيب، الصدرة الكهنوتية، وقبعة رجل القضاء التي كانت في ذلك الوقت في روما مقترنة بجماعات سرية معينة ذات أهداف غير معترف بها. كان يخرج مبكراً جداً ومعه الصندوق الذي يحتوي على القديسة، وأحياناً يعود متأخراً منهوكاً وحزيناً لكن مع ومضة ضوء تملأه شجاعة جديدة لليوم التالي.

كان يقول دوماً: " القديسون يعيشون في غير زمنهم ".

كانت تلك زيارتي الأولى لروما، حيث كنت أدرس في مركز السينما التجريبية، وعشت عذابه النفسي الذي كان شديداً بحيث يتعذر نسيانه. كان بنسيوننا في الواقع شقة حديثة على بعد خطوات قليلة من فيلا بورجيس. كانت المالكة تشغل غرفتين وتؤجر الأربعة الأخريات لطلبة أجانب. كنا ندعوها بيلّا ماريّا، وكانت في نضوج خريفها حسنة الطلة وذات مزاج خاص ومخلصة دائماً للقاعدة المقدسة التي تقول بأن كل امرءٍ هو ملك مطلق في الغرفة الخاصة به، أما الشخص الذي كان في واقع الأمر يتحمل أعباء الحياة اليومية فقد كان أختها الأكبر منها سناً، العمة أنتونيتا، ذاك الملاك بدون جناحين، والتي تعمل لديها ساعة

تلو الأخرى خلال النهار، تنتقل عبر الشقة ومعها دلوها وفرشاتها، تنظف الأرضية الرخامية لتصبح مصقولة فوق حدود المعقول. لقد كانت الشخص الذي علمنا أن نأكل العصافير المغردة الصغيرة التي كان يصطادها زوجها بارتولينو – عادة سيئة تعود إلى أيام الحرب. وهي التي اصطحبت مارغريتو في النهاية ليعيش في منزلها عندما لم يعد باستطاعته أن يتحمل المصاريف التي يجب عليه دفعها لبيلّا ماريّا.

لا شيء كان أقل ملاءمة لطبيعة مارغريتو من ذلك البيت الذي لا قانون له. كل ساعة كانت تحمل مفاجأة قادمة إلينا، حتى في الفجر حيث كنا نستيقظ على الزئير المخيف للأسد في حديقة حيوان فيلا بورجيس. مغني التينور ريبيرو سيلفا اكتسب هذا الحق لنفسه حيث أن أهالي روما لم يمتعضوا من جلسات تدريبه الصباحية المبكرة. لقد اعتاد أن يستيقظ في السادسة، يأخذ حمامه العلاجي من الماء البارد، يشذِّب لحيته الميفستوفيلية وحاجبيه، وفقط عندما يصبح جاهزاً، ويلبس ثوب الحمام المصنوع من التارتان، ومنديل الحرير الصيني، ويتعطر بالكولونيا الخاصة به، يهب نفسه جسداً وروحاً إلى تمارينه الصوتية. لقد اعتاد أن يفتح النافذة في غرفته على مصراعيها، حتى في الوقت الذي تكون فيه النجوم الشتائية ما تزال في السماء، ويتمرن لبضع دقائق على أنغام متصاعدة من لحن الحب العظيم إلى أن يغني في النهاية بأعلى صوته. والذي كان مترقباً كل يوم هو أنه عندما يغني الدو بأعلى جهارة صوت فإن أسد فيلا بورجيس سوف يجيبه بزئير يهز الأرض هزاً.

" إنك تجسيد جديد للقديس مارك يا أخي ". هذا ما كانت تصرخ به العمة أنتونيتا وهي تشعر بذهول حقيقي ثم تتابع: " أنت فقط الذي يستطيع أن يتكلم إلى الأسود ".

لكن لم يكن ذلك الأسد هو من جاوبه ذات صباح. لقد بدأ مغني التينور بلحن حب ثنائي من عطيل – مرة في الماضي، وفي ليلة مظلمة

حيث خبت أدنى ضجة – ومن أقصى الساحة سمعنا الجواب بصوت سوبرانو جميل. استمر التينور وغنى الصوتان المقطع بالكامل وسط سرور كل الجيران، الذين فتحوا النوافذ ليقدسوا بيوتهم بسيل من حب لا يقاوم. مغني التينور كاد يصاب بالدوار عند أيقن بأن ديزديمونا غير المنظورة كانت شخصية لا تقل مستوىً عن ماريا كانيليا العظيمة.

تولد عندي الانطباع بأن هذه الحادثة أعطت مارغريتو دوراتي دافعاً فعالاً للمشاركة في الحياة الجماعية للمنزل: فمن ذلك الحين وصاعداً أصبح يجلس مع البقية على الطاولة المشتركة، وليس كما كان يفعل سابقاً، حيث كان يجلس في المطبخ، وكانت العمة أنتونيتا تدلّه كل يوم بتقديمها له يخنة العصافير التي تجيد صنعها. عندما ننتهي من تناول الطعام تقوم بيلّا ماريّا بقراءة الصحف اليومية بصوت عالٍ لكي تعلمنا الصوتيات الإيطالية، وتعلق على الأخبار باعتباطية وظرف يضفي البهجة والمرح على حياتنا. وفي أحد الأيام، وفي سياق الحديث عن القديسة أخبرتنا أنه في مدينة باليرمو يوجد متحف يحتوي أجساداً لا تبلى لرجال ونساء وأطفال، وحتى للعديد من الأساقفة، الذين كانوا جميعهم قد أخرجوا من نفس المقبرة الكبوشية. هذه الأخبار جلبت التشوش لمارغريتو بحيث أنه لم ينل لحظة واحدة من الطمأنينة إلى أن ذهبنا إلى باليرمو. لكن نظرة خاطفة على الصالات القابضة للصدر للمومياءات المغمورة كانت الشيء الذي كان محتاجاً إليه ليقوم بمحاكمة جلبت له السلوى.

" هؤلاء ليسوا مثلها " ثم أضاف: " أنتَ تستطيع أن تقول من دون تردد إنهم موتى ".

بعد وقت الغداء، اعتادت روما أن تستسلم للخدر في شهر آب. شمس القيلولة تبقى ثابتة في مكانها في منتصف السماء . وفي صمت الثانية بعيد الظهيرة ، لا يسمع المرء شيئاً سوى خرير المياه، التي تمثل

الصوت الطبيعي لروما. لكن في الساعة السابعة تفتح الأبواب على مصراعيها لتستقبل الهواء المعتدل الذي يبدأ بالسريان، وحشد متهلل ينزل إلى الشوارع بدون أي هدف سوى أن يعيش الحياة. في وسط الدراجات النارية ، تتعالى صيحات بائعي البطيخ، وتصدح أغاني الحب ما بين الورود على التَرَّاسات.

لم نكن نأخذ قيلولة، لا أنا ولا مغني التينور. بل كنا نتجول على دراجته الفسبا. هو يقود الدراجة وأنا أركب وراءه، حاملاً الآيس كريم والشوكولا لعاهرات الصيف الشابات اللواتي كن يمشين بطريقة ملفتة للأنظار تحت أشجار الغار التي بلغت من العمر قروناً في فيلا بورجيس، ويراقبن السائحين الذين لم يذهبوا للنوم بل فضلوا البقاء في الشمس الساطعة. كن جميلات، فقيرات وعطوفات، مثلهن مثل أغلب النساء الإيطاليات في تلك الأيام؛ يرتدين ثياباً من الأورغندي الأزرق، البوبلين الوردي، والكتان الأخضر ، ويحمين أنفسهن من أشعة الشمس بحمل مظلات الباراسول المعطوبة نتيجة العواصف والطلقات من الحرب الأخيرة. كان من مدعاة سرور المرء لأن يكون معهن، لأنهن كن يتجاهلن قواعد تجارتهن ويسمحن لأنفسهن أن يفقدن زبوناً جيداً لكي يتناولن القهوة ويتحدثن معنا في بار على الزاوية، أو نركب عربة تجري بنا في ممرات الحديقة. أو يملؤوننا شفقة على الملوك المخلوعين وخليلاتهم المحزونات الذين يمتطون جيادهم في الغسق على طول مضمار سباق الخيل. وأكثر من مرة خدمنا مترجمين لهن مع بعض الأجانب الذين ضلوا السبيل.

لم يكنَّ هن السبب الذي جعلنا نأخذ مارغريتو دوراتي إلى فيلا بورجيس: نحن أردناه أن يرى الأسد. الذي كان يعيش طليقاً في جزيرة معزولة صغيرة في وسط خندق مائي عميق، وحالما لمحنا على الشاطئ البعيد بدأ يزأر باهتياج أدهش القيم عليه. تجمع زوار الحديقة

مدهوشين. حاول مغني التينور أن يعرفه على نفسه بنغمة الدو التي يغنيها بأعلى صوته في الصباح لكن الأسد لم يعره اهتماماً. بدا الأسد وكأنه يزأر اتجاه كل منَّا بلا تمييز، ومع ذلك فقد عرف القيم عليه على وجه اليقين بأنه يزأَر لمارغريتو فقط. لقد كان ذلك صحيحاً: فأينما تحرك يتحرك الأسد تجاهه، وحالما يصبح خارج مرمى بصره يتوقف الأسد عن الزئير. القيِّم الذي كان يحمل دكتوراه في الآداب الكلاسيكية من جامعة سيينا، اعتقد أن مارغريتو كان بصحبة الأسد في يوم مضى وأنه يحمل رائحته. وبعيداً عن ذلك الاستنتاج الذي كان غير صحيح، لم يستطع أن يجد تفسيراً آخر. وقال أخيراً:

" على كل حال فإنه زئير العاطفة وليس زئير القتال ".

ومع ذلك فإن الذي أثر في مغني التينور ريبيرو سيلفا لم يكن ذلك الحدث غير الطبيعي، لكنه كان تشوش مارغريتو عندما توقفوا ليتحدثوا مع بنات الهوى في الحديقة. لقد أشار إلى ذلك ونحن نجلس وراء الطاولة وقد وافقه الجميع – البعض بقصد استفزازه والآخرون لأنهم كانوا يشعرون بالتعاطف معه – لقد كانت فكرة جيدة أن نساعد مارغريتو لكي يتخلص من عزلته. بيلّا ماريا مدفوعة بقلوبنا الرقيقة، ضغطت يديها الممتلئة أصابعهما بالحجارة الكريمة المقلدة، على صدرها الذي يليق بزعيمة مخرفة من عصور الكتاب المقدس وقالت:

" سوف أقبل بذلك على سبيل الصدقة، لكن عدا هذا فلا أستطيع احتمال رجال يرتدون صدرات كهنوتية ".

ذلك كان السبب الذي جعل مغني التينور يركب دراجته الفسبا إلى فيلا بورجيس في الثانية ظهراً، ويعود برفقة فراشة صغيرة باعتقاده أنها أفضل من يستطع منح مارغريتو دوراتي ساعة من العشرة الممتعة. حملها على أن تخلع ثيابها في حمامه، وتغتسل بصابون معطر، ثم جفف جسدها، وعطرها بالكولونيا الخاصة به، وذر على كامل جسدها

بودرة ما بعد الحلاقة المشبعة بالكافور. ثم دفع لها أجرة الوقت الذي أمضياه معاً، بالإضافة إلى ساعة أخرى، وأخبرها ما الذي عليها أن تفعله خطوة بخطوة.

مشت الحسناء العارية على أصابع قدميها عبر البيت المعتم قليلاً وكأنها حلم ساعة القيلولة، نقرت نقرتين لطيفتين على الباب الخلفي لغرفة النوم، وظهر أمامها مارغريتو دوراتي حافي القدمين وبدون قميص.

قالت له الحسناء وبصوت وأسلوب تلميذة مدرسة: " عمتَ مساء أيها الشاب، أرسلني إليك مغني التينور " .

امتص مارغريتو الصدمة بنبل عظيم. فتح الباب على اتساعه كي تدخل، ثم اضطجعت على السرير بينما اندفع هو للبس قميصه وحذا ئه ليستقبلها بالاحترام المطلوب. بعد ذلك جلس على كرسي بجانبها وبدأ بالحديث معها. الفتاة التي لم تستطع فهم ما يجري أخبرته بأن يسرع لأن لديهما فقط ساعة واحدة، لكن لم يبدُ أنه فهم ما تعنيه.

قالت الفتاة أخيراً أنه على كل حال فسوف تقضي معه الوقت الذي يريده و لن تطلب منه سنتاً واحداً، لأنه من غير الممكن أن يكون هناك رجل ذو سلوك أفضل من سلوكه في أي مكان في العالم. كونها لم تعرف ما الذي يمكن أن تفعله في غضون تلك الفترة، صارت تتلفت حواليها في أنحاء الغرفة ورأت صندوقاً خشبياً بجانب الموقد. سألته إن كان ذلك ساكسفون. لم يجب مارغريتو لكنه أزاح الستارة الداخلية كي يسمح لقليل من الضوء بالدخول، ثم حمل الصندوق إلى الفراش، وفتح الغطاء. حاولت الفتاة أن تقول شيئاً ما، لكن فكيها تسمَّرا وهما مفتوحان. أو كما أخبرتنا لاحقاً: " أنا، نعم صارت قفاي لوح جليد ". هربت في رعب كامل، لكنها أضاعت طريقها في الصالة والتقت بالعمة أنتونيتا، التي كانت ذاهبة إلى غرفتي لتبدل المصباح. كانت الاثنتان فزعتان

بحيث أن الفتاة لم تتجرأ أن تغادر غرفة مغني التينور حتى وقت متأخر من الليل.

العمة أنتونيتا لم تعرف أبداً ما الذي حدث. دخلت الغرفة وهي في حالة خوف شديد إلى درجة أنها لم تستطيع أن تدير المصباح في السوكة لأن يديها كانتا ترتعشان. سألتها ما الذي يجري فقالت: " يوجد أشباح في هذا البيت " ثم تابعت: " والآن في وضح النهار! ". ثم أخبرتني وباقتناع شديد بأنه خلال الحرب قام ضابط ألماني بقطع رأس عشيقته في الغرفة التي يشغلها مغني التينور. وعندما تطوف العمة أنتونيتا البيت أثناء عملها فإنها كثيراً ما ترى شبح الضحية الجميلة تشق طريقها عبر الموزعات.

ثم قالت: " لقد رأيتها للتو تمشي عارية في الصالة، إنها ذاتها كما رأيتها من قبل ".

استعادت المدينة رتابتها الخريفية. التراسات المليئة بأزهار الصيف توقفت أزهارها عن النمو مع أول هبوب للرياح، وعدت أنا ومغني التينور إلى ملاذاتنا القديمة في تراستيفيري. حيث كنا نتناول العشاء مع الطلبة الصاخبين من كونت كارلوكالكاني، ومع بعض رفاق الدراسة من مدرسة السينما. كان الأكثر إخلاصاً من بينهم هو لاكيس، مثقف يوناني لطيف، أحاديثه حول العدالة الاجتماعية، التي كانت تبعث على النعاس كانت عيبه الوحيد. وكان من حسن حظنا أن مغنيا التينور والسوبرانو غالباً ما يغطيان على صوته بالمختارات الأوبرالية التي يغنياها بجهارة صوت كاملة، لكنها لا تثير إزعاج أحد حتى بعد منتصف الليل. بل على العكس فبعض المارة خلال الوقت المتأخر من الليل كانوا يلتحقون بالكورس. والجيران يفتحون نوافذهم ليصفقوا لهما.

وفي إحدى الأمسيات، بينما كنا نغني، دخل مارغريتو وهو يسير على رؤوس أصابعه محاولاً ألا يقطع اطراد غنائنا. كان يحمل معه

الصندوق المصنوع من خشب الصنوبر، حيث لم يكن لديه الوقت الكافي ليذهب ويضعه في البنسيون بعد أن عرض القديسة على كاهن الأبرشية في سان جيوفاني في لاتيرانو، الذي كان تأثيره على المجمع المقدس للمذهب معروفاً للجميع. نظرت إليه بطرف عيني وهو يضعه تحت طاولة معزولة حيث جلس حتى انتهينا من الغناء. وكالعادة، بعد منتصف الليل بقليل، عندما يبدأ هذا المطعم الرخيص يفرغ من زبائنه، كنا ندفع عدداً من الطاولات إلى جانب بعضها البعض ونجلس في مجموعة واحدة – الذين يغنون، والذين يتحدثون عن السينما، وغيرهم من أصدقائنا. وكان مارغريتو واحداً من هؤلاء وكان معروفاً هناك بأنه الكولومبي الصامت الذي تبدو حياته لغزاً غامضاً. لاكيس المثار فضوله سأله إذا كان يعزف الفيولونسيل. فوجئت بهذا السؤال المباغت والذي بدا لي بأنه حماقة من الصعب معالجتها. مغني التينور كان أيضاً مرتبكاً ولم يستطع إنقاذ الموقف. مارغريتو كان الوحيد الذي أجاب على السؤال وبعفوية مطلقة قائلاً:

" إنه ليس فيولونسيل، إنه قديسة ".

وضع الصندوق على الطاولة، ثم وضع المفتاح في القفل، ورفع الغطاء. عصفة من الذهول هزت المطعم. الزبائن الآخرون، الخدم، وحتى العمال في المطبخ ذوي المآزر الملطخة بالدماء، تجمعوا مندهشين ليروا المعجزة. البعض رسموا إشارة الصليب على أجسادهم. إحدى الطاهيات، التي طغى عليها ارتعاش شديد، سقطت على ركبتيها ويداها متشابكتان وهي تصلي في صمت.

ومع ذلك فما أن تلاشى الاضطراب الذي حدث في البداية، حتى انخرطنا في نقاش صاخب حول قلة الورع في هذا العالم. وكان لاكيس بالطبع الأكثر تطرفاً. وكانت الفكرة الوحيدة الواضحة في النهاية هي أنه أراد أن يعد فيلماً انتقادياً حول القديسة.

ثم قال لاكيس: " أنا متأكد أن سيزار العجوز ذاك لن يسمح لموضوع كهذا أن يفلت منه ".

كان يشير إلى سيزار زافاتيني، الذي كان يعلمنا تطوير حبكة الأفلام وكتابة السيناريو. لقد كان واحداً من الشخصيات البارزة في تاريخ السينما، والشخص الوحيد الذي احتفظ بعلاقات شخصية معنا خارج صفوف الدراسة. لم يحاول أن يعلمنا المهنة فقط بل أسلوباً مختلفاً في النظر إلى الحياة أيضاً. كان ماكينة لابتكار الحبكات، التي كانت تتدفق من فمه وفي الغالب بدون إرادته، وبسرعة كبيرة بحيث كان دائماً بحاجة إلى شخص ما ليساعد في الإمساك بها في منتصف الطريق وهو يتلفظها. وحماسته تفتر فقط عندما يكون قد انتهى من سردها. لقد اعتاد القول عند ذاك: " إنها حبكات سيئة جداً ولا يمكن إنتاج أفلامٍ بناء عليها ". فقد كان يعتقد أنها على الشاشة سوف تفقد الكثير من جاذبيتها الأولية. كان يحفظ أفكاره على بطاقات مرتبة طبقاً للموضوع ومعلقة على الجدران، وكان لديه الكثير جداً منها حيث ملأت غرفة كاملة في المنزل.

يوم السبت التالي أخذْنا مارغريتو دوراتي لكي يراه. كان زافاتيني شخصاً تواقاً للحياة حيث وجدناه على باب بيته في شارع سانت – أنجيلا ميرسي، يتقد اهتماماً في الفكرة التي شرحناها له على الهاتف. حتى أنه لم يحيينا ويستقبلنا بوده المعهود، لكنه قاد مارغريتو إلى طاولة كان قد حضَّرها، وفتح الصندوق بنفسه. عند ذلك حدث شيء لم نتخيله أبداً: بدلاً من يركض مسعوراً، كما توقعنا، فقد بدا عليه نوع من الشلل الذهني.

" أمر غريب " همس في وجل.

نظر إلى القديسة قرابة دقيقتين أو ثلاث، أغلق الصندوق بنفسه، وبدون أن يقول كلمة واحدة قاد مارغريتو إلى الباب كما لو كان طفلاً

يتعلم خطواته الأولى. قال له بعض عبارات الوداع مصحوبة بتربيتات خفيفة على الكتف ثم قال: " شكراً لك يا بني، شكراً لك كثيراً جداً، وأرجو الله أن يكون معك في كفاحك ". عندما أغلق الباب استدار نحونا وأعطانا رأيه: " إنها لا تصلح للسينما، لا أحد سيصدقها ".

هذه العبارة المذهلة بقيت مدار نقاش بيننا في السيارة ونحن في طريقنا إلى البيت. طالما قال ذلك هو، فيجب أن يكون صحيحاً: القصة غير ذات نفع. ومع ذلك فقد قابلتنا بيلّا ماريّا على مدخل البنسيون برسالة عاجلة تقول بأن زافاتيني ينتظرنا في نفس الليلة لكن بدون مارغريتو.

وجدنا المايسترو في واحدة من لحظاته النجومية. كان لاكيس قد جلب معه اثنين أو ثلاثة من رفاق صفه، لكنه بدا وكأنه حتى لم يلحظهم عندما فتح الباب وهو يصيح: " الفكرة جاهزة لدي. سيكون فيلماً مثيراً إذا صنع مارغريتو معجزة وبعث الفتاة ".

سألته : " في الفيلم أم في الحياة ".

كتم انزعاجه قائلاً: " لا تكن أحمقَ " . لكن عندئذٍ رأينا في عينيه وميض فكرة لا تقاوم وقال وهو مستغرق في التفكير: " ماذا لو استطاع أن يبعثها في الحياة الواقعية؟ ". ثم أضاف بجدية:

" عليه أن يحاول ".

لم يكن ذلك أكثر من إغواء عابر ثم أمسك طرف الخيط ثانية. بدأ السير من غرفة إلى أخرى، مثل مجنون سعيد، يلوح بيديه ويسرد الفيلم بصوت صارخ قوي. أصغينا إليه مبهورين، وبدا وكأننا استطعنا أن نرى الصور، مثل أسراب وامضة من العصافير، والتي أفلتها لتقوم بطيرانها المجنون في أرجاء البيت.

" ذات مساء " قال زافاتيني ثم تابع: " وبعد أن يكون قد مات أكثر من عشرين من البابوات الذين رفضوا أن يستقبلوه. مارغريتو الذي كان

قد أصبح عجوزاً ومنهكاً، يدخل إلى منزله، يفتح الصندوق، يداعب وجه الفتاة الميتة، ويقول لها كلاماً فيه حنان العالم كله: ' إكراماً لمحبتك لوالدك يا صغيرتي، انهضي وسيري ' ".

ثم نظر إلى كل منا وأنهى كلامه بإيماءة نصر وقال:

" وعندئذٍ، هي تفعل ذلك ! ".

كان ينتظر لنقول له شيئاً ما. لكننا كنا مر بتكين جداً بحيث لم نستطع التفكير بشيء لنقوله. ما عدا اليوناني لاكيس، الذي رفع يده، وكأنه تلميذ مدرسة يطلب الإذن بالحديث.

" مشكلتي أني لا أصدق ذلك ". والمدهش لنا أنه كان يوجه حديثه إلى زافاتيني حيث أضاف: " اعذرني، حضرة المايسترو، إني لا أؤمن بذلك ".

عندئذٍ كان زافاتيني هو من شعر بالدهشة وقال:

" ولمَ لا تؤمن بذلك ؟ ".

قال لاكيس في اضطراب: " كيف لي أن أعرف، لكن ذلك مستحيل ".

" أمرك غريب " هدر المايسترو وبصوت لا بد أنه سمع في المنطقة المجاورة بأكملها: " ذلك هو ما لا أستطيع تحمله فيما يخص الستالينيين: إنهم لا يؤمنون بالواقع ".

وعلى مدى الخمس عشرة سنة التالية، وكما أخبرني بنفسه، كان مارغريتو يحمل القديسة إلى كاستل غاندولفو لعل فرصة تتسنى له ويقوم بعرضها. وفي اجتماع لجمهور ضم حوالي مائت ي حاج من أمريكا اللاتينية استطاع أن يحكي قصته، وسط الدفع واللكز، للبابا الخير جون الثالث والعشرين. لكنه لم يستطع أن يريه الفتاة، لأنه وكإجراء احتياطي ضد محاولات الاغتيال، فقد ألزم بأن يتركها في المدخل مع حقائب

الظَهْر الخاصة بالحجاج الآخرين. أصغى إليه البابا بما استطاع من انتباه بين الحشد. وربت على خده مشجعاً وهو يقول:

" مرحى يا أخي، ليكافئك الله على مثابرتك ".

لكن وفي خلال الفترة القصيرة لولاية البابا البينو البسَّام، شعر مارغريتو بأنه أصبح فعلاً على وشك إنجاز حلمه. أحد أقرباء البابا ونتيجة تأثره بقصة مارغريتو، وعد بأن يتدخل. لم يعره أحد اهتماماً لما قال. لكن بعد يومين آخرين وبينما كانوا يتناولون الغداء في البنسيون، اتصل أحد الأشخاص بالهاتف ناقلاً رسالة بسيطة وسريعة إلى مارغريتو: " يجب عليه ألا يغادر روما، لأنه في وقت ما لن يتعدى يوم الخميس سوف يدعى إلى الفاتيكان من أجل مقابلة خاصة مع البابا ".

لم يتمكن أي شخص من أن يستبين فيما إذا كان ذلك مجرد نكتة أم لا. أخذ مارغريتو الأمر على محمل الجد وبقي متيقظاً. لم يغادر المنزل. إذا اضطر للدخول إلى الحمام فإنه يعلن: " أنا ذاهب إلى الحمام ". بيلّا ماريّا والتي كانت ما تزال محتفظة بظرفها في مطلع خريف عمرها، كانت تضحك ضحكة امرأة خلية البال وتصيح: " نحن نعرف، مارغريتو، أن نخبرك إن خابر البابا ".

وفي ذات صباح مبكر في الأسبوع التالي، كاد ماغريتو أن ينهار عندما قرأ العنوان الرئيسي في الصحيفة التي زلقت من تحت الباب: " وفاة البابا ". وللحظة تشجع بوهم أنها صحيفة قديمة وزعت عن طريق الخطأ، إذ ليس من السهل التصديق بأنه يموت بابا في كل شهر. لكن ذلك كان صحيحاً: البينو لوشياني البسَّام، والذي انتخب منذ ثلاثة وثلاثين يوماً مات في أثناء نومه.

عدت إلى روما بعد اثنتين وعشرين سنة من لقائي الأول بمارغريتو دوراتي، وربما كان لن يخطر ببالي على الإطلاق لو لم يلتق كلانا الآخر بالصدفة. كنت أشعر بالقنوط والوهن الشديدين بسبب الطقس

السيء بحيث لم أكن قادراً على التفكير بأحد. رذاذ مطر مجنون شبيه بحساء دافئ لم يتوقف عن السقوط، الضوء الياقوتي الآتي من زمن آخر أصبح عكراً، والأماكن التي كانت في وقت ما أماكني وحملت ذكرياتي أضحت الآن غريبة بالنسبة لي. البناء الذي كان فيه البنسيون لم يتغير لكن لم يعرف أحد شيئاً عن بيلّا ماريّا. لم يجب أحد على أي من الأرقام الهاتفية المختلفة الستة التي كان مغني التينور ريبيرو سيلفا أرسلها إليّ خلال سنين. على الغداء مع أناس جدد من حقل السينما، استدعيت من الذاكرة اسم معلمي، وعند ذاك خيم صمت مفاجئ للحظات على الطاولة إلى أن قال أحدهم:

" زافاتيني ؟ لم أسمع به أبداً ".

كان ذلك صحيحاً: لم يكن هناك من سمع به. الأشجار في فيلا بورجيس كانت تبدو شعثاء في المطر. مضمار الخيل الذي كانت ترتاده الأميرات الحزينات التُهِم بأعشاب ضارة بلا أزهار، والبنات الجميلات من الأيام الخوالي استبدلن بمخنثين رياضيين بثياب مبهرجة مخططة. وكل الحيوانات التي كانت موجودة نفقت، ولم يبق على قيد الحياة إلا الأسد العجوز، والذي كان يعاني من الجرب والزكام في جزيرته المحاطة بالمياه التي شارفت على الجفاف. لم يغ نِّ أحد أو يمت حباً على أرصفة ساحة دي سبانيا. فروما التي في ذاكرتنا أصبحت روما قديمة أخرى ضمن روما قيصر القديمة. في تلك الأثناء استوقفني صوت بدا وكأنه آت من الآخرة، بلا مبالاة في شارع ضيق في تراستيفيري قائلاً:

" مرحباً، أيها الشاعر ".

لقد كان هو، عجوزاً ومنهكاً. أربعة بابوات كانوا قد رحلوا، وروما السرمدية بدأت تُظهر الملامح الأولى لتداعيها، وهو ما يزال ينتظر. " لقد انتظرت طويلاً جداً وأعتقد أن ما يجب عليّ انتظاره الآن ليس بذاك الطول ". ثم قال أخيراً وهو يودعني بعد أربع ساعات من الوطان: " ربما

كانت مسألة أشهر ". مشى متثاقلاً في الشارع، وهو يلبس حذاء عسكرياً وقبعة باهتة لعجوز روماني، متجاهلاً البرك الصغيرة التي صنعها المطر، حيث كان ضوء النهار قد بدأ بالتلاشي. عند ذاك لم يتبقَ لدي أدنى شك – هذا إذا وجد ذلك الشك بالأساس – بأن القديس لم يكن إلا مارغريتو. فهو وبدون أن يتمكن من تحقيق مراده. قضى اثنتين وعشرين سنة، برفقة جسد ابنته الذي لا يبلى وهو يكافح طالما هو قادر على الحركة من أجل قضية شرعية طبقاً لتطويب خاص به وحده.

حزيران 1982

الحسناء النائمة والطائرة

كانت جميلة ورشيقة، وكان لها بشرة ناعمة بلون الخبز وعينين تشبهان لوزتين غضتين، وشعراً أسودَ منسدلاً طويلاً يصل إلى كتفيها. ويبدي محياها طابعاً من العراقة يرجح أن يكون أندونيسياً أو هندياً. كان لباسها ينم عن ذوق رفيع: سترة مرقطة كجلد النمر، وبلوزة من الحرير الطبيعي مزركشة بأزهار كثيرة ناعمة، بنطلوناً من الكتان الطبيعي وحذاء ذا خطوط ضيقة بلون زهرة البوغنفيلية. " تلك هي المرأة الأكثر جمالاً التي رأيتها في حياتي ". دار ذلك بخاطري عندما لمحتها تمر بجانبي وهي تمشي بخطوات مختلسة كخطو لبوءة بينما كنت أنتظر دوري في طابور التدقيق في مطار شارل ديغول من أجل السفر بالطائرة المتجهة إلى نيويورك. كانت طيفاً خارقاً للطبيعة تواجد للحظة فقط ثم اختفى داخل الحشد في المحطة.

كانت التاسعة صباحاً، بعد ليلة لم ينقطع الثلج فيها عن التساقط. حركة السير التي كانت بطيئة نتيجة ازدحام أكثر من المعتاد في شوارع المدينة، كانت أكثر بطئاً على الطريق الرئيسي خارج المدينة، حيث كانت السيارات الشاحنة تشكل صفاً على طرف الطريق، والسيارات الصغيرة يتصاعد البخار منها تحت الثلج وعلى كل حال ففي داخل صالة المطار كان الوقت ما يزال ربيعاً.

وقفت وراء امرأة هولندية قضت حوالي الساعة وهي تجادل بخصوص وزن حقائبها الإحدى عشرة. كنت بدأت أشعر بالضجر عندما رأيت الطيف الخاطف الذي تركني مقطوع الأنفاس، وهكذا لم أعرف كيف انتهى الجدال، وعند ذاك أنزلتني قاطعة التذاكر من غيوم التشوش مع توبيخ لانذهالي. وعلى سبيل الاعتذار سألتها إن كانت تؤمن بالحب من النظرة الأولى. قالت: " بالطبع والأشكال الأخرى مستحيلة ". وأبقت عينيها مثبتتين على شاشة الكمبيوتر وسألتني فيما إذا كنت أفضل مقعداً في جناح المدخنين أم غير المدخنين.

" الأمر سيان عندي " وأضفت بخبث مقصود: " طالما لست بقرب الحقائب الإحدى عشرة ".

عبرت عن إعجابها بابتسامة دبلوماسية لكنها لم تبعد عينيها عن الشاشة المضيئة ثم قالت لي: " اختر واحداً من هذه الأرقام: ثلاثة، أربعة أو سبعة ".

" أربعة ".

ابتسمت ابتسامة نصر سريعة وقالت:

" خلال الخمس عشرة سنة الماضية التي عملت فيها هنا، أنت أول شخص لم يختر الرقم سبعة ".

كتبت رقم المقعد على بطاقة الجلوس وأعادتها لي مع بقية أوراقي، ناظرة إليَّ للمرة الأولى بعينين بلون حبات العنب كانت سلوى لي إلى أن أستطيع رؤية الحسناء ثانية. وعند ذلك فقط أخبرتني أن المطار قد أغلق للتو وأجلّت كل رحلات الطيران.

" إلى متى ؟ ".

" ذاك يعود إلى ربنا " قالت ذلك مبتسمة ثم أضافت: " لقد أذاع الراديو هذا الصباح بأن العاصفة الثلجية القادمة ستكون الأشد خلال هذه السنة ".

لقد كانت مخطئة: فقد كانت الأشد خلال هذا القرن. لكن في صالة انتظار الدرجة الأولى كان الربيع حقيقياً حيث كانت هناك أزهاراً زاهية في الأصص، بل وحتّى الموسيقا الصادرة من آلات الستيريو بدت رفيعة الذوق ومهدئة للأعصاب كما أراد مبدعوها أن تكون. فجأة خطر في بالي أن هذا المكان ملاذ مناسب للحسناء، ومن ثم بحثت عنها في زوايا الانتظار الأخرى، مندهشاً لجسارتي. لكن أغلب الناس هناك كانوا رجالاً من الحياة الواقعية يقرؤون جرائد بالإنكليزية بينما زوجة الواحد منهم تفكر بشخص آخر وهي تنظر من خلال النوافذ البانورامية في الطائرات الجامدة بين الثلوج، في المصانع المغطاة بطبقة من الجليد، وفي حقول " رْواسي " الفسيحة التي بدت كأنها خربت من قبل أسود ضارية. وعند حلول الظهيرة لم يعد هناك أي مقعد خالٍ، وأصبحت الحرارة لا تطاق، مما جعلني أهرب من المكان لأتنشق بعض الهواء النقي.

وفي الخارج رأيت منظراً غامراً. أصناف مختلفة من البشر كانوا قد احتشدوا في صالات الانتظار أو كانوا يرابطون في الموزعات الخانقة للأنفاس وحتى على سلالم الأدراج، متمددين على الأرض مع حيواناتهم، أولادهم، وعتاد سفرهم. الاتصالات مع المدينة كانت قد انقطعت أيضاً، والمبنى الضخم المصنوع من اللدائن الشفافة بدا شبيهاً بكبسولة فضاء تائهة في العاصفة. لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير بأن الحسناء أيضاً ستكون في مكان ما وسط هذه القطعان الأليفة، ومدني خيالي الجامح بشجاعة جديدة عاونتني على الانتظار.

عند حلول وقت الغداء كنا قد أدركنا أننا أصبحنا في ضياع. الصفوف كانت لا متناهية خارج المطاعم السبعة، الكافتيريات، والبارات المتراصة، وفي أقل من ثلاث ساعات اضطرت جميعها أن تغلق أبوابها لأنه لم يتبق لديها شيء من الطعام أو الشراب. الأولاد، والذين بدوا

للحظات بأنهم أولاد العالم كله، بدؤوا البكاء في نفس الوقت، ورائحة القطيع بدأت تنبعث من الحشد. لقد كان وقت الغريزة. وفي ظل ذلك التدافع، الشيء الوحيد الذي استطعت أن أجد لآكله كان آخر فنجانين من الآيس كريم بالفانيليا في متجر الأولاد. كانت النادلات تضعن الكراسي على الطاولات عندما بدأ الزبائن بالمغادرة، بينما كنت آكل بهدوء على النضد، وأنا أنظر إلى صورتي في المرآة برفقة آخر فنجان كرتوني صغير وآخر ملعقة كرتونية صغيرة، وأفكر في الحسناء.

الطائرة المتجهة إلى نيويورك، والمقرر إقلاعها في الساعة الحادية عشرة، غادرت في الساعة الثامنة مساء. عندما تمكنت من صعود الطائرة، كان ركاب الدرجة الأولى الآخرون قد استقروا في أماكنهم، وقادتني المضيفة إلى مقعدي. كاد قلبي أن يتوقف عن الخفقان، ففي المقعد الذي بجانبي والمحاذي للنافذة، كانت الحسناء تشغل المكان المخصص لها ببراعة مسافر خبير. قلت لنفسي: " لو أنني كتبت هذا فلن يصدقني أحد ". وبصعوبة تمكنت من أن أتمتم بتحية غير واضحة حيث أنها ما سمعتها.

وطدت نفسها في مكان جلوسها وكأنها ستعيش هناك لسنوات عديدة، واضعة كل شيء في المكان والترتيب المناسب، حتى بدا مقعدها مرتباً كبيت مثالي، إذ كل غرض كان في المتناول. في غضون ذلك الوقت، جلب لنا المضيف شمبانيا الترحيب. أخذتُ كأساً لأقدمها لها، لكن تراجعت عن ذلك في الوقت المناسب تماماً، فهي أرادت فقط كأساً من الماء، وطلبت من المضيف، في المرة الأولى بفرنسية غير مفهومة، وبعد ذلك بإنكليزية أوضح قليلاً، بألا يوقظها لأي سبب خلال الرحلة. صوتها الدافئ المتسم بالجدية كان مشوباً بحزن شرقي.

عندما جلب المضيف الماء، وضعت علبة تجميل ذات حواف نحاسية تشبه صندوق ثياب جدة على حضنها، وأخذت حبتي دواء

ذهبيتين من علبة تضمنت أخريات بألوان مختلفة. فعلت كل شيء بطريقة منهجية وكأنه لم يحصل معها أمر غير محسوب منذ ولادتها. في النهاية سحبت الستارة على النافذة، خفضت ظهر مقعدها إلى أدنى مستوى مصمم له أن ينخفض. غطت نفسها حتى الوسط ببطانية وبدون أن تخلع حذاءها، لبست قناع النوم، أدارت ظهرها لي، وبعد ذلك نامت بدون أن تستيقظ ولو لمرة واحدة، بدون تنهيدة، وبدون أدنى تغيير في وضعيتها، ولثماني ساعات سرمدية واثنتي عشرة دقيقة إضافية من الطيران إلى نيويورك.

كانت رحلة مشبوبة بالعواطف، كنت دائماً أؤمن بأنه لا شيء أكثر جمالاً في الطبيعة من امرأة جميلة، وكان من المستحيل بالنسبة لي أن أهرب ولو للحظة من سحر مخلوق حكايات كتب الأطفال ذاك والذي ينام الآن بجانبي. المضيف اختفى حالما أقلعت الطائرة واستبدل بمضيفة من قوم ديكارت التي حاولت أن توقظ الحسناء وتسلمها علبة تزين وطاقم سماعات من أجل سماع الموسيقا. كررتُ التعليمات التي كانت أعطتها للمضيف، لكن المضيفة أصرت على أن تسمع من شفتي الحسناء بالذات بأنها لا تريد العشاء أيضاً. وكان على المضيف أن يؤكد لها تلك التعليمات، بل وأن يؤنبني لأن الحسناء لم تعلق البطاقة الصغيرة التي تحمل رمز " الرجاء عدم الإزعاج " حول رقبتها.

تناولت العشاء وحيداً، وأنا أحكي لنفسي بصمت كل شيء كان يجب أن أقوله لها فيما لو كانت مستيقظة. كان نومها هادئاً إلى درجة أنني في لحظة ما تملكني شعور مقلق بأن حبات الدواء التي أخذتْها لم تكن من أجل النوم بل من أجل الموت. ومع كل رشفة شراب كنت أرفع الكأس وأشرب نخبها:

" بصحتك يا حسناء ".

عندما انتهى العشاء بهتت الأضواء وتم عرض فيلم لن يتفرج عليه أحد، وكنا كلانا وحيدين في ظلمة هذا العالم. العاصفة الأشد في هذا القرن كانت قد انتهت، وليل الأطلسي كان مذهلاً وبلا نهاية، وبدت الطائرة وكأنها ساكنة بين النجوم. بعد ذلك، بدأت بتأملها بوصة بوصة، لساعات عديدة، والعلامة الوحيدة الدالة على حياة والتي استطعت أن استبينها كانت ظلال الأحلام التي تعبر على طول جبينها مثل غيوم فوق الماء. حول رقبتها كانت تتقلد سلسالاً ناعماً جداً بحيث بدا وكأنه غير مرئي على بشرتها الذهبية. أذناها اللتان بلغتا حد الكمال كانتا غير مثقوبتين. أظافرها كانت وردية وتبدو عليها علائم العافية، وفي إصبع يدها اليسرى كان يوجد خاتم بسيط. وبما أنه بدا أنها لم تتجاوز العشرين عاماً فقد واسيت نفسي بفكرة أنه ليس خاتم زواج بل إشارة لخطوبةٍ سريعة الزوال. " لأن تعرف أنك نائم، واثق، آمن، فتلك طريقة صادقة من نكران الذات، درب صافية شديدة القرب من ذراعي المقيدان ". كان تفكيري يسرح في الرغوة المزبدة للشمبانيا وأنا أردد السوناتا الرائعة لجيراردو ديغو. بعد ذلك خفضت ظهر مقعدي حتى مستوى مقعدها، واستلقينا إلى جانب بعضنا، أقرب مما لو كنا في فراش الزوجية. الشعور الذي كان يحدثه تنفسها كان شبيهاً بالشعور الذي يحدثه صوتها، وكان جلدها يبعث عبيراً عطراً يمكن أن يكون فقط رائحة جمالها. لقد بدا الأمر وكأنه لا يصدق: في الربيع الماضي قرأت رواية جميلة لياسوناري كاواباتا حول بعض قدماء البورجوازيين من كيوتو والذين كانوا يدفعون مبالغ ضخمة لكي يقضوا الليل وهم يراقبون الفتيات الأكثر جمالاً في المدينة، وهن عاريات ومخدرات ، بينما يتحرقون توقاً ليكونوا معهن في نفس السرير. لا يسمح لهم إيقاظهن أو لمسهن، وحتى هم لا يحاولون أن يفعلوا ذلك، لأن جوهر سعادتهم كان أن يروهن نائمات. وفي ذاك

المساء وأنا أراقب نوم الحسناء لم أفهم ذلك الشكل المتطرف من الخرف وحسب بل عشته أيضاً حتى الثمالة.

قلت لنفسي وقد أثارت الشمبانيا الخيلاء في داخلي: " من كان يعتقد أنني سأصبح يابانياً عتيقاً في آخر الزمن؟ " .

أعتقد أنني نمت ساعات عديدة مهزوماً بالشمبانيا والانفجارات البكماء في الفيلم وعندما استيقظت كنت أشعر أن رأسي سيتمزق. مشيت إلى الحمام. على بعد مقعدين وراء مقعدي كانت المرأة العجوز ذات الإحدى عشرة حقيبة تستلقي في تمدد سمج، مثل جثة منسية في ميدان معركة. نظارة القراءة التي تعود لها و المعلقة بسلسلة من الخرز الملون كانت على الأرض في منتصف الممشى، وللحظات تمتعت بفرح ماكر كوني لم أقمْ بالتقاطها.

بعد أن تخلصت مما سببه لي الإفراط في الشمبانيا، نظرت إلى نفسي في المرآة، فوجدت منظري جديراً بالازدراء وبشعاً، وكنت مدهوشاً لأن تدمير الحب كان بهذه الفظاعة. فقدت الطائرة السيطرة على ارتفاعها بدون تحذير مسبق، بعد ذلك استطاعت أن تحل المشكلة من تلقاء نفسها وتسير بكامل سرعتها بشكل مستقيم. إشارة " عودوا إلى أماكنكم " ، استمرت مضيئة. أسرعت خارجاً على أمل أن هذا الاضطراب المقدر من عند الله سوف يوقظ الحسناء وسوف تضطر لأن تجد ملاذاً بين ذراعي لتتغلب على رعبها. وفي تعجلي المتهور كدت أدوس على نظارتي المرأة الهولندية ولكم كنت سعيداً لو أنني فعلت ذلك. لكنني عدت خطوتين إلى الوراء، التقطتها ووضعتها في حضنها وأنا أشعر بعرفان مفاجئ بالجميل تجاهها كونها لم تختر المقعد رقم أربعة قبل أن أختاره أنا.

كان نوم الحسناء نوماً لا يمكن قهره. عندما استقر طيران الطائرة، كان عليّ أن أقاوم الإغراء المتمثل بأن أنخعها قليلاً بذريعة ما، لأن كل

ما كنت أريده في الساعة الأخيرة من الطيران كان أن أراها مستيقظة، حتى ولو كانت مغتاظة، وهكذا يصبح بإمكاني أن أستعيد حريتي، وربما أيضاً شبابي. لكن لم استطع فعل ذلك وقلت لنفسي وباحتقار كبير: " تباً، لماذا لم تكن من مواليد الثور !".

استيقظت من تلقاء نفسها في اللحظة التي أضيئت فيها أنوار الهبوط، و بدت جميلة وهي منتعشة وكأنها نامت في حديقة أزهار. عند ذلك أدركتُ بأن الناس الذين يجلسون إلى جانب بعضهم في الطائرات لا يقول الواحد منهم صباح الخير للآخر عندما يستيقظون مثلهم مثل الأزواج المتزوجين منذ أمد طويل، ولم تقل هي ذلك أيضاً. خلعت قناعها، فتحت عينيها المتألقتين، عدلت ظهر المقعد، هزت شعرها بحيث رجع إلى مكانه بتأثير ثقله، وضعت علبة التزين على ركبتها، وقامت بعمل مكياج سريع وغير ضروري، والذي استغرق ما يكفي بحيث لم تنظر إليّ حتى فتحِ باب الطائرة. عند ذلك لبست السترة المرقطة، وتخطتني وأنا جالس مع اعتذار تقليدي بإسبانية أمريكية لاتينية صرفة. مغادرة دون أن تقول وداعاً، أو على الأقل تشكرني لكل ما فعلته في سبيل أن أجعل ليلتنا معاً تبدو ليلة سعيدة، ثم اختفت في وضح النهار في الدغل الأمازوني لمدينة نيويورك.

حزيران 1982

أنا أبيع أحلامي

ذات صباح وفي الساعة التاسعة، وبينما كنا نتناول الفطور على تراس فندق هافانا ريفيرا تحت الشمس الساطعة، اندفعت موجة عظيمة أخذت في طريقها عدة سيارات كانت تسير على الشارع المحاذي لكاسر الأمواج أو كانت متوقفة على الرصيف، وطمرت واحدة منها على جانب الفندق. بدا الأمر أشبه بانفجار ديناميت حيث أثار الرعب في أرجاء الطوابق العشرين للمبنى وحوَّل نوافذ المدخل الضخمة فتاتاً صغيرة. السباح الكثيرون الذين كانوا في ردهة الانتظار قذفوا في الجو برفقة الأثاث، وجرح بعضهم بعاصفة بردية من الزجاج المتطاير. لا بد وأن الموجة كانت هائلة جداً لأنها استطاعت أن تتخطى الشارع العريض ذ ا الحارتين الذي يفصل ما بين كاسر الأمواج والفندق، وتحتفظ بقوة تكفي لتحطيم النوافذ.

المتطوعون الكوبيون المرحون، وبمؤازرة مصلحة الإطفاء، جمعوا الأنقاض في أقل من ست ساعات، وأغلقوا البوابة المؤدية إلى البحر، وركَّبوا واحدة بدلاً منها وعاد كل شيء إلى مجراه. لم يهتم أحد خلال الصباح بالسيارة التي بدت كقشرة على الجدار، لأن الناس اعتقدوا بأنها كانت واحدة من السيارات التي كانت متوقفة على الرصيف. لكن عندما رفعتها الرافعة من مكانها، وجد جسد امرأة مثبتاً بإحكام بحزام الأمان وراء عجلة القيادة. كانت الضربة قاسية جداً بحيث لم يبق عظماً واحداً من

عظامها على حاله. كان وجهها مشوهاً، ونعلا ها مشروطان شِرَطاً متباعدة، وثيابها ممزقة. كانت تلبس خاتماً ذهبياً على شكل ثعبان مرصعاً بحجارة من زمرد. أثبتت الشرطة بأنها كانت تعمل مدبرة منزل عند السفير البرتغالي الجديد وزوجته. أتت إلى هافانا معهما منذ أسبوعين، وغادرت ذلك الصباح إلى السوق وهي تقود سيارة جديدة. لم يعنِ اسمها شيئاً لي عندما قرأته في الصحيفة، لكن أثار اهتمامي الخاتم الأفعواني وحجارته الزمردية. وعلى كل حال فلم أستطع معرفة الإصبع التي كانت تضعه فيها.

كانت تلك معلومات في غاية الحرج، لأنني تخوفت من أنها ربما تعلقت بامرأة لا يمكن نسيانها والتي لم أعرف أبداً اسمها الحقيقي، حيث كانت تلبس خاتماً مشابهاً في سبابة يدها اليمنى، عادة كانت في تلك الأيام أقل ندرة بكثير عما هي عليه الآن. قابلتها منذ أربعٍ وثلاثين سنة في فيينا، وهي تأكل السجق مع البطاطا المسلوقة وتشربُ البيرة المعلبة في حانة يتردد عليها طلاب أمريكيون لاتينيون. كنت قادماً من روما ذاك الصباح، وما زلت أذكر انجذابي التلقائي لثوب السوبرانو الرائع الذي تلبسه، لزهرة ذيل الثعلب الواهنة على ياقة معطفها، والخاتم الفرعوني على شكل ثعبان. كانت تتكلم أسبانية بسيطة بنبرة رنانة ووقفات تنفس كثيرة. واعتقدت أنها كانت النمساوية الوحيدة على الطاولة الخشبية الطويلة. لكن لم يكن ما اعتقدته صحيحاً، فقد ولدت في كولومبيا وأتت إلى النمسا في فترة ما بين الحربين العالميتين, وقد كانت أكبر من شابة بقليل، حيث قدمت لتدرس الموسيقا والغناء. كانت في حوالي الثلاثين من عمرها، ولم تكن تعطي انطباعاً صحيحاً عن عمرها الحقيقي، فهي لم تكن جميلة يوماً ما وقد بدت عليها علائم الكبر قبل حلول الأوان.

كانت فيينا ما تزال مدينة ملوكية قديمة، موقعها الجغرافي كفاصل بين عالمين متضادين، والذي كان حصيلة للحرب العالمية الثانية، حولها إلى جنة للسوق السوداء والجاسوسية الدولية . لم أستطع أن أتخيل بقعة أخرى أكثر ملاءمة لتلك الرفيقة المهاجرة من بلدي، والتي ما فتئت تأكل في حانة الطلبة على الزاوية، وذلك بدافع الإخلاص لجذورها ليس إلا، حيث أنها كانت تمتلك نقوداً أكثر من كافية لكي تبتاع وجبات لكل رفقاء طاولتها. لم تفصح أبداً عن اسمها الحقيقي، وكانت معروفة لدينا جميعاً بالاسم الناتج عن تحريف باللسان الألماني والذي ابتدعناه لها نحن الطلاب اللاتينيون في فيينا: " فراو فريدا " ونعني امرأة السلام. كنت قد قُدِّمت إليها للتو عندما ارتكبتُ وقاحة كانت في محلها بسؤالي عن مردِّ إقامتها في عالم بعيد جداً ومختلف عن السفوح التي تعصف بها الرياح في كويندیو، وأجابت بشكل صاعق:

" أنا أبيع أحلامي ".

في الحقيقة، كانت تلك هي مهنتها الوحيدة. فقد كانت الولد الثالث من بين أحد عشر ولداً ولدوا لحانوتي ناجح في كالداس القديمة، وحالما تعلمت النطق، بدأت بممارسة تلك العادة الظريفة مع عائلتها التي كان من عادة أفرادها أن يحكوا أحلامهم قبل الفطور، وهو الوقت الذي تكون فيه قدرات الوحي لديهم متجسدة بالشكل الأكثر صفاء. عندما كانت في السابعة حلمت بأن أحد إخوتها سيأخذه الطوفان. أمها وبدافع من خوفها الديني من المجهول، منعت الولد من السباحة في السيل، والتي كانت تسليته الوحيدة. لكن فراو فريدا كان لها نظامها الخاص في التنبؤ. وقد فسرت ذلك الحلم بالقول: " ليس أنه سيقضي غرقاً هو ما يعنيه ذلك الحلم، بل يجب ألا يأكل الحلوى ".

بدا تفسيرها وكأنه فقدان حقوق لصبي عمره خمس سنوات لا يستطيع العيش بدون ولائم يوم الأحد. أمهم، المقتنعة بالمواهب النبوئية

لابنتها، نفذت ذلك التحذير بيد من حديد. لكن الصبي اغتنم أول فرصة من عدم انتباه والدته وكانت النتيجة أن اختنق بقطعة من الكاراميل كان يأكلها سراً، ولم يكن هناك سبيل لإنقاذه.

لم تكن فراو فريدا تعتقد أنه يمكنها أن تكسب عيشها من موهبتها، إلى أن عانت من شظف العيش خلال الأيام الشتائية القاسية في فيينا. عند ذلك بحثت عن عمل في أول منزل وجدت لديها رغبة للعيش فيه، وعندما سُئلت ما الذي بامكانها أن تفعل، أخبرتهم بالحقيقة وحسب: " أنا أحلم " وكان إعطاء شرح مقتضب لسيدة المنزل هو كل ما احتاجت إليه. وهكذا فقد تم التعاقد معها مقابل راتب يغطي بالكاد نفقاتها الأساسية، لكنها أعطيت غرفة جميلة واتفق أن يُقدَّم لها ثلاث وجبات في اليوم – والفطور على وجه الخصوص، حيث كانت تجلس العائلة لكي تتعرف على المستقبل القريب لكل من أعضائها: الأب وهو خبير مالي مثقف، الأم وهي امرأة مرحة شغوفة بموسيقا الحجرة الرومانسية، وولدين الأول في الحادية عشر ة والثاني في التاسعة من عمره. كان الجميع متدينين وبالتالي ميالين إلى الخوف القديم من المجهول، وكانوا في غاية السرور لأن يؤوا فراو فريدا بينهم، والتي كان عملها الوحيد هو أن تفك شفرة القدر اليومي للعائلة من خلال أحلامها.

لقد قامت بعملها خير قيام، ولمدة طويلة، وخصوصاً في سنوات الحرب، عندما كان الواقع أكثر نذيراً بالشرور من الكوابيس. فقط هي التي كان بإمكانها أن تقرر أثناء الفطور ما الذي على كل واحد من أفراد العائلة أن يفعله خلال ذلك اليوم، وكيف سيتم إنجازه، حتى أضحت تنبؤاتها السلطة الوحيدة في المنزل. كانت سيطرتها على العائلة مطلقة: حتى أضعف تنهيدة كانت تصدر بأمر منها. توفي رب المنزل قبل قدومي إلى فيينا بفترة وجيزة وقد كان من اللطف بحيث ترك لها جزءاً

من أملاكه بشرط أن تستمر بالحلم لعائلته إلى أن تبلغ تلك الأحلام نهاية لها.

مكثت في فيينا لأكثر من شهر، أشاطر الطلاب الآخرين الأزمة المالية الشديدة وأنا أنتظر النقود التي لم تصل أبداً. زيارات فراو فريدا الكريمة وغير المتوقعة إلى الحانة كانت كالمهرجانات في مجتمعنا الصغير الموبوء بالفقر. وفي إحدى الأمسيات، وفي غمرة شعور بالنشاط متأتٍ عن شرب البيرة همست في أذني وباقتناع راسخ لا يحتمل التأجيل قائلة:

" أنا أتيت فقط لأخبرك بأنني حلمت حلماً يخصك في الليلة الماضية، يجب عليك أن تغادر بعيداً في الحال ولا تعود إلى فيينا لخمس سنوات قادمة ".

كان اقتناعها حقيقياً وصادقاً بحيث سافرت على متن القطار الأخير المغادر إلى روما الليلة نفسها. وبالنسبة لي فقد بقيت متأثراً جداً بما قالت منذ ذلك التاريخ، حيث اعتقدت أنني قد نجوت من بعض الكوارث التي ماتوقعتها أبداً، وإلى الآن لم أعد إلى فيينا.

قبل حلول المصيبة في هافانا، كنت قد رأيت فراو فريدا بطريق المصادفة و بشكل غير متوقع بحيث بدا الأمر لغزاً بالنسبة لي. لقد حصل ذلك في اليوم الذي خطا فيه بابلو نيرودا على تراب أسبانيا للمرة الأولى منذ الحرب الأهلية، عند توقف للباخرة خلال رحلة بحرية طويلة إلى فالبارايسو. لقد قضى الصباح معنا يتصيد الكتب ذات الأهمية في متاجر الكتب المستعملة، و في بوربتو اشترى مجلداً قديماً، تم تجفيفه بعد تشربه بالماء وكان ذا غلاف ممزق، دفع من أجله ما يمكن أن يساوي راتبه لشهرين في القنصلية في رانغون. مشى بين الحشود مثل فيل عاجز، وبفضول طفل يريد أن يعرف نظام العمل الداخلي لكل شيء تقع

عليه عيناه، فقد بدا العالم له وكأنه دمية ضخمة مقرونة وبمعيَّتها تأخذ الحياة شكلها.

لم أعرف أي شخص كان أقرب منه إلى الصورة التي يمتلكها الواحد منا عن بابا من عصر النهضة: كان نهماً وذواقاً، وبدون إرادة منه، كان يجلس دائماً متصدراً الطاولة. زوجته ماتيلدا تضع صدرية حول رقبته تلائم صالون حلاقة أكثر مما تلائم غرفة طعام، لكنها كانت الطريقة الوحيدة لكي يتجنب أخذ حمام بالصلصة. ذلك اليوم في كافاليراس كان مثالياً، فقد التهم ثلاثة من سرطان البحر بالتمام والكمال، شرّحها بمهارة جراح، وفي نفس الوقت التهم صحن كل من الباقين بعينيه، وتذوق قليلاً من كل منها بمتعة جعلت الرغبة بالأكل أمراً معدياً وطاغياً وهو يشرح: البطلينوس من غاليسيا، بلح البحر من كانتابريا، القريدس من اليكانتيه، وخيار البحر من كوستابرافا. وخلال تناوله للطعام، وكالفرنسيين، لم يكن يتكلم عن أي شيء ما عدا عن أطباق المطبخ الشهية، وخصوصاَ المحار التشيلي الذي يكنُّ له مكانة خاصة في قلبه. فجأة توقف عن الأكل،وعدَّل هوائي سرطان البحر أمامه، وقال بصوت خافت جداً:

" يوجد شخص ورائي لا يتوقف عن النظر إلي ".

نظرت نظرة خاطفة من فوق كتفيه، ولاحظت أن ما قاله كان صحيحاً. على مسافة ثلاث طاولات منا جلست امرأة تبدو عليها الجسارة تلبس قبعة لباد قديمة الطراز ووشاحاً أرجوانياً، تأكل بدون عجلة وهي تحدق به. تعرفت إليها في الحال. كانت قد كبرت في العمر وأصبحت سمينة، لكنها كانت فراو فريدا، صاحبة الخاتم الأفعواني في سبابة يدها.

كانت مسافرة من نابولي على الباخرة نفس ها التي يسافر عليها نيرودا وزوجته، لكن لم ير أحدهما الآخر على متنها. دعوناها لتناول القهوة على طاولتنا، وشجعتها لتتحدث عن أحلامها لكي تثير دهشة

الشاعر. لم يعر ذلك أدنى انتباه، فقد أعلن منذ البداية أنه لا يؤمن بالأحلام التي تتنبأ بالمستقبل قائلاً:

" الشعر وحده لديه القدرة على الاستبصار ".

بعد الغداء وخلال تجوالنا المتعذر تجاهله على الكورنيش البحري، أبطأت الخطا أنا وفراو فريدا بحيث نستطيع أن نستعيد ذكرياتنا من دون أن يسمعنا الآخرون. لقد أخبرتني بأنها باعت جميع أملاكها في النمسا وانكفأت إلى أوبورتو في البرتغال، حيث تعيش في مسكن وصفته لي بأنه قلعة مزيفة على تلة يستطيع المرء منها أن يرى الطريق البحرية التي تتجه عبر المحيط إلى الأمريكيتين. وعلى الرغم من أنها لم تقل ذلك، فمن خلال حديثها بدا واضحاً من أنها عن طريق قصها للأحلام، واحداً تلو الآخر استطاعت أن تستحصل على كامل ثروة سادتها الرائعين في فيينا. ذلك لم يدهشني على أي حال لأني كنت أعتقد أن أحلامها ليست أكثر من استراتيجية للبقاء، وقد أخبرتها برأيي.

ضحكت ضحكتها الطليقة وقالت: " إنك شخص صفيق كما عهدتك ". ولم تقل أكثر من ذلك لأن بقية المجموعة كانت قد توقفت لتنتظر نيرودا كي ينهي حديثه باللهجة التشيلية إلى الببغاوات على كورنيش لوس باجاروس. عندما استأنفنا حديثنا غيرت فراو فريدا الموضوع قائلة:

" بالمناسبة، بإمكانك أن تعود إلى فيينا الآن ".

عند ذلك فقط انتبهت إلى أن ثلاث عشرة سنة قد انقضت منذ لقاءنا الأول، وقلت لها:

" حتى لو كانت أحلامك غير صحيحة، فإنني لن أعود أبداً ".

في الساعة الثالثة تركناها لنصحب نيرودا إلى قيلولته المقدسة، التي أخذها في بيتنا بعد تحضيرات مهيبة تذكر بطقوس الشاي الياباني. بعض النوافذ كان يجب فتحها وإغلاق الأخرى لتحقيق درجة الحرارة

المطلوبة، ويجب أن يكون هناك نوع محدد من الإضاءة يأتي من اتجاهات معينة، هذا بالإضافة إلى الصمت المطلق. غطَّ نيرودا في النوم في الحال، واستيقظ بعد ذلك بعشر دقائق، كما يفعل الأطفال، حيث كنا أبعد من أن نتوقع ذلك. وبدا في غرفة المعيشة منتعشاً والعلامة الفارقة لغطاء الوسادة مطبوعة على خده وقال:

" لقد حلمت حلماً عن المرأة التي تحلم ".

أرادت ماتيلدا أن يخبرها عن حلمه فقال:

" حلمت أنها كانت تحلم حلماً عني ".

قلت: " ذلك بوحي من بورجيس ".

نظر إلي بإحباط وقال: " هل كتب ذلك مسبقاً ؟ ".

قلت: " إذا لم يكتبه فسيكتبه يوماً ما، سيكون ذلك إحدى متاهاته".

وحالما صعد نيرودا السفينة في السادسة من ذاك المساء، ودعنا ومن ثم جلس على طاولة منعزلة، وبدأ بكتابة أشعار سلسة بحبر أخضر كان يستخدمه لرسم الأزهار والأسماك والطيور عندما يهدي كتبه. عندما أعلن التنبيه الأول للضيوف بأن يغادر وا الباخرة إلى رصيف الميناء، بحثنا عن فراو فريدا، ووجدنا ها أخيراً على الدكَّة السياحية من ظهر المركب وذلك تماماً في اللحظة التي كنا نعتزم أن نغادر فيها دون أن نتمكن من أن نقول لها وداعاً. كانت هي الأخرى قد أخذت قيلولة أيضاً.

" لقد حلمت بالشاعر" قالت فراو فريدا.

سألتها مندهشاً أن تقص علي حلمها فقالت:

" حلمت أنه كان يحلم حلماً عني ". نظرة الذهول التي بدرت مني أربكتها ثم تابعت قائلة: " ما الذي توقعته؟ أحياناً، وبرغم قدرة التبصر في كل أحلامي، فقد تندس، وكما حدث في هذا الحلم، أشياء لا تمت للواقع بصلة ".

لم أرها ثانية إطلاقاً أو تخطر ببالي حتى سمعت بالخاتم الأفعواني في يد المرأة التي ماتت في كارثة فندق هافانا ريفيرا. ولم أستطع أن أقاوم إغراء الاستفسار عن الأمر من السفير البرتغالي عندما تصادف أن التقينا بعد عدة أشهر في حفل استقبال دبلوماسي. تكلم السفير عنها بحماسة شديدة وإعجاب عظيم وقال: " لا تستطيع أن تتخيل أية امرأة استثنائية كانت، لو عرفتها لوجدت نفسك ملزماً بكتابة قصة عنها ".

واستمر بنفس النغمة، قاصاً تفاصيل مدهشة، لكن دون أن يعطي المفتاح الذي يمكن أن يسمح لي بالوصول إلى نتيجة. سألته في النهاية: " قل لي بعبارات واضحة، ماذا كانت تعمل ؟ ".

أجاب بشكل حاسم وبلا تردد: " لا شيء، كانت تحلم ليس إلا ".

آذار 1980

أتيت كي أستخدم الهاتف فقط

بُعيد ظهيرة يوم ربيعي مطير، وبينما كانت ماريّا دي لالوز سيرفانتيس تقود سيارتها المستأجرة وحيدة وهي عائدة إلى برشلونة، تعطلت السيارة في بيداء مونغروس. كانت ماريّا في السابعة والعشرين من العمر، مكسيكية جميلة، دائماً مستغرقة في تفكيرها، وكانت قد تمتعت ببعض الشهرة كعازفة موسيقا حجرة منذ عدة سنوات مضت. كانت متزوجة من ساحر يعمل في ملهى، حيث كان من المقرر أن يلتقيا لاحقاً ذلك اليوم بعد زيارتها لبعض الأقارب في سرقسطة. و على مدى ساعة كاملة لوحت بإشارات يائسة من يديها إلى السيارات والشاحنات التي كانت تتجاوزها مسرعة في العاصفة، إلى أن مر أخيراً باص متهالك أخذت سائقه الشفقة عليها. وعلى كل حال فقد نبهها السائق بأنه ليس مسافراً إلى مكان بعيد.

قالت ماريّا: " ليس في الأمر مشكلة، كل ما أحتاجه هو هاتف وحسب ".

كان ذلك صحيحاً، فحاجتها إليه كانت فقط لكي تعلم زوجها بأنه لن يكون بمقدورها التواجد في المنزل قبل السابعة. ولأنها كانت تلبس معطفاً طلابياً وخفي بحر في نيسان، فقد بدت مثل عصفور صغير متسخ بالوحول، وكانت مخبلة جداً بعد حظها العاثر هذا، حيث أنها نسيت أخذ مفاتيح سيارتها. كانت تجلس بجانب السائق امرأة ذات مظهر عسكري أعطتها منشفة وبطانية وأفسحت لها مجالاً كي تجلس. جففت ماريّا نفسها وأزالت عنها الأوساخ التي سببها المطر ثم قعدت ولفت جسدها بالبطانية، وحاولت أن تشعل سيجارة، لكن أعواد ثقابها كانت مبللة. المرأة التي كانت تشاركها المقعد أعطتها شعلة وطلبت واحدة من السجائر القليلة التي لم يصبها البلل. وبينما كانتا تدخنان، استسلمت ماريّا للرغبة لأن تنفِّس عن مشاعرها وترفع صوتها ليطغى على ضجيج المطر وقرقعة الباص. قاطعتها المرأة بوضع سبابتها على شفتيها وهمست:

" إنهن نائمات ".

نظرت ماريّا من فوق كتفها ورأت أن الباص كان مليئاً بنساء من أعمار مختلفة وأوضاع اجتماعية متنوعة، حيث كن ينمن ملتف ات ببطانيات شبيهة تماماً بالتي كانت تلتف بها. كان هدو ؤهن غامراً إلى حد العدوى، مما جعل ماريّا تتكور في مقعدها وتستسلم لصوت المطر. عندما استيقظت كان الظلام قد حلَّ وتلاشت العاصفة التي استحالت إلى رذاذ جليدي. لم يكن لديها أدنى فكرة عن الوقت الذي قضته نائمة أو إلى أي مكان في العالم كانوا قادمين إليه.

سألت ماريّا جارتها التي بدت يقظة: " أين نحن ؟ ".

" ها قد وصلنا " ردت المرأة.

كان الباص قد بدأ يدخل ساحة مرصوفة بالحجارة لبناء ضخم شاحب اللون يبدو أنه دير قديم في غابة من الأشجار الضخمة جداً.

المسافرات اللواتي كان يمكن تبينهن بالكاد في ضوء المصباح الشاحب في الساحة ، جلسن بدون حراك إلى أن أمرتهن المرأة ذات المظهر العسكري بالخروج من الباص، مرفقة ذلك بتوجيهات أولية شبيهة بالمتبعة في مدرسة حضانة. كن جميعهن نساء ناضجات ، وكانت حركتهن كسولة جداً في الساحة نصف المضاءة حيث بد ون مثل صور في حلم. ماريّا التي كانت آخر من ترجل من الباص، ظنت أنهن راهبات. لكن بادرتها بعض الشكوك عندما رأت نساء عديدات كن يلبسن بذَّات ويتلقونهن على باب الباص، سحبن البطانيات ووضعنهن فوق رؤوسهن كي لا يتبللن بالمطر، ثم صففنهن في طابور مفرد ومن ثم أصدرن إليهن الأوامر بتصفيقات حاسمة مدروسة بدلاً من الكلام. قالت ماريّا وداعاً. وحاولت أن تعطي البطانية إلى المرأة التي كانت تشاركها المقعد، لكن المرأة أخبرتها أن تستعملها لكي تغطي رأسها وهي تعبر الساحة ثم تعيدها بعد ذلك إلى مكتب البواب.

سألت ماريّا: " هل يوجد هاتف ؟ ".

أجابت المرأة: " بالطبع، سيدلونك على مكانه ".

طلبت منها سيجارة أخرى وأعطتها ماريّا ما تبقى في العلبة الرطبة قائلة: " سوف تجف في الطريق". لوحت المرأة مودعة من باب ال حافلة وهي تقول حظاً سعيداً بصوت بدا أشبه بالصرخة. وانطلق الباص بعيداً بدون إعطائها فرصة لتقول شيئاً آخر.

بدأت ماريّا تجري نحو بوابة المبنى. حاولت القيمة أن توقفها بتصفيقة قوية من يديها، لكن كان عليها أن تلجأ إلى صرخة قاطعة: " قلت لك، توقفي ". نظرت ماريّا من تحت البطانية ورأت زوجاً من العيون الجليدية وسبابة تشير لها إشارة لا مفر منها لأن تصطف في الطابور. وقد أذعنت. حالما أصبحت داخل الردهة، انفصلت عن

المجموعة وسألت البواب عن مكان الهاتف. إحدى القيمات أعادتها إلى الصف مع تربيتةٍ خفيفة على كتفها وهي تقول بصوت شادنٍ:

" بهذا الاتجاه، أيتها الحسناء، الهاتف بهذا الاتجاه ".

مشت ماريّا والنساء الأخريات عبر موزع مظلم إلى أن وصلن إلى مهجع جماعي، حيث جمعت القيمات البطانيات وبدأن بتوزيع النساء على الأسرَّة. قيمة أخرى، بدت لماريّا بأنها أكثر إنسانية وأعلى رتبة، مشت محاذية للصف وهي تقارن بين قائمة من الأسماء وتلك المكتوبة على بطاقات من الورق المقوى والمدروزة على صدارات الوافدات الجديدات. وعندما وصلت إلى ماريّا تملكها الاندهاش لأنها لم تكن تحمل ما يثبت هويتها.

قالت لها ماريّا: " لقد أتيت كي أستخدم الهاتف فقط ".

شرحت وبإلحاح شديد بأن سيارتها تعطلت على الطريق العام. وزوجها الذي يؤدي الخدع السحرية في الحفلات كان ينتظرها في برشلونة، حيث أن لديهما ثلاثة مواعيد قبل حلول منتصف الليل، وقد أرادت أن تعلمه أنه لن يكون بمقدورها أن تكون هناك في الوقت المحدد لكي تكون برفقته. كانت الساعة قرابة السابعة، وعليه أن يغادر المنزل في غضون عشر دقائق وقد تخوفت من أن يلغي كل المواعيد بسبب تأخرها. بدا وكأن القيمة تصغي إليها بكل اهتمام.

سألتها: " وما اسمك ؟ ".

نطقت ماريّا اسمها مع تنهيدة ارتياح، لكن المرأة لم تجده بعد مراجعتها للقائمة مرات عديدة. واستجوبت قيمة أخرى بنبرة يطغى عليها الإنذار، لكن تلك المرأة التي لم يكن لديها ما تقوله اكتفت بأن هزت كتفيها.

قالت ماريّا: " لكني أتيت كي أستخدم الهاتف فقط ".

قالت لها الناظرة بعذوبة كان من الواضح أنها ليست من صميم قلبها وهي ترافقها إلى السرير: " بالتأكيد يا حلوتي. إذا كان ما تقولينه صحيحاً، فستتمكنين من مخابرة من تريدين، لكن ليس الآن، بل في الغد ".

عندئذٍ شيء ما دار في خلد ماريّا، لقد فهمت لماذا تحركت النساء اللواتي كن في الباص وكأنهن كن في حوض لأسماك الزينة. في الواقع كان قد دب فيهن الخدر نتيجة إعطائهن المسكنات؛ وذاك البناء الضخم المظلم ذ و الجدران الحجرية الثخينة والأدراج الباردة كان في الحقيقة مستشفى للنساء المريضات عقلياً. اندفعت من مهجع المنامة في ذعر، لكن قبل أن تتمكن من الوصول إلى الباب الرئيسي، أوقفتها قيمة ضخمة الجثة ترتدي مئزر ميكانيكي بصفعة من يدها القوية، وتركتها جامدة على الأرض بعد أن عصرتها بذراعها. ماريّا المشلولة بالخوف، نظرت إليها شزراً وقالت:

" اتركيني كُرمى لله، أقسم برحمة أمي أنني أتيت كي أستخدم الهاتف فقط ".

مجرد نظرة واحدة إلى وجهها كانت كافية لأن تعرف ماريّا أن أي قدر من الاستعطاف لن يؤثر في تلك المسعورة التي ترتدي الصدار والتي تدعى هيركولينا نظراً لقوتها الخارقة. كانت مسؤولة عن المهام الصعبة، وكانت نزيلتان قد خنقتا حتى الموت بذراعها الشبيه بذراع دب قطبي، ذاك الذراع الخبير في القتل عن طريق الخطأ. لقد انتهت نتيجة التحقيق إلى أن الحالة الأولى كانت غير مقصودة. أما الثانية فلم تنتهِ إلى نتيجة قاطعة بعدم مسؤوليتها، وأُنّبت هيركولينا وحُذِّرت بأنها في المرة القادمة ستخضع إلى تحقيق دقيق. والأقاويل المنتشرة تقول بأن هذه النعجة السوداء التي تنتمي إلى عائلة عريقة رفيعة، صاحبة تاريخ مريب

في الحوادث المشكوك فيها في مشافٍ عقلية عديدة في طول أسبانيا وعرضها.

كان عليهم أن يحقنوا ماريّا بمهدئ لكي يجعلوها تنام ليلتها الأولى. وعندما أيقظها الشوق للتدخين قبل حلول الفجر، وجدت نفسها مقيدة إلى القوائم المعدنية للسرير من رسغيها وكاحليها. صرخت، لكن لم يأتِ أحد إليها. في الصباح، وفي الوقت الذي لم يستطع زوجها أن يجد أي أثر لها في برشلونة، كان من الو اجب نقلها إلى حجرة العناية بالمرضى، لأنهم وجدوها فاقدة الشعور في مستنقع تعاستها.

عندما استعادت وعيها لم تعرف كم مر عليها من الوقت. لكن العالم بدا لها الآن كجنة من الحب. بجانب سريرها، مشى رجل كبير في السن ضخم كنصب تذكاري، ذو قدمين مسطحتين وابتسامة هادئة أعاد لماريّا الشعور بالابتهاج كونها على قيد الحياة وذلك بتمريرتين بارعتين من يده. لقد كان مدير المصح.

قبل أن تقول أي شيء له وحتى قبل أن تحييه، طلبت ماريّا منه سيجارة. أشعل واحدة وناولها إياها مع العلبة، والتي كانت مليئة تقريباً. لم تستطع ماريّا أن توقف الدمع في عينيها.

" الوقت مناسب الآن لأن تبكي كي تريحي قلبك " تحدث الطبيب بصوت خدر ثم أضاف: " الدمع هو أجدى العلاجات " .

أفضت ماريّا بما يدور في سريرة نفسها بدون خجل، و هذا ما لم تقدر عليه أبداً مع عشاقها العابرين في الوقت الممل الذي يتبع ممارسة الحب. وبينما كان الطبيب يصغي، كان يمسد شعرها بأصابعه، يسوي وسادتها كي تتنفس بسهولة، ويرشدها خلال متاهة شكوكها بحكمة ولطف لم تكن تحلم بهما. كان ذلك يحدث للمرة الأولى في حياتها: المعجزة بأن تُفهم من قبل رجل يصغي إليها من كل قلبه دون أن يأمل بمصاحبتها إلى الفراش مكافأة له. وفي نهاية ساعة طويلة، وعندما كانت

قد أفضت بما في أعماق روحها، طلبت أن تتحدث إلى زوجها على الهاتف.

وقف الطبيب محاطاً بالمهابة التي يضفيها عليه منصبه وقال وهو يربت على خديها بحنان لم يسبق لها أن شعرت بمثله من قبل: " لا، لم يحن الوقت يا أميرة، كل شيء في الوقت المناسب ". منحها مباركة أسقف عندما وصل الباب، وطلب منها أن تثق به، ثم اختفى وإلى الأبد.

بعد ظهيرة اليوم نفسه قُبِلت ماريّا في المأوى مع رقم تسلسلي مشفوعاً ببعض الملاحظات السطحية بخصوص الغموض حول المكان الذي قدمت منه والشكوك المتعلقة بهويتها. وعلى الهامش كتب المدير تخميناً بخط يده: " مشوشة التفكير ".

كما تنبأت ماريّا، فإن زوجها غادر شقتهما المتواضعة في منطقة هورتا بعد نصف ساعة تأخير عن جدول ارتباطاته الثلاثة. لقد كانت المرة الأولى التي يتأخر فيها في خلال سنتين من زواجهما المتسم بالانسجام الشديد والحرية المطلقة، وقد اعتقد أن سبب تأخرها عائد للأمطار الغزيرة التي نشرت الخراب في المقاطعة بأكملها في عطلة نهاية الأسبوع. وقبل أن يخرج علق ورقة على الباب شرح خط رحلته لتلك الليلة.

في الحفلة الأولى، حيث لبس جميع الأطفال زي الكنغر، حذف عرضه المفضل، السمكة غير المرئية، لأنه لم يستطع أن يؤديه دون عونها. موعده الثاني كان في دار امرأة مقعدة على كرسي متحرك في الثالثة والثمانين من عمرها، وتتباهى أنها احتفلت في كل من أعياد ميلادها الثلاثين السابقة مع ساحر مختلف. كان منزعجاً جداً لغياب ماريّا بحيث لم يستطع التركيز في أبسط الخدع. في ارتباطه الثالث، الذي يؤديه كل ليلة في مقهى على الرصيف، قام بأداء يعوزه الإلهام لمجموعة من السياح الذين لم يستطيعوا تصديق ما رأوه لأنهم لا يؤمنون

بالسحر. بعد كل عرض كان يتحدث بالهاتف إلى المنزل، وينتظر بيأس جواب ماريّا. بعد المخابرة الأخيرة لم يعد يستطيع السيطرة على ما ينتابه من أن شيئاً ما قد حدث لها.

في طريقه إلى المنزل، ومن داخل سيارة نقل صغيرة مغلقة عدِّلت من أجل أن يتم تأدية العروض العامة منها، رأى بهاء الربيع في أشجار النخيل على طول شارع باسيو دي غراسيا، وارتعد من التفكير المشؤوم حول الكيفية التي ستبدو عليها المدينة بدون ماريّا، وتلاشى آخر أمل له عندما وجد الورقة ما تزال معلقة على الباب. كان منزعجاً جداً لدرجة أنه نسي إطعام القطة.

انتبهت الآن وأنا أكتب أنني لم أعرف أبداً اسمه الحقيقي، لأننا في برشلونة نعرفه فقط باسمه الفني: الساحر ساتورنو. كان امر أً ذا شخصية غريبة وسماجة اجتماعية لا يمكن إصلاحها. لكن ماريّا كان لديها من اللباقة والسحر ما يعوض الذي ينقصه منهما ويزيد. لقد كانت هي التي قادته بيدها عبر مجتمع الخفايا العظيمة ذاك، حيث لن يحلم أي رجل بأن يخابر بعد منتصف الليل ليبحث عن زوجته. لكن ساتورنو فعلها حالاً بعد وصوله مفضلاً أن يتناسى تقاليد ذلك المجتمع. وهكذا فقد قرر في تلك الليلة أن يخابر إلى سرقسطة حيث أخبرته امرأة عجوز يغلبها النعاس وبدون مقدمات بأن ماريّا قد ودعتها بعد الغداء. نام حوالي الساعة قبيل حلول الفجر، وحلم حلماً مشوشاً، حيث رأى ماريّا تلبس ثياب عرس ممزقة مبقعة بالدماء. استيقظ وهو على يقين أثار فيه الذعر مفاده أن ماريّا قد تركته الآن إلى الأبد ليواجه هذا العالم الوسيع بدونها.

كانت قد هجرت ثلاثة رجال، بمن فيهم هو، في السنوات الخمس الماضية. فقد تركته في مدينة مكسيكو بعد ستة أشهر من لقا هما، حيث كانا يعيشان نوبات السعادة الناتجة عن ممارستهما المجنونة للحب في غرفة خادمة في مقاطعة أنزوريس. ذات صباح وبعد ليلة من تهتك لا

يوصف، ولت ماريّا الأدبار. لقد تركت وراءها كل متعلقاتها، حتى الخاتم من زواجها السابق، ومع رسالة تقول إنها كانت غير قادرة على احتمال ذلك الحب المتوحش. ظن ساتورنو أنها عادت إلى زوجها الأول، رفيقها في المدرسة الثانوية والذي تزوجته سراً وهي ما تزال قاصرة ثم هجرته إلى رجل آخر بعد عامين خاليين من الحب. لكنه كان مخطئ الظن: فقد ذهبت إلى منزل والديها، ول حق بها ساتورنو لكي يعيدها مهما كان الثمن. كان التماسه لها غير مشروط، لقد صنع من الوعود أكثر مما بإمكانه أن يفي بكثير. لكنه ووجه بقرار لا يمكن هزيمته. قالت له: " هناك أشكال من الحب قصيرة الأمد وهناك الطويلة " ثم اختتمت وبلا شفقة: " لقد كان ذلك حباً من الشكل القصير". أجبره عنادها أن يعترف بالهزيمة، لكن في الساعات الأولى من صبيحة يوم عيد القديسين، وعندما وصل عائداً إلى بيته بعد حوالي عام من النسيان المتعمد، وجدها نائمة على أريكة غرفة المعيشة وبجانبها تاج من الأزهار البرتقالية وذيل طويل من حرير التول مما تلبسه عروس بتول.

أخبرته ماريّا بالحقيقة. أن خطيبها الجديد، وهو أرمل من دون أولاد يعيش حياة مستقرة، وذو نية لأن يتزوج زواجاً كاثوليكياً يستمر إلى الأبد، قد هجرها وهي تلبس ثوب الزفاف وتنتظر على مذبح الكنيسة. قرر والدها أن يواصلا مراسم الاستقبال على كل حال، وتظاهرت بمشاركتها لهم في ذلك. رقصت، غنت، وشاركت فرقة المرياتشي في الرقص والتطواف، شربت الكثير، وغادرت في منتصف الليل وهي في حالة مزعجة من الندم المتأخر لتلتقي ساتورنو.

لم يكن في المنزل، لكنها وجدت المفاتيح في أصيص الأزهار في الردهة، حيث كانا يخبـئانها دائماً. الآن أضحت هي من استسلم بدون شروط. سألت نفسها: " لكم كانت طويلة تلك المدة ". ثم أجابت ببيت

من الشعر لفينيكيوس دي مورايس" الحب خالد بقدر ما يدوم ". وبعد سنتين أخريين كان ما يزال خالداً.

بدت ماريّا وكأنها بدأت بالنضوج: تخلت عن أحلامها بأن تصبح ممثلة، وكرست نفسها له، سواء في العمل أو في الفراش. في نهاية السنة الماضية حضرا مؤتمر السحرة في بيربيغنان، وفي طريقهما إلى المنزل زارا برشلونة للمرة الأولى. أحباها كثيراً وما زالا يعيشان فيها منذ ثمانية أشهر، وقد راقت لهما كثيراً حيث اشتريا شقة في منطقة الريف الكاتالوني المجاور لهورتا. كانت منطقة صاخبة ولم يكن هناك بواب للبناية، لكن كان يوجد فقط غرفة تتسع لعائلة تزيد عن خمسة أولاد. كانت سعادتهما حلماً لأي كان، إلى أن جاءت عطلة نهاية الأسبوع تلك عندما استأجرت سيارة وذهبت لتزور أقارب لها في سرقسطة، واعدة إياه أن تعود في السابعة يوم الاثنين. وحتى حلول فجر الخميس لم يكن قد عرف شيئاً عنها بعد.

في يوم الاثنين من الأسبوع التالي، اتصلت شركة التأمين المسؤولة عن السيارة المستأجرة وسألت عن ماريّا. قال ساتورنو: " لا أعرف عنها شيئاً، ابحثوا عنها في سرقسطة " وأنزل السماعة. بعد أسبوع جاء ضابط شرطة إلى المنزل ليقول أن السيارة قد وجدت، منهوبة ومجردة من الأثاث، على طريق فرعي يفضي إلى قادش، يبعد حوالي تسعمائة كيلومتر عن المكان الذي تركتها فيه ماريّا. أراد الضابط أن يعرف إن كانت تملك معلومات إضافية فيما يخص عملية السرقة. كان ساتورنو يطعم القطة، ولم يرفع عينيه وهو يخبره وبصراحة أن الشرطة يجب ألا تضيع الوقت لأن زوجته تركته ولا يعرف إلى أين ذهبت أو مع من ذهبت. كان اقتناعه بذلك قوياً لدرجة أن الضابط شعر بالإحراج واعتذر لسؤاله، واعتبرا بأن القضية منتهية.

حالة الشك بأن ماريّا يمكن أن تهجر ساتورنو ثانية هاجمت ساتورنو في عيد الفصح في كاداكيس، حيث دعتهما روزا ريغاس ليمارسوا الإبحار بالزوارق الشراعية هناك. على الكورنيش البحري كان البار القذر المزدحم لجماعة " اليسار المقدس " ، في فترة أفول الفرانكونية ، حيث عشرون من أصحابهم كانوا قد انحشروا بعضهم ببعضهم الآخر حول واحدة من تلك الطاولات من الحديد المشغول التي تتسع لستة فقط. بعد أن دخنت علبة السجائر الثانية لذلك اليوم، استنفذت ماريّا أعواد الثقاب. ذراع نحيفة تعلوها الأوبار يحيطها سوار روماني برونزي شقت طريقها خلال الحشد الصاخب على الطاولة وناولتها شعلة. قالت شكراً من دون أن تنظر إلى الشخص الذي كانت تشكره، لكن الساحر ساتورنو رآه – مراهقاً وسيماً حليق الوجه شاحباً كالموت، وذا شعر طويل مربوط يصل إلى خصره. الألواح الزجاجية للبار تتحمل بالكاد ضراوة رياح الترامونتانا الربيعية، ومع ذلك فقد لبس فقط نوعاً من بيجامات المشي المصنوعة من القطن الطبيعي وخُفَّي فلاح.

لم يرياه ثانية حتى أواخر الخريف في مطعم للأكلات البحرية في لابارشلونيتا، يلبس نفس البدلة، وقد جعل شعره بشكل جديلة طويلة بدلاً من ربطه. حياهما كليهما وكأنهما كانا من الأصدقاء القدامى والطريقة التي قبَّل بها ماريّا، وطريقة تقبيل ماريّا له بالمقابل صعقت ساتورنو، وزرعت لديه الشك بأنهما كانا يتلاقيان في الخفاء. بعد عدة أيام أخرى صادف ورأى اسماً جديداً ورقم هاتف جديد كانت ماريّا قد كتبته في دفتر الهواتف المنزلي، وقد أفشى له استبصار الغيرة الذي لا يرحم كنه الرابط بينهما. وخلفية هذا المتطفل كانت البرهان النهائي: فقد كان شاباً في الثانية والعشرين، والولد الوحيد لعائلة ثرية، وكان يعمل كفني ديكور وزخرفة لواجهات المحلات المنسجمة مع الزي السائد، و له شهرة خفيفة

كمخنث، وسمعة رديئة لها ما يبررها كمرفه مدفوع الأجر عن النساء المتزوجات. لكن ساتورنو نجح في كبح جماح نفسه حتى الليلة التي لم تعد فيها ماريّا إلى المنزل. وعند ذلك بدأ الاتصال برقم الهاتف مثار الشك كل يوم من الساعة السادسة صباحاً وحتى قبيل بزوغ فجر اليوم التالي، كان يتصل به كل ساعتين أو ثلاثة في البداية، وبعد ذلك كلما كان قريباً من الهاتف. وفي الحقيقة فإن عدم رد أحد كان قد أجج عذابات ساتورنو.

في اليوم الرابع رفعت الهاتف امرأة أندلسية كانت موجودة هناك وردت: " السيد مسافر بعيداً " قالت ذلك بغموض كان كافياً لدفعه إلى حافة الجنون. لم يستطع منع نفسه من إغراء السؤال إن كانت السينيوريتا ماريّا هناك.

" لا أحد يدعى ماريّا يسكن هنا " أجابته المرأة بذلك ثم أضافت: " السيد رجل أعزب ".

أجابها: " أنا أعرف، هي لا تسكن هناك، لكن أحياناً تأتي للزيارة، أليس كذلك ؟ ".

بدا الانزعاج على المرأة وقالت:

" من يكون هذا ؟ ".

أنزل ساتورنو السماعة، إنكار المرأة بدا وكأنه برهان آخر لما لم يعد بالنسبة له مجرد شك بل حقيقة متقدة. فقد السيطرة على نفسه. وفي الأيام التي تلت اتصل بكل من يعرفه في برشلونة، وبترتيب الفبائي. لم يتمكن أحد من إخباره شيئاً، لكن كل مكالمة كانت تعمق من تعاسته، و نوبات غيرته أصبحت مشهورة ما بين بومات الليل غير التائبات في جماعة اليسار المقدس، اللواتي تجاوبن مع كل أنواع الدعابة والسخرية التي يمكن أن تزيد من معاناته. عند ذلك فقط أدرك مدى وحدته في تلك المدينة المجنونة، العصية على الفهم، حيث لن يكون سعيداً أبداً. عند

الفجر وبعد أن أطعم القطة، قرر أن يكون متحجر القلب وينسى ماريّا ليتجنب نهاية بدأت تحدق به.

على الرغم من مرور شهرين، لم تستطع ماريّا أن تكيف نفسها مع الحياة في المصح. بقيت على قيد الحياة بأكلها وبدون شهية جعالة الطعام المقدمة لها التي كانت تأكلها بأدوات مائدة فضية معلقة إلى طاولة من الخشب غير المصقول، عيناها مثبتتان على صورة حجرية للجنرال فرانكو والتي تتصدر غرفة الطعام القروسطية الكئيبة. في البداية قاومت أداء ساعات الصلاة اليومية السبع بترتيبها الروتيني والذي يتم دون إعمال تفكير المتضمنة صلوات منتصف الليل، تسابيح الضحى، صلوات المساء، بالإضافة إلى الطقوس الكنسية الأخرى والتي تشغل معظم الوقت. رفضت أن تلعب الكرة في ساحة الاستجمام، أو أن تشكل الزهور الاصطناعية في المشغل، حيث تلازم مجموعة من النزيلات يدأبن على الحضور باجتهاد مسعور. لكن بعد الأسبوع الثالث بدأت شيئاً فشيئاً بالمشاركة في حياة الدير. وبرغم كل هذا، فقد قال الأطباء أن كلاً منهن قد بدأت بالطريقة نفسها، وعاجلاً أم آجلاً أصبحت مندمجة في حياة الجماعة.

نقص السجائر الذي تمت معالجته في الأيام القليلة الأولى عن طريق القيمة التي كانت تبيعهن إياها بسعر الذهب، عاد لينغصها ثانيةً بعد أن صرفت النقود القليلة التي كانت بحوزتها. بعد ذلك وجدت ضالتها في سجائر الصحف والتي كانت تصنعها بعض النزيلات من أعقاب السجائر التي يلتقطنها من سلة المهملات، فرغبتها المفرطة في التدخين وصلت إلى حد الهوس شأنها شأن تعلقها بالهاتف. بعد ذلك، صارت توفر لها البيزيتات القليلة التي تكسبها من شغل الأزهار الاصطناعية سلوى سريعة الزوال.

الأقسى من ذلك كله كان وحدتها خلال الليل، الكثير من النزيلات يستلقين يقظات في شبه عتمة كما تفعل هي، لا يتجرأن فعل أي شيء لأن القيمة الليلية الموجودة عند الباب الثقيل المزود بسلسلة وقفل لزيادة الحيطة كانت يقظة دوماً. وعلى كل حال، ففي إحدى الأمسيات وقد أنهكها الأسى، سألت ماريّا بصوت خفيض بحيث يكفي لأن تسمعه المرأة في السرير التالي:

" أين نحن ؟ ".

أجابها صوت جارتها الصافي الكئيب:

" في حفرة من جهنم " .

" إنهم يقولون إن هذه بلاد المستنقعات " أجابت أخرى. صوت بعيد تردد صداه في أرجاء مهجع المنامة: " ولا ريب أن هذا صحيحاً، لأننا في الصيف وعندما يكون القمر في السماء، يمكننا سماع نباح الكلاب على شاطئ البحر ".

جرت السلسلة عبر الأقفال محدثة صوتاً شبيهاً بمرساة سفينة الفيلون الشراعية وانفتح الباب. وصيتهم عديمة الرحمة، المخلوق الوحيد الذي بدا ذا حياة في صمت تلك اللحظات، بدأت تمشي من طرف إلى آخر داخل المهجع. استولى الرعب على ماريّا وكانت الوحيدة التي تعرف السبب.

منذ الأسبوع الأول في المصح، بدأت القيمة الليلية تقترح و بشكل صريح على أن تنام ماريّا معها في غرفة الحراسة. بدأت بأسلوب عملياتي مادي: أن تقايض الحب بالسجائر، أو الشوكولا أو أي شيء آخر ترغبه. " سوف تنالين كل شيء " قالت القيمة ذلك وأضافت بارتعاش: " سوف تكونين الملكة ". عندما رفضت ماريّا، غيرت القيمة تكتيكها، فكانت تترك رسائل حب صغيرة تحت وسادتها ، في جيوب ثوبها، وفي الأماكن التي لا تخطر على بال. كانت رسائل مليئة بإلحاح

يسحق القلب ويثير الحجر. وفي ليلة " واقعة المهجع "، كان قد مر أكثر من شهر وبدا أنها استسلمت للهزيمة.

عندما تأكدت القيمة بأن النزيلات الأخريات كن نائمات، اقتربت من سرير ماريّا وهمست بكل أنواع الفحش الرقيق في أذنيها وهي تقبل وجهها. تشنجت رقبتها رعباً، وتصلب ذراعاها، وغلب الإنهاك ركبتيها. بعدئذٍ، وقد اعتقدت بأن شعور ماريّا بالشلل ليس مردُّه الخوف بل المطاوعة، تجرأت لأن تذهب أبعد من ذلك. عند ذلك سددت لها ماريّا ضربة بقفا يدها كانت كفيلة لدفعها لتصطدم بالسرير المجاور. وقفت القيمة الحانقة وسط الجلبة التي صنعتها النزيلات والمهتاجات. وصرخت ماريّا:

" أنت عاهرة، سوف نتعفن كلنا معاً في حفرة جهنم هذه وسأدعك تجنّين ".

أتى الصيف بدون تحذير مسبق في الأحد الأول من حزيران، متطلباً ذلك إجراءات طارئة لأنه خلال القداس فإن النزيلات المتصببات عرقاً يبدأن بخلع عباءاتهن الصوفية الثخينة المشغولة كيفما اتفق. راقبت ماريّا وهي تشعر ببعض التسلية مشهد النزيلات العاريات المطاردات في الموزعات جيئة وذهاباً من قبل القيمات وكأنهن صيصان عميان. وفي خضم ذلك الهياج حاولت ماريّا أن تحمي نفسها من صفعات وحشية، ووجدت نفسها بطريقة ما وحيدة في المكتب الفارغ، حيث كان لرنين الهاتف المتواصل وقعاً مغرياً. أجابت ماريّا وبدون تفكير وسمعت صوتاً مبتسماً يأتي من بعيد حيث وجدت متعة كبيرة في تقليد خدمة الوقت لشركة الهاتف.

" الوقت الآن هو الساعة الخامسة والأربعون، اثنتان وتسعون دقيقة ومائة وسبع ثوان " قالت ماريّا بتهكم ثم اختتمت:

" إلى الجحيم ".

علَّقت السماعة، وهي تشعر ببعض المتعة. وكانت على وشك أن تغادر عندما انتبهت إلى أنه متاح لها فرصة فريدة لأن تفر بعيداً.
ضغطت ستة أرقام، بتوتر شديد وتسرع كبير حيث لم تكن متأكدة بأنه رقم منزلها. انتظرت، أسرع خفقان قلبها، وسمعت الصوت الحزين الحاد لرنة مألوفة، رنة، رنتين، ثلاثة وفي النهاية سمعت صوت الرجل الذي تحبه والذي يقبع في البيت بدونها.

" مرحباً " .

انتظرت لتتخلص من غصة في حنجرتها وتنهدت قائلة :

" حبيبي ، حبيب قلبي ".

كانت الدموع قد غلبتها. وفي النهاية الأخرى من الخط كان هناك صمت مرعب، مطبق، وأتى صوت يحترق غيرة ولفظ كلمة واحدة:

" عاهرة ! "

وأنزل السماعة بقوة.

تلك الليلة وفي نوبة غضب، سحبت ماريّا الصورة الحجرية للجنرال في حجرة الطعام إلى الأسفل، وضربتها بكل قوة على النافذة ذات الزجاج الملون والتي تقود إلى الحديقة، ورمت بنفسها على الأرضية وهي مضرجة بالدماء. كان ما يزال لديها هياجاً يكفي ليقاوم ضربات القيمات اللواتي حاولن بلا طائل كبح جماحها، إلى أن رأت هيركولينا وهي تقف في المدخل طاوية ذراعيها وهي تحدق فيها. أعلنت ماريّا الاستسلام.
ومع ذلك فقد جررنها إلى جناح النزيلات المشاكسات، لطخنها بخرطوم مياه يلفظ ماء جليدياً، وحقنَّ زيت التربنتين في رجليها. الانتفاخ الناتج منعها من المشي، وأدركت ماريّا أنه لم يتبقَ هناك شيء يمكن عمله للفرار من جهنم تلك. في الأسبوع التالي وعندما كانت في آخر المهجع، مشت على أطراف أصابعها إلى الغرفة الليلية للقيمة وقرعت على الباب.

السعر الذي طلبته ماريّا مقدماً كان أن ترسل القيمة رسالة إلى زوجها. وافقت القيمة على شرط أن يتم الحفاظ على السرية الكاملة لعلاقتهما، وأشارت بسبابة لا ترحم إليها:

" إذا حدث واكتشفوا ذلك ، فستكون نهايتك ".

وهكذا في يوم السبت التالي توجه الساحر ساتورنو إلى مصحِّ النساء بسيارة السيرك المغلقة التي جهزها لكي يحتفل بعودة ماريّا. استقبله المدير بنفسه في مكتبه الذي كان نظيفاً ومرتباً على أكمل وجه وكأنه بارجة حربية، وقد جهز تقريراً مرضيّاً عن حالة زوجته. لا أحد يعرف من أين أتت، أو كيف ومتى، حيث المعلومات الأولى المتعلقة بوصولها كانت استمارة الدخول الرسمية التي أملاها بعد مقابلته إياها. التحقيقات بدأت في نفس اليوم وكانت النتيجة غير حاسمة. وعلى كل حال فالذي أثار اهتمام المدير هو كيف أن ساتورنو قد عرف مكان وجود زوجته.

قال ساتورنو لكي يحمي القيمة:

شركة التأمين هي من أخبرتني.

هز المدير رأسه مقتنعاً بالجواب وقال: " لا أعرف كيف تحتال شركات التأمين لتعرف كل شيء ". نظر في الملف الملقى على مكتبه المتقشف واختتم كلامه قائلاً:

" الشيء الأكيد الوحيد هو خطورة حالتها " .

كان قد قرر أن يعطي أمراً بالزيارة مع اتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية إذا وعد الساحر ساتورنو، ولمصلحة زوجته، بأن يلتزم وبدون أي استفسار بقواعد التصرف التي سيشار إليه أن يقوم بها. وقبل كل شيء عدم الإشارة إلى الكيفية التي كان يتعامل معها بها، لكي يتجنب معاودة نوبات الهياج الشديد التي أصبحت شيئاً فشيئاً أكثر تكراراً وأكثر خطراً.

قال ساتورنو: " كم هذا غريب، كانت دائماً سريعة الغضب، لكنها تضبط نفسها في الحال ".

نظر إليه الطبيب نظرة رجل عارف وقال: " هناك الكثير من أنماط السلوك التي تبقى كامنة لسنوات طويلة، وبعد ذلك تنفجر يوماً ما " ثم أضاف: " على كل حال، فمن حسن الحظ أن ذلك حصل عندنا، لأننا متخصصون في الحالات التي تتطلب مراقبة صارمة ". بعد ذلك نبهه حول هوس ماريّا الشديد بالهاتف وقال: " عليك تسليتها".

أجاب ساتورنو بروح مرحة: " لا تقلق حول ذلك يا دكتور فذلك اختصاصي ".

في غرفة الزيارة، وهي مزيج من زنزانة سجن وكرسي اعتراف، و كانت سابقاً غرفة نقاش لرهبان الدير ، لم يسبب دخول ساتورنو دفقة السعادة التي كان يتوقعها كلاهما. جلست ماريّا في منتصف الغرفة بقرب طاولة صغيرة بجانبها كرسيين وعليها أصيص زهر فارغ. كان واضحاً أنها قد حضَّرت نفسها للمغادرة بمعطفها الذي بلون الفراولة والجدير بالرثاء وزوج الأحذية الزريّ الذي أعطي إليها بدافع الإحسان. جلست هيركولينا في زاوية، وبشكل تكاد لا تُر ى من الآخرين، وذراعاها مطويتان. لم تتحرك ماريّا عندما رأت زوجها وهو يدخل، ووجهها الذي ما تزال بادية عليه علائم زجاج النافذة المهشمة، لم يبد أي انفعال. تبادلا قُبَلاً رتيبة وسألها زوجها:

" كيف تشعرين " .

أجابت: " أنا سعيدة أنك أتيت أخيراً إلى هنا يا حبيبي، فهنا الموت بعينه ".

لم يكن لديهما متسع من الوقت ليجلسا معاً . أخبرته ماريّا وهي غارقة في الدموع حول تعاسات الدير، وحشية القيمات، الطعام الذي

تعافه الكلاب، والليالي التي لا نهاية لها حيث يمنعها الرعب من إغلاق عينيها.

" لا أعرف بالضبط كم من الأيام قضيتها هنا، أو كم من الشهور أو السنين، كل ما أعرفه أن كل يوم كان أسوأ من سابقه " ثم تنهدت من أعماق روحها و تابعت: " لا أعتقد أنني سأعود أبداً إلى سابق عهدي ".

" لقد انتهى كل شيء الآن " قال لها ذلك وهو يربت على الندب الحديثة على وجهها ببنان أصابعه ثم أضاف: " سوف آتي كل يوم سبت وسأكثف زياراتي أكثر إذا سمح المدير بذلك. سوف ترين، فكل شيء سينقلب ويصبح رائعاً ".

تسمرت عليه نظرات عينيها الخائفتان. حاول ساتورنو استخدام براعته كممثل. فصار يحدثها بنغمة صبيانية متشدقاً بأكاذيب كبرى عن تقرير بلْخبار حسنة حول تكهنات الأطباء. واختتم قائلاً: " هذا يعني أنك ما زلت تحتاجين خمسة أيام أخرى لكي تتعافين بشكل كامل". فهمت ماريّا الحقيقة وقالت مصعوقة:

" كُرمى لله يا حبيبي، لا تقل لي أنك أنت أيضاً تعتقد بأنني مخبولة ! " .

" يا للأشياء التي تفكرين بها! " قال ذلك محاولاً أن يضحك ثم أضاف: " لكن في الواقع سوف يكون من الأفضل للجميع فيما إذا مكثت هنا لفترة في شروط أفضل بالطبع ".

قالت ماريّا: " لكني كنت قد أخبرتك للتو بأنني أتيت إلى هنا كي استخدم الهاتف فقط ! ".

لم يعرف كيف يتعامل مع هوسها المرعب ذاك. نظر إلى هيركولينا، والتي انتهزت الفرصة لتشير إلى ساعتها كدلالة على أن وقت الزيارة قد انتهى. لم تنتبه ماريّا للإشارة وعندما التفتت وراءها رأت توتر هيركولينا وهي تستعد لهجوم وشيك. عندئذٍ تمسكت برقبة زوجها وهي

تصرخ كامرأة مجنونة فعلاً. حرر نفسه منها بقدر ما استطاع أن يحشد من الحب، وتركها تحت رحمة هيركولينا، والتي هاجمتها من الخلف من دون أن تعطي ماريّا فرصة للتصرف، لوت ذراعيها بيدها اليسرى، وضعت الذراع الحديدية الأخرى حول حنجرتها، وصرخت بالساحر ساتورنو:

" أخرج من هنا ! ".

وهرب ساتورنو مرتعباً .

لكن في يوم السبت التالي. وعندما كان قد تعافى من صدمة الزيارة. عاد إلى المصح بصحبة القطة، التي ألبسها زياً مطابقاً لما يلبسه هو: رداء ضيقاً باللونين الأحمر والأصفر مماثلاً لزي ليوتاردو العظيم، قبعة عالية، ورداءً خارجياً مدوَّماً بدا وكأنه صنع من أجل الطيران. قاد عربة السيرك المغلقة في ساحة الدير، وأدى هناك عرضاً مذهلاً استمر لثلاثة ساعات تقريباً، حيث تمتعت النزيلات برؤيته من على الشرفات مصاحبات العرض بصرخات صاخبة وتصفيق في غير أوانه. كان الجميع هناك ما عدا ماريّا، التي لم ترفض أن تستقبل زوجها فحسب، بل حتى أنها لم تتفرج عليه من الشرفات. شعر ساتورنو بالجرح في صميم قلبه.

" إنه تصرف طبيعي في هذه الحالات " حاول الطبيب مواساته بذلك ثم أضاف: " إنها مرحلة وسوف تمر وتنقضي ".

لكنها لم تنقضِ أبداً. فبعد محاولات عديدة كثيرة لرؤية ماريّا ثانية، فعل ساتورنو كل ما يستطيع لكي تقبل رسالة منه، لكن كل ذلك كان عبثاً. لقد أعادتها له أربع مرات، غير مفتوحة وبدون تعليق. استسلم ساتورنو لكنه استمر بترك مؤونة من السجائر في مكتب البواب بدون أن يعرف فيما إذا كانت تصل ماريّا أم لا. إلى أن هزمه الواقع في نهاية الأمر.

لم يسمع أحد المزيد من أخباره عدا أنه تزوج ثانية وعاد إلى بلده الأصلي. و قبل أن يترك برشلونة وهب القطة الجائعة إلى صديقة عرضية له، والتي وعدته أن تأخذ سجائر إلى ماريّا. لكنها اختفت هي أيضاً. تذكرت روزا ريغاس بأنها رأتها في مخزن كورت أنجليز منذ حوالي اثنتي عشرة سنة خلت، بشعرها الحليق، وثوبها البرتقالي المميز لجماعة دينية شرقية، وكانت في المراحل الأخيرة من حملها. لقد أخبرت روزا أنها كانت تأخذ السجائر إلى ماريّا كلما تسنى لها ذلك، كما تؤمن بعض الحاجيات الطارئة لها. إلى أن جاء يوم ولم ترَ إلا خرائب المشفى، الذي هدم كونه ذكرى سيئة لتلك الأيام التعيسة. بدت ماريّا صافية التفكير على نحو جلي في زيارتها الأخيرة لها، وقد زاد وزنها قليلاً، و راضية للأمان المتوفر في الدير. كان ذلك أيضاً هو اليوم الذي أحضرت فيه القطة إلى ماريّا، لأنها كانت قد صرفت جميع النقود التي أعطاها إياها ساتورنو من أجل إطعامها.

نيسان 1978

أشباح شهر آب

وصلنا أريزو قبل الظهيرة بقليل، وقد قضينا أكثر من ساعتين ونحن نبحث عن القلعة التي تعود إلى عصر النهضة، والتي اشتراها الكاتب الفنزويلي ميغيل أوتيرو سيلفا في ذلك الركن الهادئ من الريف التوسكاني. كان يوم أحد صاخب لاهب في أوائل شهر آب، ولم يكن سهلاً أن تجد شخصاً يعرف شيئاً عنها في تلك الشوارع التي تعج بالسائحين. بعد العديد من المحاولات غير المجدية عدنا إلى السيارة وغادرنا المدينة من طريق تصطف على جانبيه أشجار السرو لكن بدون أية إشارة سير، وقد أخبرتنا امرأة ترعى الإوز هناك عن موقع القلعة وبكل دقة. قبل أن نقول لها وداعاً سألتنا فيما إذا كنا قد خططنا لأن ننام

هناك، وأجبناها بأننا ذاهب ون لتناول الغداء فقط، وأن ذلك هو القصد الأساسي من الزيارة.

" ذلك أمر حسن " قالت المرأة ثم أضافت: " لأن البيت مسكون بالأشباح ".

أنا وزوجتي اللذان كنا لا نعتقد بسرابات الظهيرة، ضحكنا على سذاجتها. لكنْ ولدانا البالغان السابعة والتاسعة من عمريهما، كانا مبتهجين لفكرة رؤية شبح وجهاً لوجه.

ميغيل أوتيرو سيلفا، الذي كان مضيفاً رائعاً وخبيراً ذواقاً في المآكل والخمور إضافة لكونه كاتباً جيداً، جهز غداءً لا ينسى ليكون في انتظارنا، ولأننا وصلنا متأخرين لم يكن لدينا من الوقت ما يكفي لرؤية ما في داخل القلعة قبل الجلوس على الغداء، لكن لم يكن هناك ما يدعو للخوف في مظهرها الخارجي، وقد تبددت كل هواجسنا لدى رؤيتنا المدينة كلها من على التراس المليء بالزهور حيث تناولنا الغداء. لقد كان من الصعب التصور أن كثيرين جداً من أصحاب النبوغ قد ولدوا في تلك التلة المزدحمة بالبيوت والتي تتسع بالكاد لتسعين ألف شخص. على كل حال، فإن ميغيل أوتيرو سيلفا قال بمرحه الكاريبي المعتاد أن أياً منهم لم يكن المواطن الأكثر شهرة في أريزو ثم أعلن:

" الأعظم بين الجميع كان لودوفيكو ".

فقط هكذا وبدون ألقاب عائلية: لودوفيكو الراعي الأعظم للفنون والحروب، هو الذي بنى هذه القلعة الممثلة لبلواه، وحول من هو لودوفيكو كان يدور حديثنا خلال وقت الغداء كله. لقد أخبرنا عن قوة لودوفيكو الجبارة، عن حبه المضطرب، وعن موته الرهيب. أخبرنا أيضاً أنه في لحظةٍ من لحظات جنون القلب طعن خليلته في الفراش حيث كانا قد مارسا فيه الحب للتو، وترك كلابه الشرسة الضارية لكي

تهاجمه، ولتحوله إلى نتف صغيرة. لقد أكد لنا وبكل جدية أنه بعد حلول منتصف الليل فإن لودوفيكو يمشي في عتمة المنزل محاولاً أن يجد الأمان في مطهر حبه.

كانت القلعة بالفعل ضخمة وكئيبة، لكن في وضح النهار، ومعدتنا مليئة وقلبنا مطمئن، بدت حكاية ميغيل وكأنها واحدة أخرى من التسالي العديدة التي يمتع بها ضيوفه. بعد القيلولة وبدون أن نرى إشارة تنبئ بصحة ما يشاع، مشينا في أرجاء الغرف الاثنتين والثمانين والتي خضعت لشتى أنواع التبديل والتغيير من قبل المالكين المتعاقبين. كان ميغيل قد جدد الطابق الأول بأكمله وبنى غرفة نوم على الطراز الحديث ذات أرضية رخامية، ومجهزة بحمام ساونا، ومعدات للتمارين الرياضية، بالإضافة إلى تراس مزروع بالأزهار المتوهجة الألوان حيث كنا قد تناولنا الغداء. الطابق الثاني الذي كان الأكثر استخداماً على مدى القرون الماضية، يتألف من غرف تخلو من أية لمحة فنية تحتوي على أثاث يعود لفترات مختلفة وقد هجر وترك ليلاقي قدره، لكن في أعلى السطح وجدنا غرفة محفوظة لم تمس، حيث نسي الزمن أن يزورها. تلك كانت غرفة نوم لودوفيكو.

كانت لحظة آسرة. هناك ينتصب السرير، ستائره مطرزة بخيوط من ذهب، غطاؤه المنقوش عليه أطفال المعجزات ذي الزركش القيطاني ما يزال ملطخاً بالدم المتيبس للمحبوبة القربان. كان هناك أيضاً الموقد ذ و الرماد الجليدي وجذعة الخشب الأخيرة التي أصبحت شبيهة بالحجر، الخزانة الكبيرة المليئة بالأسلحة، وصورة زيتية ذات إطار ذهبي لفارس مستغرق في التفكير، وقد رسمت من قبل أستاذ فلورنسي لم يكن يملك ما يكفي من الحظ ليصبح مشهوراً في عصره. لكن أكثر ما جذب اهتمامي،

على كل حال. كانت الرائحة الزكية لنبتات توت العلّيق النضرة والتي كانت فروعها تتدلى في أرجاء غرفة النوم بكاملها.

كانت أيام الصيف طويلة وهادئة في توسكانا، وكان خط الأفق يلازم مكانه حتى التاسعة مساءً. عندما انتهينا من التجوال في أرجاء القلعة كانت الساعة قد تخطت الخامسة، لكن ميغيل أصر على أن نصحبه لنرى اللوحات الجصية التي رسمها بيروديلا فرانشيسكا في كنيسة سان فرانسيسكو.

بعدئذٍ تمهلنا عند مقهى تحت الأشجار في الساحة، وعندما عدنا لنأخذ حقائبنا وجدنا وجبة في انتظارنا. وهكذا بقينا لتناول العشاء.

بينما كنا نأكل تحت السماء البنفسجية والتي كانت تلمع فيها نجمة وحيدة، كان الأولاد يأخذون مشاعل كهربائية من المطبخ ويبدؤون رحلة لاكتشاف ظلمات الطوابق العلوية. كان بمقدورنا أن نسمع من على الطاولة عدو الجياد البرية على الأدراج، والصرير النائح للأبواب، والصرخات الفرحة التي تنادي على لودوفيكو في الغرف الكئيبة. لقد كانوا هم أصحاب الفكرة المزعجة المطالبة بالنوم هناك. ميغيل أوتيرو سيلفا المبتهج بذلك أيَّدهم، ونحن لم تكن لدينا الشجاعة الاجتماعية الكافية لنقول لهم لا.

على النقيض من المخاوف التي كانت قد اعترتنا، فقد نمنا على نحو حسن جداً، نمت أنا وزوجتي في غرفة نوم في الطابق الأول، والأطفال في غرفة مجاورة لنا. كلا الغرفتين كانتا قد حُدِّثتا لتلائما الذوق العصري ولم يكن هناك ما يدعو للكآبة فيما يخصهما. بينما كنت أحاول أن أغفو، عددت الضربات المؤرقة الإثنتي عشرة للساعة ذات الرقاص في قاعة الاستقبال، وتذكرت التحذير المخيف للمرأة التي كانت ترعى الإوز. لكننا كنا متعبين حيث غلبنا حالاً نوم عميق متواصل، واستيقظت

بعد السابعة بتأثير الشمس الساطعة التي كانت تشع عبر الكرمة المتعرشة على النافذة. بجانبي زوجتي التي كانت تبحر في بحر هادئ من البراءة. قلت لنفسي: " أية حماقة أن أواصل الاعتقاد بالأشباح في هذه الأيام وهذا العصر ". فقط عند ذلك دبت فيّ الرعشة نتيجة رائحة العليق النضير، ورأيت الموقد برماده البارد والجذعة الأخيرة التي تحولت إلى ما يشبه الحجر، وصورة الفارس الكئيب في الإطار الذهبي وهو ينظر إلينا من مسافة ثلاثة قرون. فنحن لم نكن في غرفة النوم في الطابق الأول حيث غلبنا النوم في الليلة الماضية، لكن في غرفة نوم لودوفيكو، تحت الظُلَّة والستائر المغبرة والملاءات المبقعة بدم ما يزال دافئاً على سريره الملعون .

تشرين الأول 1980

ماريا دوز برازيريس

كان الرجل الذي يتبع لمؤسسة دفن الموتى دقيقاً جداً في موعده حيث كانت ماريا دوز برازيريس عند وصوله ما تزال في ثوب النوم، وشعرها ملفوفاً بلفافات التجعيد، وكانت تعتقد أنه مازال لديها من الوقت لتضع وردة حمراء خلف أذنها لكي لا تبدو غير جذابة حيث كانت تشعر بنفسها أنها كذلك. وقد ندمت أكثر لمظهرها ذاك عندما فتحت الباب ورأت بأن الرجل لم يكن كاتب عدل ذ ا طلة حزينة كما توقعت بأن كل تجار الوفيات يجب أن يكونوا، لكنه كان شاباً حيياً يلبس جاكيتاً ذات تقاطيع مربعة وربطة عنق عليها صور طيور بألوان مختلفة. لم يكن يلبس معطفاً برغم أن ربيع برشلونة لا يمكن التنبؤ به، وأمطاره العاصفة

المزعجة تجعله أقل احتمالاً من الصيف. شعرت ماريا دوز برازيريس بارتباك نادر وهي التي كانت قد استقبلت الكثير من الرجال. لقد أصبح عمرها ستاً وسبعين عاماً تماماً، وكانت تتصور بأنها ستموت قبل عيد الميلاد. لكن وبرغم هذا فقد كانت على وشك أن تغلق الباب وتطلب من مندوب مبيعات الجنائز أن ينتظر للحظات لكي تبدل ثيابها وتستقبله بالشكل الذي يستحق. عندئذٍ خطر لها أنه سوف يتجمد برداً على بسطية الدرج المظلمة فدعته أن يدخل قائلة:

" أرجوك اعذرني لمظهري الشنيع " ثم أضافت: " لكنني عشت في كاتالونيا لما ينوف عن خمسين سنة، وهذه هي المرة الأولى التي يأتي فيها شخص في موعده تماماً ".

كانت تتكلم بكاتالونية فصيحة، وبالصفاء القديم، ومع ذلك يمكن للمرء سماع موسيقى لغتها البرتغالية المنسية. وبرغم عمرها وخصلات الشعر الأبيض، كانت ما تزال خلاسية هيفاء مفعمة بالحيوية بشعرها القاسي الشبيه بالأسلاك وعينيها الصفراوين عديمتي الرحمة، واللتين فقدتا توقهما للرجال منذ زمن طويل مضى. لم يبد مندوب الشركة المبهور بأضواء الشارع أي تعليق، لكنه جفف كعب حذائه على ممسحة الأرجل القنبية وقبَّل يدها مرفقاً ذلك بانحناءة منه.

قالت له ماريا دوز برازيريس وهي تضحك ضحكة عنيفة كالبَرَد: " إنك تشبه الرجال في أيام شبابي، تفضل بالجلوس ".

على الرغم من أنه كان جديداً في عمله، فقد كان لديه فكرة وافية عن ظروفه، حيث أنه لم يكن ليتوقع هذا النوع من الترحيب الاحتفالي في الساعة الثامنة صباحاً، وعلى الأخص من سيدة عجوز ذات محيا عديم الرحمة التي تبدو من النظرة الأولى كامرأة مجنونة هربت من الأمريكتين. وهكذا فقد بقي على بعد خطوة من الباب، لا يعرف ما

سيقول، بينما دفعت ماريا دوز برازيريس ستائر النوم الثقيلة إلى الخلف. وصل ضوء نيسان الواهن إلى زوايا الغرفة المثقلة بأشياء غير ذات أهمية، والتي بدت شبيهة بواجهة معرض تاجر تحف قديمة أكثر منها قاعة استقبال. الأشياء الموجودة هناك كانت قد وضعت بقصد الاستعمال اليومي – لم تكن بالكثيرة جداً لكنها لم تكن بالقليلة – وقد بدا أن كل واحدة منها قد وضعت في مكانها الطبيعي وكل ذلك تم بذوق رصين بحيث من الصعب أن تجد منزلاً قد عني بترتيبه أكثر منه حتى في مدينة قديمة مليئة بالأسرار مثل برشلونة.

قال لها: " اعذريني فقد أتيت إلى الباب غير المقصود ".

ردت عليه: " أتمنى لو كان ذلك صحيحاً لكن الموت لا يرتكب أخطاء ".

فتح المندوب على طاولة غرفة الطعام مخططاً مطوياً عدة طيات شبيهاً بخارطة بحرية، ويحتوي على قطاعات بألوان مختلفة وصلباناً كثيرة جداً وأرقاماً من كل لون. رأت ماريا دوز برازيريس أن ذلك كان المخطط الكامل للمقبرة الضخمة في مونتجويش، وراودها رعب قديم وهي تتذكر المقبرة في ميناؤس تحت أمطار تشرين الأول، عندما تشق حيوانات التابير طريقها بين قبور لا أسماء عليها وأضرحة المغامرين بنوافذها الزجاجية الملونة الفلورنسية الطراز . في ذات صباح، عندما كانت فتاة صغيرة جداً، أصبح الأمازون وقت الفيضان مستنقعاً هائلاً جالباً للاشمئزاز، ورأت في ساحة بيتها توابيت متكسرة عائمة وفيها قطع من أسمال وشعر وهي تتقدم من خلال الفرجات. تلك الذاكرة كانت هي السبب الذي جعلها تختار تلة مونتجويش كمكان إقامة أخير وليس مقبرة سان فيرجاسيو الصغيرة وهي الأكثر قرباً والأكثر شهرة.

قالت له: " أريد مكاناً لا يتعرض للفيضان أبداً " .

" حسناً، إنه هنا " قال لها المندوب ذلك وهو يشير إلى بقعة في الخريطة بمؤشر قابل للطي يحمله في جيبه كقلم الحبر. ثم أضاف: " لا يمكن لأي محيط في العالم أن يبلغ هذا الارتفاع ".

تفحصت بعناية تلك القطاعات الملونة حتى وجدت المدخل الرئيسي والقبور الثلاثة المتجاورة المغفلة الاسم حيث قتل بونافيتورا دوروتي في الحرب الأهلية، ثم دفن بجانبه زعيمان فوضويان آخران. وكل مساء يكتب شخص ما أسماءهم على الأضرحة الشاحبة، يكتبها بقلم رصاص، بفرشاة، بقلم فحم، بقلم حواجب أو بطلاء الأظافر، وكل صباح يقوم الحارس بمسحها بحيث لا يستطيع أحد أن يحدد من الذي يستلقي تحت أي من البلاطات البكماء. حضرت ماريا دوز برازيريس جنازة دوروتي التي كانت الجنازة الأكثر حزناً والأكثر صخباً في برشلونة على الإطلاق، وقد أرادت أن ترتاح في قبر بجانبه. لكن ذلك لم يكن متوفراً وأذعنت لما هو ممكن وقالت: " لكن لدي شرطاً، وهو أن لا تحشرني في واحدة من حجرات الخمس سنوات تلك التي أشبه ما تكون بعلبة بريد ". بعدئذٍ تذكرت مطلبها الأساسي فاختتمت حديثها: " والأهم من ذلك كله فأنا أريد أن أدفن وأنا مستلقية ". حيث أنه بسبب الترويج الشديد للقبور المسبقة الدفع سرت إشاعة بأنهم يقيمون مدافن عمودية بقصد التوفير في المكان. شرح لها المندوب وبدقة شخص يحفظ حديثاً عن ظهر قلب ويكرره العديد من المرات، بأن الحكاية لم تكن إلا كذبة شريرة تم تلفيقها من قبل مؤسسات الدفن التقليدية ليضعفوا الثقة بالطريقة غير المسبوقة لبيع القبور وفق نظام الدفع بالتقسيط. بينما كان يتكلم سُمعت ثلاث دقات حذرة على الباب، توقف وأحس بأن هناك شيئاً ما غير عادي، لكن ماريا دوز برازيريس طلبت منه أن يتابع وهي تقول بصوت خفيض جداً: " لا تقلق، إنه نوي ".

استأنف المندوب حديثه من حيث توقف وشعرت ماريا دوز برازيريس بالرضا لشروحه. ومع ذلك، فقبل فتحها الباب أرادت أن تقوم بصياغة نهائية للأفكار التي كانت تختمر في ذهنها، بتفاصيلها الأكثر جوهرية، التي تجمعت على مر السنين منذ الفيضان الأسطوري في ميناؤس. قالت له: " الذي أقصده هو أنني أبحث عن مكان حيث أستطيع أن أستلقي على الأرض بدون التعرض لخطر الفيضانات، وإذا كان بالإمكان، تحت ظلال الأشجار في الصيف أيضاً، بحيث لا أنبش بعد مدة معينة من الزمن وألقى في مكب النفايات ".

فتحت الباب ودخل كلب صغير مبللاً بالمطر، مظهره الفاجر لا ينسجم أبداً مع بقية ما يحتويه المنزل. كان عائداً من مشواره الصباحي في الجوار، وحالما دخل بدرت منه نوبة مفاجئة من الهياج الشديد. قفز على الطاولة، نبح بطريقة مسعورة، وكاد يتلف خريطة المقبرة بمخالبه الملوثة بالوحل. نظرة واحدة من صاحبته كانت كافية لكبح تهوره. قالت وبدون أن ترفع صوتها: " نوي، أخرج من هنا ".

ارتد الحيوان إلى الوراء، نظر إليها في رعب، وتدحرجت دمعتان براقتان حول خطمه. بعد ذلك أدارت ماريا دوز برازيريس انتباهها ثانية إلى المندوب ووجدته متحيراً.

قال صارخاً: " يا إلهي، إنه يبكي ".

اعتذرت ماريا دوز برازيريس بصوت خفيض: " إنه مضطرب فحسب لأنه وجد أحد الأشخاص في هذا الوقت هنا، وعلى العموم، فإنه عندما يدخل المنزل يبدي حرصاً عليه أكثر مما يفعل البشر. لكن حصل هذا معك أنت فقط، كما رأيت الآن ".

" لكنه يبكي، الملعون! " كرر المندوب ذلك، ثم لاحظ أنه خرق قواعد السلوك والتمس عذرها وخدَّ اه محمران خجلاً: " اعذريني، لكنني لم أرَ مثل هذا من قبل حتى في الأفلام ".

" كل الكلاب تستطيع أن تفعل ذلك إذا تم تدريبها " قالت ماريا ذلك ثم أضافت: " لكن بدلاً من ذلك يصرف أصحابها حياتهم بكاملها وهم يعلموها العادات التي تجعل منها مخلوقات تعسة، مثل الأكل من الأطباق أو قضاء حاجتها وفق جدول زمني وفي نفس المكان. بينما لا يعلمونها الأمور الطبيعية التي تجلب لها الراحة كالضحك أو البكاء. إلى أين كنا قد وصلنا ؟ ".

كانا على وشك أن ينتهيا، وكان على ماريا دوز برازيريس أيضاً أن تسلم نفسها إلى فصول صيف بلا شجر، لأن الشجرات القليلات في المقبرة قد أفردت ظلالها فقط لأصحاب المقامات الرفيعة في السلطة، ومن ناحية أخرى فإن الاشتراطات والصيغ في العقد كانت بعيدة الصلة بهذا الأمر، لأنها أرادت أن تستفيد من مزية الحسم الذي ستتلقاه لدفعها كامل التكاليف مقدماً.

لم ينظر المندوب إلى الغرفة بعيون متفحصة إلى أن أنهيا عملهما وأعاد الأوراق إلى محفظته، وعند ذلك ارتعش للطابع السحري لبهاء الغرفة. نظر إلى ماريا دوز برازيريس وكأنه ينظر إليها للمرة الأولى وقال:

" هل يمكنني أن أسألك سؤالاً. قد يبدو فيه بعض الفضول ".

قالت وهي تمشي معه باتجاه الباب " بالطبع، ما دام غير متعلق بعمري ".

قال لها: " إنني عادة ما أخمن مهن الناس من الأشياء التي أجدها في بيوتهم، والحقيقة أنني في هذه المرة لم أستطع ذلك " ثم أضاف: " أي عمل تعملين ؟ ".

أجابت ماريا دوز برازيريس وقد هزمها الضحك: " إنني عاهرة يا صغيري. أم أنني لم أعد أبدو كذلك ؟ ".

احمر وجه المندوب خجلاً وقال: " أنا آسف ".

" أنا التي يجب عليها الاعتذار ". قالت ذلك وهي تمسكه من يده لتمنعه من الاصطدام بالباب ثم أضافت: " وكن حذراً، ولا تكسر جمجمتك قبل أن تؤمن لي مدفناً مناسباً ".

ما إن أغلقت الباب حتى التقطت الكلب الصغير وبدأت بمداعبته، وبصوتها الإفريقي الجميل انخرطت بترديد أغاني الأطفال التي كانت تسمع آتية من روضة الأطفال في البناية المجاورة. منذ ثلاثة شهور خلت تراءى لها في الحلم بأنها ستموت قريباً، ومنذ ذلك الحين إلى الآن وهي تشعر أنها أقرب من أي وقت مضى إلى طفل عزلتها ذاك. كانت قد خططت لكيفية توزيع ممتلكاتها بعد الوفاة، وترتيبات التعامل مع جسدها. وذلك بعناية شديدة بحيث تموت عندما يحين الميعاد دون أن تزعج أحداً أياً كان. لقد تقاعدت بمحض إرادتها، مالكة لثروة جمعتها قرشاً وراء قرش لكن بدون تضحيات موجعة، وقد اختارت كمكان إقامة نهائي البلدة القديمة جداً والمحترمة في غراسيا، والتي ابتلعتها بعد ذلك المدينة المتمددة. اشترت شقة خربة في الطابق الثاني من بناية تفوح فيها وبشكل دائم رائحة سمك الرنكة المدخن، وذات جدران تآكلت بتأثير الملح ولكنها ما تزال تظهر كل ثقوب الطلقات لمعركة مخزية ما. لم يكن هناك أي بواب، ومع ذلك فكل الشقق كانت مشغولة، وكانت بعض الدرجات مفقودة في سلالم الأدراج المظلمة الرطبة. غيرت ماريا دوز برازيريس

طراز المطبخ والحمام، غطت الجدران بنسيج لماع، ركَّبت زجاجاً مشطوف الحواف على النوافذ، وعلقت ستائر من المخمل. بعد ذلك جلبت الأثاث الرائع – القطع المفيدة والمزخرفة وخزن الحرير والقماش المقصب، والتي سرقها الفاشيون من المساكن التي هجرها الجمهوريون عند فرارهم الجماعي نتيجة الهزيمة، التي كانت لسنوات عديدة تشتريها الواحدة تلو الأخرى في صفقات رابحة في المزادات السرية. الخيط الوحيد الذي يصلها بماضيها كان صداقتها مع كونت كاردونا، والذي استمر بزيارتها في يوم الجمعة الأخير من كل شهر ليتناول معها العشاء ويمارس حباً فاتراً بعد العشاء. لكن حتى تلك الصداقة التي تعود إلى أيام شبابها أبقتها سرية، فقد كان الكونت يوقف سيارته التي تحمل شعارات النبالة على مسافة أكثر من حذرة، ويمشي إلى شقتها في الطابق الثاني في الظلال، لكي يحمي سمعتها بالقدر نفسه الذي يحمي فيه سمعته. لم تعرف ماريا دوز برازيريس أياً كان في البناية عدا الساكنين في الشقة المقابلة لها، حيث كان يعيش زوجان في ريعان الشباب مع ابنتهما ذات الأعوام التسعة وقد انتقلوا إليها منذ مدة ليست بالبعيدة. لقد بدا الأمر غير معقول بالنسبة لها، لكن في الحقيقة فإنها لم تقابل أبداً أي أشخاص آخرين على الأدراج.

ومع ذلك فإن توزيعها لميراثها أظهر أنها أكثر تمسكاً مما توقعت بالجذور في مجتمع الكاتالونيين المتشبثين بالتقاليد، والذين بني شرفهم الوطني على فضيلة التواضع غير الزائف. لقد تركت الأشياء الصغيرة الغير ذات فائدة عملية إلى أقرب الناس إلى قلبها، وهم أقرب الناس إلى مسكنها. عندما أنهت ترتيب كل شيء لم تحس نفسها مقتنعة تماماً بأنها كانت منصفة، لكنها كانت متأكدة من أنها لم تنسَ أحداً من أولئك الذين لا يستحقونه. لقد أعدت الوصية بتدقيق شديد بحيث أن كاتب العدل في

كاليه ديل أربول، والذي كان يطري نفسه دائماً بأنه يرى ويلاحظ كل شيء، لم يصدق عينيه وهو يراها تملي على كتبته عن ظهر قلب، وبالكاتالونية القروسطية، القائمة التفصيلية لممتلكاتها، مع الاسم الدقيق لكل بند، والقائمة الكاملة للمنتفعين مرفقة ذلك بمهنهم وعناوينهم ومكانة كل منهم لديها.

بعد زيارة مندوب شركة الدفن، أصبحت واحد ةً من زوار الأحد الذين لا يحصون إلى المقبرة. مثلها مثل جيرانها في المقبرة زرعت شجيراتِ ورودٍ حولية الإزهار في الجرار الفخارية، سقت العشب النابت حديثاً وشذبته بمقص التقليم حتى بدا أشبه بالسجادات في مكتب العمدة، وغدت على ألفة شديدة مع المكان بحيث أنها لم تفهم في النهاية لماذا بدا لها بادئ الأمر موحشاً جداً.

في زيارتها الأولى، بدأ قلبها يخفق بسرعة عندما رأت القبور الثلاثة المغفلة الاسم بجانب البوابة، لكنها لم تتوقف حتى لتعيرها نظرة واحدة، لأن الحارس اليقظ كان على بعد خطوات منها. لكنها في ثالث يوم أحد انتهزت فرصة غفلة الحارس للحظات لتحقق واحداً من أحلامها العظيمة، ولتكتب بأحمر الشفاه على بلاطة القبر الأول المغسولة بالمطر: " دوروتي ". ومنذ ذلك الحين، وكلما استطاعت كانت تقوم بتكرار العمل ثانية: على بلاطة واحدة حيناً، على اثنتين حيناً آخر، مرة أخرى على ثلاث ودائماً بإيمان راسخ وقلب يثيره الحنين إلى الوطن.

في أحد أيام الآحاد أواخر أيلول، رأت أول مشهد دفن لها على التلة. بعد ذلك بثلاثة أسابيع، في عصر يوم بارد عاصف، دفنوا عروساً شابة بجانب القبر الذي يخصها. وفي نهاية السنة كانت سبعة مواقع قد شُغِلت، لكن الشتاء القصير الأمد مر بدون أن يترك آثاراً سيئة على ماريا دوز برازيريس. لم تعانِ من أي اعتلال في الصحة، ومع دفء

الطقس شيئاً فشيئاً، وتدفق صوت الحياة الصاخب من خلال النوافذ المفتوحة، شعرت بتصميم أكثر من أي وقت مضى لأن تفلت من متاهات أحلامها. لدى عودة كونت كاردونا، الذي كان قد أمضى الأشهر الأشد حرارة في الجبال، وجدها أكثر جاذبية عما كانت عليه في شبابها الخمسيني غير العادي.

بعد العديد من المحاولات الخائبة، نجحت ماريا دوز برازيريس في أن يميِّز نوي قبرها على التلة الكبيرة المليئة بقبور متماثلة. بعد ذلك كرست نفسها لتعليمه لكي يبكي فوق القبر الفارغ بحيث يكتسب عادة فعلها بعد موتها. مشت برفقته مرات عديدة من البيت إلى المقبرة، تحاول لفت انتباهه إلى نقاط علَّام لكي تساعده لأن يتذكر طريق باص الكورنيش، حتى أحست في النهاية بأنه أصبح مؤهلاً بما فيه الكفاية لأن يرسل هناك لوحده.

في يوم الأحد الذي كان مقرراً أن يتم فيه الاختبار الأخير، وفي الساعة الثالثة من عصر ذلك اليوم، خلعت عنه صدرته الربيعية، لأن الصيف كان على الأبواب من جهة ولأنها لا تريده أن يلفت الانتباه من جهة أخرى، وتركت له العنان. رأته يجري بخبب سريع في الجانب المظلل من الشارع، ردفاه الصغيران مشدودان وداكنان تحت ذيله المتهلل، وحاولت قدر استطاعتها أن تمنع نفسها من البكاء – عليها وعليه وعلى السنوات العديدة المريرة جداً من الأوهام التي تشاطراها معاً – تابعته بنظراتها وهو يلف المنعطف عند كال مايور ويتجه ناحية البحر. بعد ذلك بخمس عشرة دقيقة ركبت باص الكورنيش في ساحة دوليسبس القريبة، محاولة أن تراه من خلال النافذة دون أن يراها، وفي الحقيقة فقد رأته على بعد متوقفاً برزانة بين أسراب أطفال الآحاد، منتظراً تبدل إشارة المرور عند جادة دي غارسيا.

" يا إلهي، تبدو عليه علائم الوحدة إلى حد بعيد " تنهدت قائلة.

كان عليها أن تنتظره ساعتين تحت شمس مونتجويش اللاهبة. حيت الكثير من فاقدي الآباء والأمهات، الذين رأتهم في أيام آحاد سابقة كادت تضيع من ذاكرتها، بالكاد تعرفت عليهم، لأنه مرَّ الكثير من الوقت مذ رأتهم لأول مرة، ولم يعودوا يلبسون ثياب الحداد أو يبكون، وكانوا يضعون أزهاراً على القبور دون التفكير بموتاهم. بعد ذلك بفترة قصيرة وعندما كان الجميع قد غادروا، سمعت صوتاً أشبه بالعويل في الجهة السفلية أفزع نوارس البحر، وعلى مياه البحر العظيم رأت باخرة عابرة للمحيطات بيضاء اللون ترفع العلم البرازيلي، وتمنت من كل قلبها أن تكون قد حملت لها رسالة من شخص مستعد كي يموت من أجلها في سجن بيرنامبوكو. بعد الخامسة بقليل وقبل اثنتي عشرة دقيقة من الموعد المحدد، ظهر نوي على التلة، يسيل لعابه من التعب وشدة القيظ. لكن يبدو عليه مظهر طفل منتصر. في تلك اللحظة هزمت ماريا دوز برازيريس الخوف من أنه لن يبكيها على قبرها أحد أياً كان.

ما إن أتى الخريف التالي حتى بدأت تستكشف علامات تنذر بأشياء لم تستطع حل كنهها لكنها أثقلت كاهلها. عادت لتشرب القهوة تحت أشجار الأكاسيا الذهبية في ساحة ديل ريلوج، وعادت لتلبس معطفها ذي الياقة المصنوعة من ذيل الثعلب، والقبعة المزخرفة بالأزهار الاصطناعية التي كانت موضة قديمة جداً لكنها عادت مرة أخرى. حدسها أصبح أكثر حدة. كانت تحاول أن تفهم سبب قلقها، وهي تنعم التفحص بثرثرة النساء اللواتي يبعن الطيور على الكورنيش، وبأحاديث الرجال في أكشاك بيع الكتب – الذين وللمرة الأولى منذ سنين لم يكونوا يتكلمون عن كرة القدم – وبالصمت المطبق للمحاربين القدماء المعاقين وهم يقذفون بفتات الخبز إلى طيور الحمام، وفي كل مكان كانت تجد

علائم بيّنة تشير إلى الموت. في أعياد الميلاد، كانت المصابيح الملونة معلقة بين أشجار الأكاسيا، وكانت تسمع موسيقا وأصوات فرحة من على الشرفات. حشود السائحين كانت تغزو مقاهي الرصيف. لكن في وسط كل ذاك اللهو، كان المرء يشعر بنفس التوتر المكبوت الذي سبق الأيام التي سيطر الفوضويون فيها على الشوارع. ماريا دوز برازيريس، التي عاشت زمن الأيام العظيمة ذاك، لم تستطع أن تسيطر على قلقها، وللمرة الأولى أصبحت تستيقظ من نومها ممزقة ببراثن الخوف. في إحدى الأمسيات، رأت من نافذتها رجال الأمن القومي وهم يطلقون النار ويقتلون طالباً كان قد رسم بعجلة شعار الجبهة الكاتالونية على الجدار.

" يا إلهي، كأن كل شيء يموت معي! " حدثت نفسها وهي ترتجف رعباً.

كانت قد عرفت ذلك النوع من القلق فقط عندما كانت فتاة صغيرة في ميناؤس، في تلك الأيام وقبيل الفجر، عندما تتوقف الأصوات التي لا حصر لها لمخلوقات الليل فجأة، صوت المياه لم يعد مسموعاً، الزمن يتوانى، وغابُ الأمازون يغرق في صمت مطلق شبيه بصمت الموت. في وسط ذلك التوتر الذي لا يقاوم، وفي يوم الجمعة الأخير من نيسان، وكالمعتاد، أتى كونت كاردونا إلى منزلها لتناول العشاء.

تحولت زيارة الكونت إلى طقس له شعائره. يصل الكونت الدقيق المواعيد ما بين السابعة والتاسعة مساءً ومعه زجاجة من الشمبانيا المحلية، ملفوفة بالجريدة المسائية كي لا تبدو للعيان، وعلبة الكمأة المحشية. ماريا دوز برازيريس تحضر الكانيلوني بالغرتن والفراريج الصغيرة بالمرق – الطبقان المفضلان من الأيام السعيدة للعائلات الكاتالونية العريقة الراقية – وزبدية مليئة بفواكه الموسم. وبينما هي تطبخ، يصغي الدوق إلى مختارات موسيقية خالدة من أوبرات إيطالية

على الفونوغراف، آخذاً رشفات بطيئة من خمر برتقالي ويستمر ذلك حتى نهاية مدة التسجيل.

بعد العشاء المتهادي، وتبادل الأحاديث، يمارسان حباً غير مغترب يستقدمانه من الذاكرة، والذي يترك لدى كليهما طعم الكارثة. ودائماً قبل أن يغادر، يبدو متململاً لحلول منتصف الليل، ويضع خمساً وعشرين بيزيتتحت منفضة السجائر في غرفة النوم. فذلك كان الثمن الذي دفعه لماريا دوز برازيريس عندما قابلها لأول مرة في فندق للمسافرين العابرين في الباراليلو، وكان ذلك كل ما بقي سليماً دون أن يمسه صدأ الزمن.

لم يتساءل أي منهما أبداً عن الأساس الذي بنيت عليه صداقتهما. كانت ماريا دوز برازيريس مدينة له ببعض الفضائل البسيطة فقد أسدى إليها بعض النصائح المفيدة بخصوص إدارة مدخراتها؛ علمها بأن تعرف القيمة الحقيقية لتذكاراتها و مقتنياتها، وكيف تخفيها ولا تسمح لأحد أن يكتشف بأنها أشياء مسروقة. لكن علاوة على ذلك كان هو الشخص الذي هداها إلى الطريق لكي تعيش شيخوخة محتشمة في مقاطعة غارسيا، عندما كان يدور الحديث في الماخور الذي صرفت فيه حياتها بأنها أصبحت كبيرة في السن بحيث لم تعد تستطيع أن تجاري الأذواق العصرية، وأرادوا إرسالها إلى بيت نساء الليل المتقاعدات، حيث يعلمن الصبية هناك كيفية ممارسة الحب مقابل خمسة بيزيتات. لقد كانت قد أخبرت الكونت بأن أمها باعتها في ميناء ميناؤس عندما كان عمرها أربعة عشر عاماً، وقد عاملها وكيل الربان في سفينة تركية بلا رحمة خلال عبور الأطلسي، وبعدئذٍ هجرها، بلا مال، بلا لغة، وبلا اسم في مستنقع الحياة الغارق بالأضواء في الهارالیلو. لقد كان كلا هما مدركين بأن لديهما أشياء قليلة مشتركة بحيث أن الشعور بالوحدة كان أكثر ما ينتابهما عندما يكونا ن معاً، لكن أحداً منهما لم يتجرأ ويفسد تلك المتعة

التي تكونت بحكم العادة. لقد تطلب الأمر جيشاناً شعبياً كي يدركا كم كان كل منهما يكره الآخر، وكيف كان يتم التعامل مع الأمر بحذر لسنوات عديدة.

كانت شرارة أشعلت النار في الهشيم، فقد كان كونت كاردونا يصغي إلى لحن حب ثنائي من أوبرا البوهيمية تغنيه ليشيا البانيز و بينيامينو جيلي، عندما صادف ووصلت سمعه نشرة الأخبار في الراديو التي كانت تستمع إليها ماريا دوز برازيريس في المطبخ. اقترب ماشياً على أطراف أصابعه وأصغى جيداً: الجنرال فرانسيسكو فرانكو، دكتاتور أسبانيا الأبدي، يتولى اتخاذ القرار حول تقرير مصير ثلاثة من الانفصاليين الباسك، الذين كان قد حكم عليهم بالموت. تنهد الكونت تنهيدة ارتياح وقال:

" إذا سوف يطلقون عليهم النار بلا هوادة، لأن الكوديلو رجل بمعنى الكلمة ".

حدقت ماريا دوز برازيريس به بعيني كوبرا ملكية متوهجتين ورأت البؤبؤين الخاليين من العاطفة وراء النظارة ذات الإطار الذهبي، الأسنان المفترسة، اليدين الشبيهتين بطرفي حيوان نغل اعتاد على الرطوبة والظلام. لقد رأته كما هو تماماً.

قالت له: " لا بأس! كان من الأفضل لك أن تصلي كي لا يأمر بذلك، لأنهم لو أعدموا ولو واحداً منهم فإني سأضع لك السم في الحساء ".

كان الكونت مصعوقاً من كلامها وقال: " وما الذي يجعلك تقدمين على فعل ذلك؟ ".

" لأنني لست عاهرة وحسب، بل عاهرة عادلة أيضاً ".

لم يعد كونت كاردونا أبداً، وكانت ماريا دوز برازيريس متأكدة من أن الدائرة الأخيرة من حياتها وصلت إلى نهاية لها. وحتى قبل ذ لك الوقت بفترة، كانت في واقع الأمر تشعر بالسخط عندما يعرض عليها أحدهم لتجلس مكانه في الباص، أو يحاول أن يساعدها لكي تقطع الشارع، أو يأخذ بذراعها لكي تصعد الدرج، لكنها لم تسمح بحدوث أشياء كهذهوحسب، بل إنها كانت تحس برغبة إليها كونها حاجة مكروهة لا بد منها. وفي تلك الأثناء أوصت على شاهدة قبر تخص الفوضويين، حيث لا اسم ولا تواريخ، وبدأت بالنوم وباب المنزل غير مقفل بحيث أنَّ نوي يستطيع أن يخرج ويشيع الخبر فيما لو توفيت أثناء نومها.

و في أحد أيام الآحاد و بينما كانت عائدة من المقبرة، قابلت الفتاة الصغيرة التي تسكن الشقة التي في الجهة المقابلة لشقتها من درج البناية. مشت معها على طول عمارات عدة، تتحدث معها حول كل شيء ببراءة جدة بينما تراقبها هي ونوي وهما يلعبان كصديقين قديمين في ساحة ديامانتي وكما كانت قد خططت مسبقاً، عرضت لأن تشتري لها الآيس كريم وسألتها: " هل تحبين الكلاب ؟ ".

" نعم إنني أحبها " ردت عليها الفتاة.

عند ذلك عرضت ماريا دوز برازيريس الاقتراح الذي كانت تحضر له منذ وقت طويل. قالت لها: " إذا حدث لي شيء ما، أريدك أن تأخذي نوي معك، لكن بشرط أن تتركيه طليقاً يوم الأحد ولا تشغلي نفسك إطلاقاً بالأمر. هو سيعرف ما الذي عليه أن يفعل ".

تركتها الفتاة التي كانت مبتهجة لذلك. وعادت ماريا دوز برازيريس نهاية ذلك اليوم إلى المنزل وبفرح كونها عاشت حلماً كان قد نضج منذ سنوات في قلبها. لكن لم يكن وهن الشيخوخة الرتيب الطويل مدته أو الوصول المتأخر للموت هو الذي منع تحقيق الحلم. لم يكن حتى قرارها

هي. فالحياة هي التي فعلت ذلك لها في عصر أحد أيام تشرين الثاني الجليدية عندما هبت عاصفة مفاجئة وهي تغادر المقبرة. كانت قد كتبت الأسماء على القبور الثلاثة وكانت تمشي نازلة باتجاه محطة الباص عندما بلل المطر الغزير ثيابها ونفذ إلى جسدها. كان لديها من الوقت ما يكفي لأن تلجأ إلى مدخل بناية في منطقة مهجورة بدت وكأنها تنتمي لمدينة أخرى، بمستودعاتها الخربة ومصانعها التي يعلوها الغبار، وعربات الشحن المقطورة الضخمة التي تصنع تلك الضجة الرهيبة لتجعل العاصفة تبدو أكثر رعباً. بينما كانت تحاول لأن تدفئ بجسدها كلبها المنقوع بالماء، كانت ماريا دوز برازيريس ترى الباصات المزدحمة تمر بجانبها، وسيارات التكسي الفارغة تعبر بقربها ولوحة " سيارة أجرة " تعلوها، لكن أحداً لم يلق بالاً إلى إشاراتها الموجوعة. بعدئذٍ، وعندما بدا لها بأنه حتى المعجزة مستحيلة. بدأت بعبور الشارع الذي غمره الفيضان سيارة مترفة لا يكاد يصدر منها أي ضجيج، ذات لون معدني عاتم، ثم توقفت فجأة عند الزاوية ورجعت بشكل عكسي إلى حيث تقف هي. سُحِبت النوافذ إلى الأسفل وكأن ذلك تم بسحر ساحر، وعرض عليها السائق أن يوصلها إلى بيتها.

قالت ماريا دوز برازيريس بصدق: " إنني ذاهبة لمسافة بعيدة لكنك تعمل معروفاً فيما لو أخذتني معك بعض الطريق ".

ألح قائلاً: " أخبريني إلى أين أنت ذاهبة " .

" إلى غارسيا " ردت عليه.

فتح الباب دون أن يمسه وقال لها: " إنها طريقي، اصعدي ".

بدت رائحةُ داخل السيارة كرائحة دواء محفوظ في براد، وحالما صارت في الداخل، أصبح المطر بالنسبة لها وكأنه كان أمراً وهمياً عرضياً، تبدل لون المدينة، وشعرت أنها أصبحت في عالم غريب سعيد

حيث كل شيء رتب له مسبقاً قبل حدوثه. شق السائق طريقه في زحمة السير برشاقة بدت و كأنها لمسة سحر. شعرت ماريا دوز برازيريس بالخوف ليس بسبب وضعها التعيس فقط، بل بسبب الكلب الصغير المثير للشفقة النائم في حضنها أيضاُ.

" إنها باخرة عابرة للمحيطات " قالت ذلك لأنها أحست بأن عليها أن تقول شيئاً ما ملائماً ثم أضافت: " لم أر شيئاً كهذا حتى في أحلامي".

" في الحقيقة، أن الشيء الوحيد الذي يعيبها أنها ليست ملكي " قال ذلك بكاتالونية تعوزها الرشاقة في التعبير، وبعد توقف قال بالقشتالية: " كل ما كسبته في حياتي لا يكفي لشرائها ".

قالت متنهدة: " أتخيل ذلك ".

تفحصته من طرف عينها في الضوء الأخضر لواقية السيارة، ورأت بأنه كان أكبر من مراهق بقليل، و ذا شعر جعد قصير والمنظر الجانبي لوجهه شبيه بتمثال روماني من البرونز. لقد اعتبرته غير وسيم لكن يملك نوعاً مميزاً من السحر، حيث أن سترته الجلدية الرخيصة القديمة كانت في غاية الجاذبية، واعتقدت بأن أمه ستشعر بسعادة كبيرة وهي تسمعه يخطو مقترباً من الباب. فقط يداه اللتان تبدو عليهما آثار الكدح تجعل من الممكن التفكير بأنه ليس هو بصاحب السيارة.

لم يتكلما ثانية طوال بقية الرحلة، لكن ماريا دوز برازيريس شعرت بأنه قام بتفحصها لمرات عديدة من طرف عينيه، ومرة أخرى ندمت لأنها ما زالت على قيد الحياة وهي في هذا العمر. لقد شعرت بأنها بشعة ومثيرة للشفقة، بشالها المنزلي الذي كانت قد رمته فوق رأسها عندما بدأ المطر بالسقوط، ومعطفها الخريفي الذي يرثى له والذي لم تكن تنوي تبديله لأنها كانت تفكر بالموت.

عندما وصلا منطقة غارسيا كان الجو قد بدأ يصحو. والليل بدأ يرخي سدوله، وأضيئت مصابيح الشوارع. طلبت ماريا دوز برازيريس من السائق أن ينزلها عند الزاوية القريبة، لكنه أصر على أن يوصلها إلى الباب الرئيسي للمنزل، ولم يفعل ذلك فحسب، لكنه توقف على الرصيف بحيث يمكنها أن تنزل من السيارة دون أن تبتل بالمطر. أطلقت الكلب وحاولت أن تترجل من السيارة بوقار بقدر ما يسمح لها جسدها، وعندما استدارت لتشكره قابلت نظرات ذكورية محدقة كادت أن تقطع أنفاسها. تحملت ذلك للحظات، غير مدركة بالضبط لأي سبب كان ينتظر ومن كان ينتظر، وعندئذٍ سألها بصوت واثق: " أيمكنني أن أدخل؟ ".

شعرت ماريا دوز برازيريس بالإهانة وقالت له: " أنا شاكرة جداً لتكرمك بإيصالي إلى هنا، لكن لن أسمح لك بأن تهزأ مني ".

" ليس لدي ما يدعوني لأن أهزأ من أي كان " قال ذلك بجدية مطلقة وبالقشتالية ثم أضاف: " وخصوصاً من امرأة مثلك ".

كانت ماريا دوز برازيريس قد عرفت الكثير من الرجال من أمثاله، وأنقذت الكثير من الرجال الأكثر منه جرأة ووقاحة من الانتحار، لكن لم تتخوف طوال حياتها مثلما كانت متخوفة الآن من أن تتخذ قراراً. لقد سمعته يكرر دون أدنى تغيير في نبرة صوته: " أيمكنني أن أدخل؟ ".

مشت مبتعدة دون أن تغلق باب السيارة، وأجابت بالقشتالية لتتأكد من أنه يفهم ما تقوله: " افعل الذي تريده ". مشت في المدخل الذي كان يأتيه ضوء خفيف شاحب من الشارع، وبدأت صعود السلم الأول من الدرج بركب مرتجفة، مصحوبة بخوف كانت قد اعتقدت بأنه لا يمكن أن يحصل سوى عند لحظة الموت. عندما توقفت مقابل الباب في الطابق الثاني، وهي ترتجف مخافة ألا تجد المفاتيح في حقيبتها، سمعت باب ي

السيارة يغلقان . حاولت أن تصرخ . " كوني هادئة " قالت ذلك لنفسها بهمس مشوب بالعذاب. بعد ذلك سمعت الخطوات الأولى على الدرجات المخلخلة وكانت متخوفة من أن ينفجر قلبها. في جزء من الثانية قامت بإعادة تفحص شاملة لحلمها المخدِّر الذي غير حياتها للسنوات الماضية الثلاث، وأدركت خطأ تفسيرها.

قالت لنفسها مندهشة: " يا إلهي ، لم يكن ذلك بالموت إذاً ! ".

في النهاية وجدت القفل، صارت تصغي إلى الخطوات الموزونة في الظلام، صارت تصغي إلى الأنفاس المتسارعة لشخص يقترب في العتمة بذهول لا يقل عن ذهولها هي، وأخيراً عرفت أن ذلك كان يستحق الانتظار لسنوات عديدة كثيرة، يستحق تلك المعاناة الشديدة في الظلام، هذا إن أرادت أن تعيش تلك اللحظة وحسب.

أيار 1979

سبعة عشر رجلاً إنكليزياً مسموماً

كان أول شيء لاحظته سينورا برودنشا لينيرو عندما وصلت ميناء نابولي هو أن له نفس رائحة ميناء ريوهاشا. هي لم تخبر أحداً بذلك بالطبع، حيث لا أحد سوف يفهم هذا على عابرة المحيطات الهرمة تلك والمحشوة حتى التخمة بالإيطاليين القادمين من بوينس آيرس والذين يعودون إلى بلدهم للمرة الأولى بعد الحرب، لكن على كل حال، وفي عمر الثانية والسبعين وعلى مسافة ثمانية عشر يوماً في أعالي البحار التي تفصلها عن أهلها وبيتها، شعرت بأنها أقل وحدة، أقل تخوفاً وبعداً.

كان بالإمكان رؤية الأضواء على أرض الميناء منذ انبلاج الفجر. المسافرون الذين استيقظوا أبكر من المعتاد كانوا يلبسون الثياب الجديدة وقلوبهم مثقلة بعدم اليقين من دخولهم الميناء، حيث أن الأحد الأخير على سطح السفينة بدا وكأنه الأحد الوحيد غير الزائف في الرحلة بأكملها. كانت سينورا برودنشا لينيرو واحدة من الناس القلائل الذين

حضروا القداس. وخلافاً لملابسها القديمة التي كانت تلبسها من قبل، عندما كانت تتمشى على جوانب السفينة وهي في ملابس حداد جزئي. فقد كانت ذلك اليوم تلبس سترة طويلة من نسيج القنب البني الخشن مربوطة بحزام يميز أتباع القديس فرنسيس، وخفين جلديين قاسيين لا تشبها خفي الحاج لأنهما كانتفي غاية الجدة. لقد كان ذلك اللباس دفعة على الحساب دفعت مقدماً: فقد تعهدت للرب بأنها سوف تلبس الرداء وبالطول الكامل لبقية حياتها إذا منّ عليها برحلة إلى روما لكي ترى البابا المعظم، وقد اعتبرت سلفاً بأن المباركة قد منحت. عندما انتهى القداس أضاءت شمعة للروح القدس عرفاناً بالجميل لغرسه الشجاعة فيها والتي مكنتها من أن تتحمل العواصف الكاريبية، وتلت صلاة لكل من أولادها التسعة وأحفادها الأربعة عشر الذين كانوا في تلك اللحظات يحلمون بها في ليل ريوهاشا العاصف.

عندما صعدت ظهر السفينة بعد الفطور، كانت الحياة على السفينة قد تغيرت. الحقائب كانت مكومة في قاعة الرقص مختلطة مع شتى الأصناف من السلع الصغيرة التي كان الإيطاليون قد ابتاعوها في أسواق الآنتيل الفاخرة، وفي البار في البهو كان هناك قرد من فصيلة الماكاك جيء به من بيرنامبوكو في قفص حديدي مزخرف. كان صباحاً مشرقاً في أوائل آب، واحداً من الآحاد الصيفية المثالية لفترة ما بعد الحرب حيث كانت الأضواء شبيهة بسفر رؤيا نهاري، والباخرة الضخمة تسير للأمام وتلهث كشخص عاجز مرهق عبر المياه الهادئة الشفافة. حصون دوقات آنجو كانت قد بدأت تلوح في الأفق، لكن المسافرين الذين قدموا إلى سطح السفينة ظنوا أنهم يرون قصوراً شهيرة، وقد أشاروا لها دون أن يميزوها تماماً، وهم يصيحون مرحاً بلهجاتهم الجنوبية. سينورا بردونشا لينيرو، وهي التي كانت قد أقامت العديد من الصداقات الوطيدة على ظهر السفينة، حيث كانت تنتبه إلى الأولاد بينما يتوجه آباؤهم إلى

الرقص، بل وحتى تخيط زراً في سترة الربان الأول العتيقة، عقدت الدهشة فاها عندما وجدتهم جميعاً قد تغيروا وأصبحوا غير وديين. الروح الاجتماعية والدفء الإنساني اللذان أتاحا لها لأن تتغلب على أول شوق مشبوب لها تجاه وطنها في الحرارة اللاهبة لذلك الجو الاستوائي كانا قد اختفيا. الغرام الأبدي لأعالي البحار انتهى عندما لاح المرفأ للعيان.

سينورا برودنشا لينيرو التي لم تكن على اطلاع بالطبيعة المهذارة للإيطاليين، اعتقدت أن المشكلة لا تكمن في قلوب الآخرين بل في قلبها، حيث كانت الوحيدة القادمة بين حشد من العائدين. كل الرحلات ستكون مثل هذه الرحلة، فكرت بينها وبين نفسها وهي تعاني للمرة الأولى في حياتها ألماً حاداً كونها غريبة، بينما تتكئ على الدرابزون وتتأمل آثار العوالم المنقرضة في أعماق الماء. وفجأة صرخت فتاة جميلة جداً تقف بجانبها صرخة رعب أجفلتها.

صاحت الفتاة وهي تشير إلى أسفل: " أمي، انظري هناك ".

كان هناك رجل غريق، رأته سينورا برودنشا لينيرو وقد طفا مستلقياً على سطح الماء حيث كان يسوقه الموج، كان رجلاً في منتصف العمر، أصلع ذا قسمات وجه مميزة، وعينين مفتوحتين فرحتين بلون السماء عند الفجر. كان يلبس بدلة سهرة كاملة مع صدرة من قماش البروكاد المقصب وحذاء من الجلد الصقيل، وكانت هناك زهرة كارديليا نضيرة في طية سترته. في يده اليمنى كان يمسك صندوقاً صغيراً مربعاً ملفوفاً بأوراق تغليف الهدايا، وكانت أصابعه القوية الشاحبة قابضة على قوس الكمان، الذي كان الشيء الوحيد الذي وجده ليتشبث به في لحظة موته.

" لا بد وأنه سقط أثناء حفلة راقصة " قال أحد ضباط السفينة ذلك وأضاف: " يحدث ذلك كثيراً هنا خلال الصيف ".

كان المشهد مجرد رؤية خاطفة، لأنهم في تلك اللحظات كانوا يدخلون الخليج، وكان هناك أشياء أخرى أقل مدعاة للحزن تجذب انتباه

المسافرين. لكن سينورا برودنشا لينيرو استمرت بالتفكير بالرجل الغريق، الرجل الغريق المسكين، الذي كانت سترته ذات الذيل الطويل تتموج في الماء أثناء سهرهم.

وحالما بدأت السفينة بالتوجه إلى داخل الميناء، خرج زورق قطر عتيق لكي يلاقيها ويقودها من مقدمتها عبر حطام مراكب عسكرية لا حصر لها دُمِّرت خلال الحرب. كان الماء يتحول إلى نفط حالما تشق السفينة طريقها متجاوزة الحطام الصدئ، وأصبحت درجة الحرارة أكثر سخونة منها في ريوهاشا عند الثانية ظهراً. في الجانب الآخر من القناة الضيقة، المدينة اللامعة في شمس الحادية عشر، ظهرت للعيان بكامل قصورها الخيالية وخيامها المدهونة العتيقة المحتشدة بجانب بعضها على التلال. في تلك اللحظة صعدت رائحة نتنة لا تطاق من القعر المعكر، التي تعرفت إليها سينورا برودنشا لينيرو مسبقاً في فناء بيتها كرائحة كريهة لسرطانات بحر متعفنة.

بينما كانت هذه المناورة تجري قدماً، كان المسافرون يُبدون فرحاً غامراً وهم يتعرفون على ذويهم في الحشد الصاخب على الرصيف الداخل في البحر. معظمهم كانوا سيدات خريفيات ذي صدور عامرة، واللواتي يكدن يختنقن في ثياب الحداد، ولديهن الأولاد الأكثر جمالاً وعدداً في العالم، وأزواجاً صغار القد مثابرين، من ذلك النوع الخالد الذي يقرأ الصحيفة بعد أن تقرأها زوجاتهم، ويلبس مثل كُتَّاب عدل متجهمين برغم القيظ.

في وسط تلك الفوضى الاحتفالية، تقدم رجل عجوز يرتدي معطف شحاذ وذو تعابير وجه ينفطر لها القلب، وأخرج بكلتا يديه عدداً كبيراً من الصيصان الصغيرة من جيوبه. وفي لحظات غطت الرصيف بالكامل، مهتاجة ومسقسقة، ولأن الأمر كان سحراً فإن العديد منها لم تمت وبقيت تركض بعد أن داسها الحشد الغافل عن المعجزة. وضع الساحر قبعته

مقلوبة على الأرض، لكن أياً من الناس المتكئين على درابزون الرصيف لم يقذف له حتى بقطعة نقد من قبيل الإحسان.

كونها كانت مفتونة بالمشهد العجائبي الذي بدا وكأنه قدِّم على شرفها فهي الوحيدة التي أطرته، لم تنتبه سينورا برودنشا لينيرو إلى اللحظة الحاسمة حين خفِّض المعبر وغزا السفينة حشد من البشر وهم يصرخون بقوة وكأنه هجوم قراصنة. شعورها بالغثيان نتيجة ذلك الفرح الوحشي، ورائحة البصل الزنخة لكثير من الأسر في الصيف، ودفعها من قبل جماعات الحمالين الذين أتوا لنقل الأمتعة، جعلها تحس بأنها مهددة بالموت الشائن نفسه الذي تهدد الصيصان الصغيرة على الرصيف. عندها جلست على صندوق أمتعتها الخشبي ذي الزوايا المدهونة بلون القصدير وبقيت هناك غير هيابة، وهي ترنم مكررة مجموعة من الصلوات المبعدة للغواية والخطر في أراضي الكفَّار. رآها الربان الأول عندما كانت الجائحة قد انتهت، وكانت الوحيدة التي بقيت كشيء مهجور في قاعة الرقص.

قال لها الربان بلطف واضح: "من المفترض أنه لن يبقى أحد هنا، أأستطيع أن أساعد بأمر ما ؟ ".

" عليَّ أن أنتظر القنصل " كان ردها.

لقد كان ذلك صحيحاً. فقبل يومين من سفرها، أرسل ابنها الأكبر برقية إلى صديقه في قنصلية نابولي، يطلب من هـ فيها أن يلتقي أمه في الميناء ويساعدها في إجراءات السفر إلى روما. كان قد أخبره عن اسم السفينة وزمن وصولها، وبأنه سوف يتعرف عليها لأنها سوف تكون مرتدية زي القديس فرنسيس عندما تخرج إلى الشاطئ. كانت متشددة جداً بخصوص هذه الترتيبات بحيث أن الربان الأول سمح لها بأن تنتظر لمدة أطول قليلاً، على الرغم من أن ميعاد غداء طاقم الباخرة كان سيحين بعد قليل، فقد كانوا قد وضعوا للتو الكراسي على الطاولات

وبدؤوا يغسلون أرضية السفينة بدلاء الماء. كان عليهم تغيير مكان صندوق أمتعتها لمرات عديدة كي لا يترطب بالماء، لكنها كانت تغير مكانها بدون أن تتبدل قسمات وجهها أو تقطع صلواتها، إلى أن أخرجوها في النهاية من جناح غرف الراحة وتركوها تجلس تحت الشمس الساطعة ما بين قوارب النجاة. كان ذلك عندما لقيها الربان الأول مرة أخرى قبل الثانية بقليل، تكاد تغرق بعرقها داخل رداء التائب الذي تلبسه وهي ترتل سلسلة صلوات بدون أمل، فقد كانت خائفة وحزينة وكل ما تستطيع فعله هو أن تمنع نفسها عن البكاء .

قال لها الربان، لكن ليس بود كما في السابق: " لا فائدة من استمرارك في الصلاة، فحتى الله يأخذ عطلة في آب ".

شرح لها بأنه في ذلك الوقت من السنة يكون نصف الإيطاليين على الشواطئ، وخاصة في أيام الآحاد. ومن المحتمل جداً أن القنصل لم يكن في عطلة، نظراً لطبيعة مسؤولياته، لكن من المؤكد أنه لن يفتح مكتبه حتى يوم الاثنين. والتصرف الوحيد المعقول هو الذهاب إلى الفندق، نوم ليلة هادئة هناك، ومخابرة القنصل في اليوم التالي؛ ولا شك أن الرقم موجود في دليل الهاتف. لم يكن لدى سينورا برودنشا لينيرو أي خيار سوى قبول محاكمته للقضية. وقد ساعدها الربان لإنهاء إجراءات الهجرة والجمارك وتصريف العملة، ووضعها في سيارة أجرة، مع توجيهات غير واضحة فحواها أن تؤخذ إلى فندق محتشم.

بدأت سيارة الأجرة العتيقة ذاتُ الملامح الكئيبة تترنح وهي تطوف الشوارع المهجورة. وللحظات شعرت سينورا برودنشا لينيرو أنها والسائق كانا المخلوقين الوحيدين على قيد الحياة في مدينة من الأشباح التي تتدلى من حبال الغسيل في منتصف الشارع، لكنها شعرت أيضاً بأن ذاك الرجل الذي يتحدث كثيراً، وبعاطفة جياشة، ليس لديه الوقت الكافي

لكي يسبب أذى لامرأة مسكينة وحيدة تحملت أخطار المحيط من أجل أن تحظى برؤية البابا.

في نهاية المتاهة التي تشكلها تلك الشوارع رأت البحر ثانية. استمرت سيارة الأجرة بالترنح على طول الشاطئ اللاهب المهجور حيث كان هناك العديد من الفنادق الصغيرة المطلية بألوان براقة. لم يتوقف عند أي منها بل تابع سيره إلى واحد أقل بهرجة، الذي كان يقع في حديقة عامة فيها العديد من أشجار النخيل الضخمة والمقاعد الخضراء. وضع السائق صندوق الأمتعة على الرصيف المظلل، وعندما رأى سينورا برودنشا لينيرو وقد راودتها الشكوك، أكد لها بأن هذا هو الفندق الأكثر احتشاماً في نابولي.

رفع حمَّال وسيم طيب القلب صندوق الأمتعة على كتفه وتولى أمر العناية بها. صحبها إلى مصعد معدني ذي قضبان متصالبة وضع بطريقة مرتجلة في بيت الدرج، وبشكل مباغت وواثق بدأ يغني بأعلى صوته لحناً لبوشيني. كان المبنى مهيباً يحتوي على فندق مختلف عن الآخر في كل من طوابقه التسعة المعاد تجديدها. وفجأة وكأنه ألمَّ بها نوع من الهذيان، تبادر لسينورا برودنشا لينيرو بأنها في قفص دجاج يرتفع ببطء داخل بيت درج مرمري يعيد الأصداء على جوانبه، وهي تلمح بشكل خاطف الناس في غرفهم بثيابهم الداخلية الممزقة، ومخاوفهم العميقة، وأبخرة الفينول الحامضية التي تنبعث من المكان. في الطابق الثالث نخع المصعد ليتوقف بعد ذلك، وعند ذاك توقف الحمَّال عن الغناء، فتح زلّاقة الباب المعينة الشكل، وبانحناءة نبالة أشار لسينورا برودنشا لينيرو بأنها أصبحت في مكان إقامتها.

رأت في الردهة مراهقاً ضعيفاً يجلس وراء نضد خشبي مزخرف بقطع زجاجية ملونة، وعليه نباتات ظل موضوعة في أصص نحاسية. كان له نفس عقصات الشعر الملائكية التي لحفيدها الأصغر. لقد أحبت

اسم الفندق الذي نقشت حروفه على لوحة من البرونز، أحبت رائحة الفينول، أحبت السراخس المتدلية، أحبت الصمت، والزنابق الذهبية المرسومة على ورق الجدران. بعدئذٍ مشت خارجة من المصعد وقد أحست أنه غار قلبها. كان هناك مجموعة من السياح الإنكليز يرتدون سراويل قصيرة وصنادل بحر يأخذون غفوة على صف طويل من الكراسي المريحة. كان هناك سبعة عشر منهم يجلسون بشكل منتظم ومتناسق، وكأنهم رجل واحد تكررت صورته لمرات عديدة في قاعة مليئة بالمرايا. استوعبت سينورا برودنشا لينيرو المشهد في لمحة واحدة دون أن تميز واحداً عن الآخر، وكل ما استطاعت أن تتبينه كان الصف الطويل من الركب الوردية التي بدت مثل شرائح من لحم الخنزير معلقة من الخطاطيف في دكان لحام. لم تخطو خطوة أخرى تجاه النضد، لكنها تراجعت في ذعر إلى داخل المصعد وقالت:

" دعنا نذهب إلى طابق آخر ".

رد عليها الحمال: " إنه الوحيد الذي يحوي قاعة طعام يا سيدتي".

" ذلك لا يهم " ردت قائلة.

أومأ الحمال بالموافقة، أغلق المصعد، وتابع غناء القسم المتبقي من الأغنية حتى وصلا إلى الفندق الموجود في الطابق الخامس. كل شيء بدا أقل إزعاجاً هنا. كان المالك قيمة لا تكف عن الحركة وتتكلم الأسبانية بطلاقة، ولم يكن هناك أياً كان يأخذ قيلولة على الكراسي المريحة في الردهة. في الواقع لم يكن هناك قاعة طعام، لكن الفندق كان قد قام بترتيبات مع مطعم قريب كي يخدم النزلاء بسعر مخفض. وهكذا كان قرار سينورا برودنشا لينيرو بالإيجاب، سوف تمكث لليلة واحدة. شجعها على ذلك بلاغة وود المالكة من جهة، ومن جهة أخرى أنه لا يوجد حتى رجلاً إنكليزيا واحداً ذا ركبتين ورديتين ينام في الردهة.

في الثالثة بعد الظهر كانت الستائر السميكة في غرفتها قد أسدلت، وفي ذلك المكان شبه المعتم عمَّ صمت بارد لغيضة مختبئة، وكان مكاناً مناسباً للبكاء. وحالما أصبحت وحيدة، أرتجت سينورا برودنشا لينيرو كلا القفلين، وللمرة الأولى منذ الصباح تبولت بدفق متردد رفيع سمح لها أن تستعيد هويتها التي كانت قد فقدتها خلال رحلتها. بعد ذلك خلعت خفيها والحزام حول وسطها، واستلقت على جانبها الأيسر في سرير مزدوج كان موحشاً جداً وعريضاً جداً بالنسبة لها وحدها، وأرخت فيضاً آخر من دموع غزيرة فات موعدها.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تركت فيها ريوهاشا وحسب، بل كانت واحدة من المرات القلائل التي تركت فيها المنزل بعد أن تزوج أولادها وانتقلوا بعيداً، وتركوها وحيدة مع امرأتين هنديتين حافيتي القدمين ليعتنيا بجسد زوجها الخاوي الروح. نصف حياتها قضتها في غرفة النوم في مواجهة بقايا الرجل الوحيد الذي أحبته طوال حياتها، والذي استمر في غيبوبة لثلاثين سنة تقريباً، وهو مستلق على فراش من جلد الماعز في السرير الذي كانا يمارسان فيه الحب سنوات شبابهما.

خلال تشرين الأول الفائت، فتح المريض عينيه في لمحة مفاجئة من صفاء الذهن، تعرف على عائلته، وأراد منهم أن يرسلوا في طلب مصور. أدخلوا الرجل العجوز من الحديقة برفقة الوسادة الجلدية الطويلة والأكمام السوداء لآلة التصوير ولوحة المغنزيوم وذلك لأخذ الصور في المنزل. رتب الرجل المريض توزيع الصور بنفسه قائلاً: " واحدة لبرودنشا، ذكرى الحب والسعادة اللذان قدمتهما لي في الحياة ". وقد أخذت هذه مع ومضة المغنزيوم الأولى. ثم أردف: " والآن اثنتان أخريان لبنتيّ الغاليتين، برودنشيتا و ناتاليا " وتم التقاطهما أيضاً. ثم قال: " وواحدتان أخريان لابنيّ اللذان جعلهما حسن محاكمتهما وعاطفتهما مثالاً يحتذى في العائلة " وهكذا استمر حتى أنهى المصور

أفلام التصوير وكان عليه أن يعود إلى المنزل للتزود بالمزيد. في الساعة الرابعة، عندما دخان المغنزيوم والحشد الصاخب من الأقارب والأصدقاء والمعارف، الذين تقاطروا للحصول على نسخهم من الصور، جعلوا الجو في غرفة النوم خانقاً لا يطاق، عند ذاك بدأ الرجل المريض يفقد وعيه في الفراش، ولوح مودعاً لكل منهم وكأنه كان يمحو نفسه من العالم من على حاجز باخرة.

لم يكن موته راحة للأرملة كما كان يأمل الجميع. بل على العكس، فقد كانت محزونة جداً، حتى أن أولادها قدموا وتجمعوا حولها لكي يسألوها ما الذي يمكنهم عمله كي يريحوها، وقد أجابت أن كل ما تريده هو أن تسافر إلى روما وتقابل البابا.

قالت لهم: " سوف أذهب وحيدة وسألبس رداء القديس فرنسيس، فقد نذرت نذراً " .

مصدر الرضا الوحيد الذي بقي من تلك السنوات من السهر والصلاة كان مسرة البكاء. على متن السفينة عندما توجب عليها أن تتقاسم القمرة مع فتاتين من كلاريتا تركاها بعد ذلك لينزلا إلى شاطئ مرسيليا، كان عليها أن تتأخر في الحمام لكي تبكي دون أن تُرى. وبالمحصلة فإن غرفة الفندق في نابولي كانت المكان الوحيد المناسب لها منذ أن غادرت ريوهاشا حيث أضحى بإمكانها أن تبكي إلى أن يرتاح قلبها. وهكذا كان بمقدورها البكاء حتى اليوم التالي، عندما يغادر القطار إلى روما، لو لم تقرع صاحبة الفندق على بابها في السابعة لتقول لها بأنها إذا لم تذهب إلى المطعم في الحال فلن يكون أمامها شيء لتأكله.

قام البواب بمرافقتها. نسيم فيه بعض البرودة كان قد بدأ يهب من البحر، ومع ذلك فقد كان هناك عدد من السابحين على الشاطئ تحت شمس السابعة الواهنة. تبعت سينورا برودنشا لينيرو البواب على طول

منطقة عسيرة الاجتياز عبر شوارع ضيقة شديدة الانحدار كانت قد بدأت تستيقظ للتو من قيلولة يوم الأحد، وبعد ذلك وجدت نفسها تحت تعريشة مظللة تنتشر على أرضيتها طاولات مغطاة بقماش ذي مربعات حمراء وعليها مرطبانات زجاجية استعملت كأصص أزهار ورقية. كان رفقاؤها في الطعام في تلك الساعة المبكرة من المساء فقط الخدم والخادمات وكاهن يبدو عليه الفقر الشديد يأكل الخبز والبصل على طاولة سوداء. عندما دخلت لاحظت أن عيون الجميع قد استقرت على ردا ها البني، لكن ذلك لم يؤثر عليها، لأنها كانت تعرف أن السخرية والازدراء جزء من كفارتها. من ناحية أخرى، فإن الخادمة هناك أثارت فيها ومضاً من الشفقة لأنها كانت شقراء وجميلة وتتكلم كما لو أنها تغني، وقد اعتقدت سينورا برودنشا لينيرو بأن الأمور لا بد وأن تكون سيئة جداً في ايطاليا بعد الحرب طالما أن فتاة مثلها عليها أن تخدم الزبائن في مطعم. لكنها شعرت بالراحة تحت التعريشة المزهرة، ورائحة اليخنة المطهوة مع أوراق الغار القادمة من المطبخ أيقظت فيها الشعور بالجوع الذي كان قد أرجئ نتيجة إزعاجات النهار. وللمرة الأولى منذ مدة طويلة لم يكن لديها الرغبة بالبكاء.

ومع ذلك فإنها لم تستطع أن تأكل ما ترغبه، ومرد ذلك إلى صعوبة تفاهمها مع الخادمة الشقراء من ناحية، برغم أنها كانت لطيفة وصبورة، ومن ناحية أخرى لأن بعض العصافير الغريدة الصغيرة، من النوع الذي يوضع في الأقفاص في بيوت ريوهاشا، كانت طبق اللحم الوحيد الممكن تناوله. الكاهن الذي كان يأكل في الزاوية، والذي تصرف كمترجم لهما في النهاية، حاول أن يجعلها تفهم بأن الظروف الطارئة الناجمة عن الحرب لم تنتهِ بعد في أوربا، وفي الواقع فإن وجود عصافير الغابات الصغيرة لكي تُأكل كنوع من الضرورة يجب أن ينظر إليه كمعجزة. لكنها دفعت الطبق بعيداً وهي تقول:

" بالنسبة لي، فالأمر سيكون شبيهاً بأكلي لواحد من أولادي ".

وهكذا كان عليها أن تحسم المسألة مع القليل من حساء الشعيرية وطبقاً من القرع المغلي مع قطع صغيرة من شرائح لحم الخنزير الكريهة المذاق وكسرة من الخبز قاسية كالرخام. وبينما كانت تأكل اقترب الكاهن منها وطلب باسم الإحسان أن تدفع عنه ثمن فنجان من القهوة ثم جلس بجانبها. لقد كان يوغسلافياً، لكنه سافر أحد المرات في بعثة إلى بوليفيا ويتكلم أسبانية معبرة تعوزها الرشاقة. وقد بدا لسينورا برودنشا لينيرو بأنه مجرد إنسان عادي بدون أي مسحة من الغفران الإلهي. وقد لاحظت أن لديه يد ين خرقاوين وأظافر وسخة متكسرة، ونفساً يعبق برائحة البصل دائم الانبعاث حتى بدا وكأنه ميزة شخصية له. لكنه كان في خدمة الرب، برغم كل شيء، وقد كان من مدعاة السعادة لها، وهي بعيدة جداً عن المنزل، أن تقابل أحد الأشخاص الذين يمكنها التحدث معهم.

كانا يتحدثان حول تمضيتهما لأوقات الفراغ، غافلين عن الضجيج الثقيل الصاخب الذي بدأ يملأ المكان حولهما مع جلوس المزيد من الناس على الطاولات الأخرى. كان لدى سينورا برودنشا لينيرو رأياً مسبقاً ونهائياً حول ايطاليا: إنها لم تحبها. وذلك ليس لأن الرجال كانوا بذيئين إلى حد ما، أو لأنهم يأكلون العصافير المغردة الصغيرة، وبشكل يفوق المعقول، بل لأنه كانت لديهم تلك العادة السيئة حيث يتركون الناس الغرقى لتجرفهم المياه.

الكاهن الذي كان قد طلب شراب الغرابا على حسابها مع القهوة، حاول أن يجعلها تدرك سطحية آرائها. فخلال الحرب كانوا قد قدموا خدمات فعالة في مجالات الإنقاذ، التعرف على هوية الضحايا، والدفن في مقابر تتبع الكنيسة لكثير من الضحايا الغرقى الذين وجدوا طافين في خليج نابولي.

ثم قال الكاهن مختتماً حديثه: " لقرون عديدة تعلم الإيطاليون بأن هناك حياة واحدة، وقد حاولوا أن يعيشوها بأفضل ما يستطيعون. وهذا ما جعلهم حذري الأفعال وكثيري الكلام، لكن هذا أبعدهم أيضاً عن القسوة والوحشية.

قالت له: " هم حتى لم يوقفوا السفينة ! ".

رد عليها الكاهن: " ما فعلوا هو أنهم خابروا سلطات الميناء، وهكذا قام أولئك بانتشاله ودفنه طبقاً للمراسيم الكنسية ".

تبادلا الحديث بوجهتي نظر مختلفت ين. انتهت سينورا برودنشا لينيرو من طعامها وعند ذلك فقط انتبهت إلى أن كل الطاولات الأخرى كانت مشغولة. وعلى الطاولات التي بمقربة منهما، جلس سائحون شبه عراة يأكلون بصمت، كان بينهم عدد من النساء والرجال كل اثن ين منهم يقبلان بعضيهما بصمت دون أن يأكلا. على الطاولات التي في المؤخرة، بجانب البار، كان هناك أناس من الجوار يلعبون النرد ويشربون خمراً لا لون له. وفهمت سينورا لينيرو بأن لديها سبباً واحد اً فقط يجعلها تقيم في ذلك البلد الفاسد.

سألت الكاهن: " هل تعتقد بأنه سيكون من الصعوبة بمكان رؤية البابا؟ ".

أجاب الكاهن أنه لا يوجد في الصيف أمر أسهل من ذلك. كان البابا يقضي عطلته في كاستل غاندولفو وفي عصر يوم الأربعاء يجري لقاءً عاماً مع الحجاج الآتين من كل أرجاء العالم. ورسم الدخول زهيد جداً: عشرون ليراً.

ثم سألته: " وكم يطلب حتى يسمع اعترافات شخص ما؟ " .

" الحبر الأعظم لا يسمع اعترافات " قال الكاهن ذلك وهو يحس بالصدمة كونها قالت كلاماً غير لائق، ثم أضاف: " ماعدا اعترافات الملوك بالطبع ".

قالت له: " لا يمكنني أن أفهم لماذا يرفض أداء معروف كهذا لامرأة فقيرة قدمت من مكان بعيد جداً ".

قال الكاهن: " بعض الملوك، وبرغم كونهم ملوكاً، فإنهم يموتون وهم ينتظرون، لكن أخبريني الحكاية: لا بد أن ما قمت به هو خطيئة بغيضة كونك قمت برحلة شاقة كهذه وحيدةً لكي تعترفي إلى الحبر الأعظم ".

شرد ذهن سينورا برودنشا لينيرو للحظات، ورآها الكاهن تبتسم للمرة الأولى ثم قالت:

" بحق أمنا مريم، سأكون راضية لو كحلت عيني برؤيته فقط ". ثم أضافت مع تنهيدة بدت وكأنها قادمة من أعماق روحها: " لقد كان ذلك حلمي الذي رافقني طيلة حياتي ".

كانت في حقيقة الأمر ما تزال تشعر بالرعب والحزن، وكل ما تريده هو أن تغادر المطعم، بل إيطاليا أيضاً، وبدون أي تأخير. لا بد و أن الكاهن قد ظن بأنه حصل على كل ما يمكن الحصول عليه من المرأة المُضلَّلة، وهكذا فقد تمنى لها حظاً سعيداً وذهب إلى طاولة أخرى ليطلب وباسم الإحسان لكي يبتاعوا له فنجاناً آخر من القهوة.

عندما مشت خارجة من المطعم، وجدت سينورا برودنشا لينيرو مدينة مختلفة. كانت مندهشة لضوء الشمس الذي كان ما يزال ينير المكان في الساعة التاسعة ، وشعرت بالرعب من الحشود الصاخبة التي غزت الشوارع لتجد متنفساً في نسيم المساء. سحب النار المنطلقة من خلفية دراجات الفسبا المسعورة جعلت الحياة لا تطاق، والتي كانت تقاد من قبل رجال عراة الصدور تجلس وراءهم نساءهم الجميلات، وهن يحطن بهم من وسطهم. كانوا يتحركون بنوبات متقطعة وغير منتظمة وهم يتأرجحون يميناً ويساراً بين الخنازير المعلقة والطاولات التي يتكدس عليها البطيخ.

كان جواً احتفالياً، لكنه بدا وكأنه كارثة بالنسبة لسينورا برودنشا لينيرو. فقد تاهت عن الطريق، وفجأة وجدت نفسها في شارع مشؤوم حيث كان هناك نسوة صامتات يجلسن على مداخل بيوت متماثلة أضواؤها الحمراء الخافتة جعلها ترتعش رعباً. وكان هناك رجل حسن اللباس يضع خاتماً ذهبياً ضخماً في إصبع يده وألماسة في ربطة عنقه يتبعها على امتداد عدة بنايات وهو يقول شيئاً ما بالإيطالية ومن ثم بالإنكليزية والفرنسية وعندما لم يتلق أي جواب، أظهر لها بطاقة بريدية من رزمة أخرجها من جيبه، وبـلمحة عين استشعرت بأنها كانت تمشي في دروب جهنم.

هربت منه في رعب مطلق، وفي نهاية الشارع وجدت البحر الذي يعلوه الشفق ثانية ووصلت أنفها نفس الرائحة النتنة للمحار المتعفن الشبيهة بالرائحة المنبعثة من الميناء في ريوهاشا، وعاد قلبها إلى مكانه الطبيعي. تعرفت على الفنادق المطلية بالدهان على طول الشارع المهجور، على سيارات الأجرة الكئيبة المنظر، وعلى النجمة الأولى التي كانت تلمع كالألماسة في السماء الواسعة. في النهاية البعيدة من الشاطئ، وجدت نفسها وحيدة ومعزولة على الرصيف الداخل في البحر، والذي كانت أضواؤه الباهرة تنعكس على ظهور السفن في الميناء. هناك لاحظت السفينة التي قدمت على متنها، وأدركت بأنه لم يعد لديها أي شيء تفعله في حياتها. استدارت إلى اليسار عند الزاوية لكنها لم تستطع الاستمرار بسبب حشد صُدَّ عن التقدم من قبل جماعة من المسلحين بالبنادق. وكان هناك صف من سيارات الإسعاف وهي تنتظر وأبوابها مفتوحة خارج بناية الفندق الذي تنزل فيه.

بينما كانت تقف على أصابع رجليها وتحدق بعينيها من فوق أكتاف النظارة، رأت سينورا برودنشا لينيرو الس ياح الإنكليز ثانية. كانوا يُحملون خارجاً على نقالات الواحد تلو الآخر، وكانوا جميعهم بلا حراك

وتبدو عليهم علائم الوقار، وما يزالون يشبهون رجلاً واحداً كُرر لمرات عديدة بثيابهم الرسمية إلى حد التطرف التي كانوا يلبسونها من أجل العشاء: سراويل من الفلانيل، ربطات عنق مخططة بشكل قطري، وسترات سوداء حيث شعار كلية تريَنتي مطرزاً على صدر السترة. وبينما كانوا يُنقلون إلى الخارج كان الجيران يتفرجون عليهم من الشرفات، والناس الذين مُنعوا من التقدم في الشارع كانوا يَعدُّونهم كما لو أنهم في مدرج رياضي. لقد كانوا سبعة عشر رجلاً. وضعوا في سيارات الإسعاف كل اثنين إلى جانب بعضهما وسيق بهم بعيداً برفقة عويل صفارات الخطر.

سينورا برودنشا لينيرو، التي شعرت بأنها مُدوَّخة نتيجة تلك الأحداث الصاعقة العديدة، استقلت المصعد المحشور برواد من الفنادق الأخرى الذين كانوا يتكلمون بلغات بدا عليها طابع السحر. كان العديد منهم يترجل في كل طابق عدا الطابق الثالث، الذي كان مفتوحاً ومضاءً، لكن لم يكن هناك أي كان سواء على النضد أو على الكراسي المريحة في البهو حيث كانت قد رأت الركب الوردية لسبعة عشر رجلاً إنكليزيا نائماً. صاحبة الفندق الذي في الطابق الخامس علقت على المصيبة بهياج لا يمكن ضبطه، وأخبرت سينورا برودنشا لينيرو بالأسبانية: " لقد كانوا جميعاً موتى، لقد تسمموا من حساء المحار في وجبة العشاء. فقط تخيلي، محار في آب ! ".

ناولتها مفتاح غرفتها، و صرفت انتباهها عنها بعد ذلك وهي تقول للرواد الآخرين وبلهجتها الأم: " بما أنه لايوجد صالة طعام هنا، فإن كل من يذهب للنوم سيصبح وهو على قيد الحياة ". أدارت سينورا برودنشا لينيرو المفتاح في قفل باب غرفتها بينما كانت كتلة أخرى من الدمع تتجمع في حنجرتها. بعد ذلك دفعت طاولة الكتابة الصغيرة والكرسي المريح وصندوق أمتعتها وراء الباب لتشكل حاجزاً لا يمكن

عبوره في مواجهة رعب قادم من بلد حيث أشياء كثيرة عديدة تحصل فيه في الوقت نفسه. بعد ذلك لبست عباءة الأرملة، واستلقت في السرير على ظهرها، وتلت سبع عشرة صلاة لأجل الراحة الأبدية لأرواح سبعة عشر رجلاً إنكليزياً مسموماً.

نيسان 1980

ترامونتانا

رأيته لمرة واحدة فقط، كان ذلك في بوكاشيو، النادي الشهير في برشلونة، وذلك قبل ساعات قليلة من موته المأساوي. كانت الثانية صباحاً وكان أثناء ذلك ملاحقاً من قبل زمرة من السويديين الشباب الذين كانوا يحاولون أن يصحبوه معهم من أجل اختتام الحفلة في كاداكيس. كانوا أحد عشر سويدياً وكان من الصعب تمييزهم عن بعضهم. فهم جميعاً رجالاً ونساءً كل شخص يشبه الآخر: جميل، مع وركين ضيقين، و شعر ذهبي طويل. لم يكن عمره ليزيد عن العشرين ربيعاً، رأسه مغطى بجدائل سوداء ضاربة إلى الزرقة، وله بشرة ناعمة كتلك التي للكاريبيين الذين دربتهم أمهاتهم أن يمشوا في الظل، وعيون عربية كانت كافية لتبعث الجنون في عقول الفتيات السويديات وربما بعض الصبية كذلك. أجلسوه على طاولة البار، فبدا كدمية بكماء تتكلم من بطنها وأصبحوا يغنون له أغاني السيرناد المشهورة مترافقة بتصفيق أياديهم وهم يحاولون أن يقنعوه بالذهاب معهم. حاول أن يشرح لهم مبرراته وهو

يرتعب. تدخل أحد الأشخاص وصاح قائلاً بأن عليهم أن يتركوه وشأنه، فجابهه أحد السويديين الذي خارت قواه من الضحك هاتفاً:

" إنه ملكنا، لقد عثرنا عليه في حاوية القمامة ".

كنت قد دخلت قبل فترة وجيزة مع مجموعة من الأصدقاء، بعد حضور الحفل الموسيقي الأخير لدافيد واستراخ في صالة البالاو دي لاموسيكا، واقشعر جلدي لنوايا السويديين. فمبررات الفتى كانت مقدسة بالنسبة له. لقد عاش لفترة في كاداكيس، حيث استأجِر لكي يغني أغاني جزر الآنتيل في بار عصري، واستمر في ذلك حتى الصيف الماضي عندما هزمته الترامونتانا. تدبر أمره واستطاع أن يهرب في اليوم التالي وقرر ألا يعود أبداً سواء كان هناك ترامونتانا أم لا، وكان واثقاً بأنه إذا عاد يوماً، فإن الموت سيكون بانتظاره. لقد كان يقيناً كاريبياً لا يمكن أن يُفهم من قبل زمرة من الأسكندنافيين الملذوعين بحرارة الصيف والخمور الكاتالانية القوية في تلك الأيام، والتي تزرع الأفكار المتوحشة في القلوب.

لقد فهمته أكثر من أي شخص آخر. كانت كاداكيس واحدة من أكثر المدن جمالاً على طول شاطئ كوستابرافا، والتي ما تزال محافظة على طابعها القديم. وسبب ذلك يرجع في جزء منه إلى حقيقة أن مدخل المدينة الضيق يلتف على حافة هاوية لا قعر لها. ويحتاج المرء لرباطة جأش نادرة كي يستطيع أن يقود سيارته بسرعة تزيد عن خمسين كيلو متراً في الساعة. البيوت القديمة كانت بيضاء وخفيضة، ومبنية على نمط قرى الصيادين المتوسطية. والأبنية الحديثة بنيت من قبل معماريين مشهورين الذين احترموا التناسق الطبيعي للمدينة. في الصيف عندما تبدو الحرارة وكأنها قادمة من الصحراء الأفريقية على الجانب الآخر من الماء، تتحول كاداكيس إلى بابل جهنمية، حيث أنه وعلى مدى ثلاثة

شهور يتقاطر الس ياح من كل أنحاء أوروبا ويتزاحمون مع السكان الأصليين والأجانب الذين كانوا محظوظين حيث اشترى الواحد منهم منزلاً بسعر منخفض عندما كان ذلك ما يزال ممكناً، وذلك كي يحصل على حصة في تلك الجنة. لكن في الربيع والخريف، الفصلين ال لذين تبدو فيهما كاداكيس أكثر جاذبية، لا يستطيع أحد أن يهرب من التفكير المرعب بالترامونتانا: الريح العنيدة العاصفة القادمة من اليابسة والتي تحمل معها بذور الجنون، طبقاً لأقوال السكان الأصليين وبعض الكتاب ممن تلقوا ذلك الدرس.

كنت واحداً من أكثر الزوار المخلصين للمدينة، إلى أن داهمتنا الترامونتانا منذ قرابة خمس عشرة سنة خلت. في أحد أيام الآحاد، وفي وقت القيلولة، أتاني شعور سبقي لا يمكن تفسيره بأن أمراً ما وشيك الحدوث، لقد أحسست بالريح قبل وصولها. ثبطت عزيمتي، شعرت بالحزن دون سبب، وخالجني انطباع بأن ولديّ، اللذين لم يكونا قد تجاوزا العشر سنوات، كانا يلاحقاني حول المنزل بنظراتهما العدائية. بعد ذلك بقليل قدم البواب ومعه صندوق عدة وبعض الحبال البحرية ليثبت الأبواب والنوافذ ولم يكن مندهشاً لاكتئابي بل قال:

" إنها الترامونتانا، ستكون هنا في أقل من ساعة ".

كان رجلاً هرماً، بحاراً عتيقاً حيث كان ما يزال يرتدي سترة البحر الواقية من الماء برفقة القبعة والغليون. وما يزال جلده مسفوعاً بأملاح هذا العالم. في أوقات فراغه كان يلعب البولنغ في الساحة مع محاربين قدماء من حروب عديدة خاسرة، ويشرب بعض الشراب المسكر مع السياح في الحانات المنتشرة على طول الشاطئ، فرفقته مع رجال المدفعية الكاتالانيين أكسبته ميزة التفاهم مع متحدثي أية لغة كانت. كان يفتخر بأنه يعرف جميع مرافئ هذا الكوكب، ولكنه لا يعرف أية مدينة

داخلية. " حتى باريس فرنسا والتي وصلت شهرتها الآفاق " كما اعتاد القول. فهو لم يكن لديه ثقة في أية ناقلة لا يمكنها الإبحار.

في السنوات الأخيرة الماضية ، كان لكبر السن تأثير كبير على حالته النفسية، لم يعد يذهب إلى الشارع، بل كان يقضي معظم وقته في غرفة الحراسة، وحيداً مع أفكاره، كما اعتاد منذ زمن بعيد. كان يطبخ طعامه بنفسه في علبة معدنية فوق نار مصباح كحولي، وكان ذلك كل ما يحتاجه ليمتعنا بأطعمة شهية من مطبخ عريق. وعند الفجر يتجه ليتفقد شؤون النزلاء واحداً تلو الآخر، وقد كان واحداً من أكثر الناس كياسة ممن صادفتهم في حياتي بنبله العفوي ولطافته الخام التي تميز الكاتالونيين. كان كلامه قليلاً جداً، لكن أسلوبه كان مباشراً وواضحاً. وعندما لا يكون لديه ما يفعله، كان يقضي الساعات وهو يسجل بيانات يتنبأ بها بحصيلة مباريات كرة القدم، لكن نادراً ما يقوم بإرسالها إلى منظمي المراهنات.

في ذلك اليوم، وبينما كان يوثق الأبواب والنوافذ تحسباً للكارثة، كان يكلمنا عن الترامونتانا كما لو كانت امرأة حقودة، لكن بدونها ستفقد حياته معناها. لقد أدهشني أن ذلك البحَّار يكنُّ مثل ذاك الإعجاب لريح قادمة من اليابسة.

" إنها واحدة من القدامى أصحاب الشأن " قال البواب.

لقد أعطى الانطباع بأن سنته لا تقسم بالأشهر والأيام، بل بعدد المرات التي تهب فيها الترامونتانا. وقد قال لي مرة: " في السنة الماضية، بعد الترامونتانا الثانية بثلاثة أيام، أصبت بنوبة من التهاب القولون ". ربما هذا يشرح اعتقاده أن المرء يعمر سنوات عديدة بعد كل ترامونتانا. كان هوسه كبيراً جداً بها لدرجة أنه ملأنا شوقاً لنتعرف إليها، كما لو كانت زائراً مغوياً لا سبيل إلى مقاومته.

لم يلزمنا الانتظار طويلاً، فما أن غادرنا البواب حتى سمعنا صفيراً أخذ يزداد حدة شيئاً فشيئاً ثم تلاشى في خضم دوي هائل بدا وكأنه صوت زلزال. بعدئذٍ بدأ هبوب الريح. في البدء بعصفات متقطعة أصبحت أكثر فأكثر تواتراً إلى أن استمرت إحداها ثابتة، بلا انقطاع وبلا راحة، مع شدة ووحشية بدت خارقة للطبيعة. على العكس من أسلوب البناء الكاريبي، كانت شقتنا في مواجهة الجبل ربما بسبب الاختيار الغريب للكاتالونيين أصحاب العقلية القديمة الذين يحبون البحر، لكن لا يهتمون بالنظر إليه. وهكذا فقد ضربتنا الريح في الواجهة وهددت بسَحب الحِبَال التي توثق النوافذ معها.

لكن ما خدعني هو أن الطقس كان ما يزال محافظاً على جمال قل مثيله، بشمسه الذهبية وسما ئه الصافية المريحة للنفس. وبالتالي فقد قررت أن أخرج بالأولاد إلى الشارع لنتفرج على المحيط. أضف إلى ذلك، أنهم ترعرعوا بين الزلازل المكسيكية والأعاصير الكاريبية، وهبوب ريح مهما كانت قوتها لن تكون مثار إزعاج لهم. مشينا على رؤوس أصابعنا متجاوزين غرفة البواب ورأيناه مسمراً أمام طبق من السجق و الفاصولياء، وهو يراقب الريح من خلال النافذة. وبالتالي لم ير نا عندما خرجنا.

تدبرنا الأمر وتقدمنا طالما نحن في الجانب المحجوب عن الريح قبالة المنزل، لكن عندما وصلنا الزاوية المعرضة للريح كان علينا أن نتشبث بعمود الكهرباء كي لا تجرنا الريح القوية بعيداً. وهناك مكثنا ننظر مشدوهين في المحيط الصافي الساكن في وسط تلك الجائحة، إلى أن أتى البواب وبرفقته بعض الجيران لنجدتنا. بعدئذٍ، وفي نهاية الأمر كنا مقتنعين بأن السلوك المتعقل الوحيد كان أن نبقى في البيت إلى أن

يشاء الله غير ذلك. ولم يكن هناك أدنى فكرة لدى أي كان عن موعد حصول أمر كذاك.

عند حلول نهاية اليوم الثاني كان قد تكون لدينا انطباعٌ بأن تلك الريح المرعبة ليست ظاهرة طبيعية لكنها إهانة شخصية موجهة من قبل أحدهم تجاهنا، وتجاهنا فقط. كان البواب يزورنا مرات عديدة في اليوم، مبدياً قلقه حيال وضعنا النفسي، وجالباً معه كميات كبيرة من الفواكه والحلوى للأولاد. وفي يوم الثلاثاء على الغداء أمتعنا بطبق أرنب وحلزون، رائعة المطبخ الكاتالوني، الذي كان قد حضَّره في مطبخه المكون من حاوية من الصفيح. لقد كانت حفلة وسط الرعب.

في يوم الأربعاء، وحيث لم يكن ليحصل فيه أي شيء سوى الريح، فقد كان اليوم الأطول في حياتي. لكن لا بد وأن ذلك كان كالظلام الذي يسبق طلوع الفجر، لأننا بعد منتصف الليل استيقظنا كلنا في آن واحد، مأسورين بصمت مطبق لا يشبهه سوى صمت الموت. لم تكن هناك ورقة تهتز في الأشجار المقابلة للجبل. وهكذا فقد خرجنا إلى الشارع، قبل أن يشعل الضوء في غرفة البواب، ويضيف نكهته إلى سماء ما قبل الفجر بنجومها اللامعة، وللبحر الوامض وميضاً فوسفورياً. على الرغم من أنها لم تكن قد جاوزت الساعة الخامسة بعد، كان الكثير من السياح يحتفلون بنهاية كربهم على الشاطئ الصخري، والمراكب الشراعية كانت تجهز بالأشرعة بعد ثلاثة أيام من أداء الكفارة.

عندما خرجنا من المنزل لم نلق أي اهتمام يذكر إلى حقيقة أن غرفة البواب كانت مظلمة. لكن عندما عدنا، كان الجو يومض وميضاً فوسفورياً شأنه شأن المحيط وكانت غرفته ما تزال مغلقة. وجدت الأمر غير طبيعي وقرعت الباب، ولما لم يجب أحد قمت بدفع الباب. اعتقد أن الأولاد قد رأوه قبلي، وقد صرخوا مذعورين. الشارات المميزة للبحارة

التي كان يعلقها على رقعة مثبتة على سترته البحرية، كانت معلقة برقبته المدلاة في وسط العارضة السقفية وما فتئت تتأرجح في العصفة الأخيرة للترامونتانا.

عندما وصلت عطلتنا إلى منتصفها، شعرنا بحنين إلى بيتنا قبل الأوان، واتخذنا قراراً لا رجعة عنه بألا نعود إلى هناك ثانية، وهكذا غادرنا البلدة أبكر مما كنا قد خططنا. كان السياح قد بدؤوا يعودون إلى الشوارع، وكانت هناك موسيقا في الساحة، حيث المحاربون القدماء كانوا مثبطي الهمم ولم يستط ع الواحد منهم دحرجة الكرة باتجاه الآخر. ومن خلال النوافذ المغبرة للبار البحري استطعنا أن نلمح بعض الأصدقاء الذين نجوا وبدؤوا حياتهم من جديد في ربيع الترامونتانا المشرق. لكن كل ذلك أصبح الآن من الماضي.

ذلك ما يفسر أنه في تلك الساعات الكئيبة قبل حلول الفجر في بوكاشيو، لم يفهم أحد كما فهمت أنا الرعب الذي يتملك شخصاً ما وهو يرفض أن يعود إلى كاداكيس لأنه على ثقة بأنه سيموت. لكن لم يكن هناك سبيلٌ لثني السويديين عن قرارهم، والذين سحبوا الفتى بعيداً برغبة أوروبية لعلاجه بالقوة من خرافات ومعتقدات إفريقية، وسط تصفيق أو استهجان الزبائن المنقسمين. ودفعوا الفتى بأياديهم إلى عربة الفان المليئة بالسكارى وبدؤوا رحلة سفر طويلة إلى كاداكيس.

استيقظت على صوت جرس الهاتف صبيحة اليوم التالي. كنت قد نسيت أن أسدل الستائر عند عودتي إلى البيت من الحفلة. ولم يكن لدي أدنى فكرة عن الوقت، لكن ضوء الصيف المشرق كان قد ملأ غرفة النوم. الصوت القلق على الهاتف، والذي لم أستطع التعرف عليه في البداية أزال غشاوة النوم عن ذهني.

" أتتذكر الفتى الذي أخذوه إلى كاداكيس الليلة الماضية ".

لم يكن يلزمني لأسمع كلمة أخرى. عدا أنها كانت أكثر مأساوية مما تخيلت. الفتى المرعوب من عودة وشيكة إلى كاداكيس اغتنم فرصة عدم الانتباه للحظات من جانب السويديين المخبولين، وفي محاولة للنجاة من موت يتعذر اجتنابه، رمى بنفسه من عربة الفان المسرعة إلى قعر الهاوية.

كانون ثاني 1982

صيف الآنسة فوربيس السعيد

عندما عدنا إلى المنزل بعد الظهيرة، رأينا ثعبان بحر ضخماً مسمراً من رقبته على إطار الباب. كان أسود ويلمع لمعاناً فوسفورياً وبدا مثل تعويذة غجرية بعينيه اللت ين كانتا ما تزالا تبرقان وأسنانه الشبيهة بالمنشار في فكيه الفاغرين. كنت أثناءها في قرابة التاسعة من عمري، ونتيجة لرؤية ذلك المنظر أصبت بهذيان ورعب شديدين أفقداني صوتي. لكن أخي الذي كان يصغرني بسنتين، رمى علب الأكسجين، الأقنعة، والزعانف، وولى هارباً، وهو يصرخ في ذعر. سمعته الآنسة فوربيس من على الدرجات الحجرية المتعرجة التي تتلوى على طول الحيد البحري

الواصل من الرصيف إلى البيت، وركضت إلينا مسرعة، وهي تلهث وقد شحب لونها، وما كان عليها إلا أن ترى الحيوان المصلوب على الباب لتفهم سبب رعبنا. كانت دائماً تقول بأنه عندما يتواجد صبيَّان معاً فإن كليهما يتحملان ذنب ما فعله أحدهما بمفرده، وهكذا فقد وبَّختنا نحن الاثنين بسبب الصرخات التي بدرت من أخي وتابعت إسماعنا عبارات التأنيب لضعف قدرتنا على ضبط نفسينا. كانت تتكلم بالألمانية وليس الإنكليزية التي اتفق على الحديث بها في عقد تعليمها لنا، ربما لأنها كانت هي أيضاً خائفة ورفضت أن تعترف بذلك. لكن حالما ضبطت أنفاسها عادت إلى إنكليزيتها الجامدة وهوسها التربوي.

" إنه أنقليس موراينا اليوناني " ثم أضافت: " إنه دعي كذلك لأنه كان مخلوقاً مقدساً عند قدماء الإغريق ".

فجأة ظهر أوريستي من خلف نباتات الأغاف، وهو فتىً من الأهالي المحليين الذي كان قد علمنا كيف نسبح في المياه العميقة. كان يرتدي قناع الغطس على جبهته، وبدلة سباحة من مقاس صغير جداً، وحزاماً جلدياً يحمل ستة سكاكين من أحجام وأشكال مختلفة، فهو لم يكن يتخيل طريقة أخرى للصيد تحت الماء إلا الانخراط بمعركة مباشرة مع فريسته. كان في حوالي العشرين من عمره ويصرف وقتاً في قاع البحر أكثر مما يقضيه على الأرض الصلبة، وبرفقة محرك ديزل ينفث دائماً نفطاً وهباباً يلطخ جسده، بد ا أشبه ما يكون بحيوان بحري. عندما رأته الآنسة فوربيس للمرة الأولى أخبرت والدي بأنه من المستحيل تخيل كائن بشري أكثر جمالاً منه. لكن جماله لم ينقذه من قسوة انتقادها: فهو أيضاً كان عليه أن يتحمل التقريع، وبالإيطالية، لأنه قام بتعليق أنقليس المواري على الباب، وبدون أي سبب سوى أن يفزع الأولاد. بعد ذلك

أمرته الآنسة فوربيس بأن ينزله إلى الأرض مرافَقاً بالاحترام اللائق بمخلوق له مكانة ميثولوجية، ثم طلبت بأن نحضِّر المائدة للعشاء.

قمنا بذلك دون إبطاء، محاولين ألا نرتكب أدنى خطأ، لأنه بعد أسبوعين من حكم الآنسة فوربيس كنا قد تعلمنا بأنه لا شيء أكثر صعوبة من مزاولة فن الحياة. وبينما كنا نستحم في الضوء الخافت للحمام، عرفت بأن أخي كان ما يزال يفكر في المووراي. قال لي: " إن له عينين كعيون البشر " رددت بالإيجاب، لكنني جعلته يفكر بشيء آخر واستطعت أن أغير الموضوع حتى أنهي الحمَّام. ومع ذلك عندما خطوت خارجاً من تحت الدوش طلب مني أن أبقى بصحبته.

قلت له: " لكن ما زال الوقت نهاراً ".

فتحت النافذة، كان الزمان منتصف آب، ومن خلال النافذة كنت تستطيع أن ترى السهل اللاهب ذ ا الشكل الهلالي الممتد على طول الطريق الواصل إلى الجانب الآخر من الجزيرة، وكانت الشمس قد بدت وكأنها توقفت وسط السماء.

أجابني أخي: " لا تسألني عن تبرير، أنا خائف من كونه مقدس اً وحسب ".

لكن عندما جلسنا إلى طاولة الطعام بدا هادئاً، وأنجز كل الأمور بعناية شديدة فاستحق إطراءً خاصاً من الآنسة فوربيس ونقطتين إضافيتين في سجل السلوك السليم. وأنا بالمقابل خسرت نقطتين من النقاط الخمسة التي كسبتها سابقاً، لأنني في الدقيقة الأخيرة سمحت لنفسي لأن أهرول وأدخل غرفة الطعام مقطوع الأنفاس. كل خمسين نقطة كانت تخولنا لأن نحصل على حصة مضاعفة من الحلوى، لكن أياً منا لم يكسب أكثر من خمس عشرة درجة. لقد كان شيئاً مخزياً لنا

حقاً، لأننا لن نتذوق ثانية حلوى لذيذة الطعم كتلك التي تصنعها الآنسة فوربيس.

قبل أن نبدأ تناول وجبة العشاء، كان يتوجب علينا أن نقف ونصلي خلف أطباقنا الفارغة. لم تكن الآنسة فوربيس كاثوليكية، لكن العقد الذي وقعته يشترط بأنها سوف تجعلنا نصلي ست مرات في اليوم، وقد تعلمت صلواتنا لكي تفي بتلك الشروط التي تعهدت بالوفاء بها. بعدئذٍ يجب علينا نحن الثلاثة أن نجلس، ونمسك أنفاسنا أنا وأخي بينما هي تتفحص سلوكنا وبأدنى التفاصيل، وعندما يبدو لها أن كل شيء قد تم على أحسن وجه تقرع الجرس. عندئذٍ تدخل الطاهية فولفيا فلامينيا، وهي تحمل حساء الشعيرية السرمدي التقديم في ذلك الصيف البغيض.

عندما كنا لوحدنا مع الأبوين في البداية، كانت أوقات تناول الطعام مهرجانات بالنسبة لنا، فولفيا فلامينيا تقهقه وهي تدور حول الطاولة لخدمتنا بميلها الفطري لإثارة الفوضى والذي كان يدخل المرح على حياتنا، وبعد ذلك تجلس معنا وتأكل لقمة صغيرة من طبق كل منا. لكن منذ أن أصبح مصيرنا بيد الآنسة فوربيس، صارت تقوم على خدمتنا بصمت كئيب جداً بحيث أصبح بمقدورنا سماع فوران الحساء وهو يغلي في السلطانية. أصبح الواحد منا وهو مستند على ظهر الكرسي وعموده الفقري في غاية الاستقامة، يمضغ عشر مرات على أحد جوانب فمه وعشر أخرى على الجانب الآخر، لا نحول أعيننا عن المرأة الحديدية الخريفية الواهنة التي تتلو علينا دروساً في آداب السلوك عن ظهر قلب. لقد صار الأمر شبيهاً بقداس يوم الأحد، لكن بدون أن نجد السلوى في غناء الناس.

في اليوم الذي وجدنا فيه أنقليس المورای معلقاً على الباب، تحدثت لنا الآنسة فوربيس عن واجباتنا الوطنية . بعد تناول الحساء، فولفيا

فلامينيا والتي كانت تبدو وكأنها تطفو على أثير مخلخل يُحدثُه صوت معلمتنا، قدمت لنا شريحة مشوية من لحم أبيض بلون الثلج وذ ي رائحة مثيرة. أنا دائماً أفضل اللحم على أي طعام آخر في الأرض أو في السماء، وما استدعاه من ذكرى عن بيتنا في غواكامايال أراح قلبي. لكن أخي رفض الطبق بدون أن يتذوقه وقال:

" أنا لا أحبه ".

قطعت الآنسة فوربيس إلقاء درسها وقالت له:

" أنت لا تعرف إن كنت تحبه أم لا. فأنت حتى لم تذقه ".

ومضة تحذير صدرت من عينيها إلى الطاهية لكن الأمر كان متأخراً جداً.

" المورای هو أشهى طعام في العالم يا أخي " قالت له فولفيا فلامينيا ذلك ثم أضافت: " جربه وسترى" .

حافظت الآنسة فوربيس على هدوئها، حدثتنا بأسلوبها التلقيني الصارم بأن المورای كان يعتبر طعاماً مترفاً للملوك في العهود القديمة، وكان المحاربون يتصارعون للحصول على صفراء كبده لأنها تمنحهم شجاعة خارقة. بعد ذلك بهنيهة كررت مقولتها بأن الطعم المستساغ لا يتم تقبله نتيجة استعداد فطري ولا يعلَّم في أي ة مرحلة عمرية، لكنه يفرض على المرء منذ الطفولة. ومن هنا لم يعد لدينا أية حجة لامتناعنا عن الطعام. لقد تذوقت المورای قبل أن أعرف ما الطعام الذي كنت آكله، وتذكرت ذلك التناقض بعدئذٍ وإلى الأبد: لقد كان سلس الأكل يشعرك إلى حد ما بالتراخي، ومع ذلك فإن صورة الثعبان المسمر على إطار الباب كانت أكثر إخضاعاً من شهيتي. بذل أخي جهداً خارقاً لكي يمضغ لقمته الأولى، لكنه لم يستطع احتمال ذلك، وتقيأ ما أكله.

قالت له الآنسة فوربيس وهي ما تزال محافظة على هدوئها: "
عليك بالذهاب إلى الحمام، اغتسل جيداً وعد ثانية إلى الطعام ".

شعرت بأسى عميق تجاهه، لأنني كنت أعرف مدى الصعوبة التي يجدها في اجتياز البيت بأكمله في هذه العتمة المبكرة ويمكث وحيداً في الحمام الوقت الذي يحتاجه لكي يغتسل. لكنه عاد مبكراً جداً وهو يلبس قميصاً نظيفاً، شاحب الوجه، ويرتعش من داخله ، وتحمل بصبر جميل التفحص الصارم لمدى نظافته. بعد ذلك قطعت الآنسة فوربيس شريحة من المورای وأمرتنا بأن نتابع طعامنا. تدبرت أمري ونجحت في أخذ لقمة ثانية. لكن أخي لم يفعل ذلك حتى أنه لم يلتقط الشوكة والسكين وقال:

" إني لن آكله ".

كان تصميمه شديداً إلى درجة أن الآنسة فوربيس تراجعت قائلة:

" حسناً، لكنك سوف لن تحصل على الحلوى ".

شعور أخي بالارتياح ملأني شجاعة. وضعت الشوكة والسكين بشكل متصالب على الطبق، تماماً كما علمتنا الآنسة فوربيس أن نفعل عندما ننهي طعامنا وقلت:

" وأنا لا أريد الحلوى أيضاً ".

قالت الآنسة فوربيس: " وأنت لن تشاهد التلفزيون إذاً ".

أجبتها: " ونحن لن نشاهد التلفزيون " .

وضعت الآنسة فوربيس منديلها على الطاولة، وجلسنا نحن الثلاثة لنصلي. بعد ذلك أمرتنا بالذهاب إلى غرفة نومنا، مع تنبيهنا بأن علينا أن نكون نياماً في الوقت الذي تنهي فيه طعامها. كل نقاطنا المتعلقة بالسلوك السليم كانت قد شطبت. وأصبح لزاماً علينا أن نكسب عشرين نقطة أخرى لكي نستطيع التمتع بكعكها بالقشدة، وبكعكها المحشو

بالمربى والمنكه بالفانيليا، وبفطائر البرقوق الرائعة، والتي لن نتذوق شبيهاً لها لبقية حياتنا.

فترة عطلتنا كان مقدراً لها أن تأتي عاجلاً أم آجلاً. فلسنة كاملة كنا نتطلع إلى صيف من الحرية في جزيرة بانتيليريا، في أقصى الجنوب من صقلية، وهو ما كان لنا فعلاً خلال الشهر الأول من العطلة عندما كنا بصحبة والدينا. ما زلت أتذكر كالحلم السطح الشبيه بالشمس لصخرة بركانية، البحر السرمدي، والبيوت المطلية بالكلس من الأسفل وحتى السطح القرميدي، حيث في الليالي الصافية تستطيع أن ترى من نوافذها الوهج المنير لأضواء البيوت في أفريقيا. وبينما كنا نستكشف مع والدنا سطح البحر النائم حول الجزيرة، اكتشفنا صفاً من الطوربيدات الصفراء نصف المطمورة من زمن الحرب، أخرجنا جرة أمفورة إغريقية طولها حوالي المتر، ذات زخارف حجرية تمثل عقود أزهار وفي أعماقها ثقل من الخمر السام الموغل في القدم؛ استحم منا في حوض يتصاعد منه البخار يحتوي مياهاً معدنية ملتزة جداً بحيث تكاد تستطيع أن تمشي فوقها. لكن المفاجأة الأكثر إبهاراً لنا كانت فولفيا فلامينيا. كانت تبدو مثل أسقف مرح وكانت دائماً برفقة قطيع من القطط الناعسة التي كانت قد التقطتها في طريقها بينما هي تسير. لكنها كانت تقول بأنها تتحمل عناءها ليس بدافع الحب لكن كي لا تفترسها الجرذان. وفي الليل وبينما يشاهد والد انا برامج البالغين في التلفزيون، تأخذنا فولفيا فلامينيا إلى منزلها الذي يبعد أقل من مئة متر عن بيتنا، وتعلمنا كيف نميز خرير المياه البعيد، الأغاني، وجيشانات البكاء القادمة مع الريح من تونس. كان زوجها شاباً جداً بالنسبة لها، يعمل في الصيف في الفنادق السياحية على الطرف البعيد من الجزيرة ويأتي إلى المنزل للنوم فقط. أوريستي

كان يعيش في مكان بعيد نسبياً مع والديه، وعادة ما يظهر في الليل وهو يعلق على وسطه خيوطاً يتدلى منها السمك وسلة مليئة بسرطان البحر الطري، حيث يعلقها بعد ذلك في المطبخ ليبيعها زوج فولفيا فلامينيا في الفنادق في اليوم التالي. بعدئذٍ يعيد مصباح الغطس إلى جبهته ويصطحبنا لكي نصطاد جرذان الحقل الضخمة كالأرانب والتي تكون مستلقية وهي تنتظر فتات المطبخ. في بعض الأحيان نعود إلى المنزل بعد أن يكون أبوانا قد أويا إلى السرير، ومن الصعب علينا أن ننام وسط الجلبة التي تحدثها الجرذان وهي تتصارع على النفاية في الأفنية. لكن حتى ذلك الإزعاج كان أحد المقومات السحرية لصيفنا السعيد.

قرار استقدام مربية ألمانية كان يمكن اتخاذه فقط من قبل والدي، الكاتب الكاريبي الذي لديه من الجرأة أكثر مما لديه من الموهبة. وكونه مبهوراً برماد الأمجاد الأوربية، فهو دائماً ما بدا متلهفاً جداً للتبر ؤ من أصوله، في كتبه وفي الحياة الواقعية أيضاً، وقد استسلم إلى وهم بأنه لن يستمر أي أثر من ماضيه في أولاده. كانت أمي ما تزال متواضعة كما كان حالها عندما كانت معلمة متجولة في التا كواجيرا، ولم تتخيل أبداً بأن زوجها يمكن أن يعزو أي أمر لغير تسيير الأقدار. وبالتالي فهما لم يسألا نفسيهما من الصميم كيف ستبدو حياتهما مع امرأة بطباع صف ضابط من دورتموند منكبة على أن تغرس في عقولنا وبالقوة أكثر العادات قدماً وتقليدية في المجتمع الأوروبي، بينما كانا مع أربعين كاتباً عصرياً آخر يشاركان في ملتقى ثقافي يعقد على مدى خمسة أسابيع في جزر بحر إيجة.

وصلت الآنسة فوربيس من بالرمو في السبت الأخير من تموز على متن قارب ركاب، ومن اللحظة الأولى التي رأيناها فيها عرفنا أن

وقت الهزل قد انتهى. وصلت والجو تسوده حرارة جنوبية وهي تلبس حذاءً عسكرياً ميدانياً، ثوباً مؤلفاً من قصاصات قماش متداخلة، وشعراً حليقاً كشعر الرجال تعلوه قبعة من اللباد. تفوح منها رائحة شبيهة برائحة بول قرد. " إنها الرائحة التي تنبعث من جميع الأوربيين على مدى الصيف " قال والدنا لنا ذلك ثم أضاف: " إنها رائحة الحضارة ". لكن برغم مظهرها العسكري، فقد كانت الآنسة فوربيس مخلوقاً فقيراً يمكن أن يوقظ عطفاً من نوع ما في داخلنا لو كنا أكبر مما نحن أو لو كان لديها أي أثر من لطافة. لقد تغير العالم؛ فالساعات الست في البحر، والتي كانت بمثابة تدريب مستمر لخيالنا منذ بداية الصيف تحولت ساعة تكرر نفسها تماماً مرة بعد أخرى. عندما كنا مع والدينا كان لنا كامل الحرية بأن نقضي الوقت الذي نريده ونحن نسبح برفقة أوريستي مندهشين من الفن والشجاعة التي يواجه بها الاخطبوطات في بيئتها الخاصة المميزة بظلمة من المداد والدم، سلاحه الوحيد فقط سكاكين القتال التي يحملها معه. وقد بقي على عادته في الوصول دائماً في الساعة الحادية عشر في زورقه ذو المحرك الصغير في مؤخرته، لكن الآنسة فوربيس لم تعد تسمح له بالبقاء دقيقة أطول مما يلزمه لإعطائنا درساً في الغطس في مياه البحر العميقة. منعتنا من الذهاب إلى منزل فولفيا فلامينيا ليلاً لأنها كانت تعتبر ذلك رفع كلفة مفرطة مع الخدم، والساعات التي كنا نقضيها في صيد الجرذان الممتع سابقاً أصبحت مكرسة للقراءات التحليلية لشكسبير. ونحن المعتادون على سرقة ثمار المانغو من أفنية المنازل ورشق الكلاب بالحجارة حتى الموت في شوارع غواكامايال اللاهبة، لم نكن نتصور عذاباً أقسى من أن نعيش حياة الأمراء.

لكن بعد فترة وجيزة أدركنا بأن الآنسة فوربيس لم تكن صارمة مع نفسها مثلما كانت معنا، وشكل ذلك الاكتشاف الصدع الأول في

سلطتها. في البداية كانت تمكث على الشاطئ تحت مظلة متعددة الألوان، تلبس لباس الجنود وتقرأ قصائد شيللر، بينما أوريستي يعلمنا الغطس، وبعدئذٍ تعطينا لساعات وساعات محاضرات نظرية حول السلوك اللائق في المجتمع إلى أن يحين وقت الغداء.

في أحد الأيام طلبت من أوريستي أن يصحبها في قاربه إلى متاجر الفنادق السياحية، وعادت وهي تلبس لباس بحر من قطعة واحدة بلون أسود حالك وقزحي كجلد فقمة، ومع ذلك فلم تدخل الماء إطلاقاً. أخذت حمام شمس على الشاطئ بينما كنا نسبح، ثم مسحت العرق بمنشفة لكن لم تأخذ حماماً، وهكذا وبعد ثلاثة أيام بدت مثل سرطان بحر مسلوق ورائحة حضارتها أصبحت لا تطاق.

في الليل كانت تعطي متنفساً لمشاعرها. من البدايات الأولى لحكمها كنا نسمع شخصاً يمشي عبر البيت، وهو يتحسس طريقه في الظلام، وقد أصيب أخي بالذعر من الاعتقاد بأن يكون واحداً من الضحايا الغارقين الهائمين على غير هدى، والذين أخبرتنا فولفيا فلامينيا بأنهم كثيرون في الجوار. لكننا اكتشفنا بعد فترة وجيزة، بأن ذلك الشخص ما هو إلا الآنسة فوربيس، التي تقضي الليل وهي تعيش حياتها الواقعية كامرأة عازبة وحيدة، بينما كانت تنتقد حياة كهذه خلال النهار. في فجر أحد الأيام باغتناها في المطبخ ترتدي الثوب الليلي لطالبة مدرسة وهي تحضر حلوياتها الشهية. جسدها كله بما فيه وجهها كان مغطىً بالدقيق وكانت تشرب كأساً من خمر البورت البرتغالي بانغماس يمكن أن يُحدث صدمة للآنسة فوربيس الأخرى التي عهدناها. عند ذلك عرفنا بأنه بعد أن نأوي إلى الفراش، لا تذهب إلى غرفة نومها لكنها تخرج لتسبح سراً، أو تمكث في غرفة المعيشة حتى وقت متأخر، وهي تشاهد الأفلام الممنوعة على القاصرين في التلفزيون وبدون رفع مؤشر

الصوت. ثم تأكل الكعك كله بل وتشرب حتى من زجاجة النبيذ الخاص التي ادخرها أبي وبحرص شديد من أجل المناسبات البارزة. ومن دون أن تكترث بمواعظها عن التزمت ورباطة الجأش تقوم بالتهام كل الطعام، حاشية فمها بهوس لا يقاوم. بعد ذلك نسمع حديثها إلى نفسها في غرفتها، ثم نسمعها وهي تتلو مقاطع من " عذراء أورليان " بألمانية رخيمة، نسمع غناءها، نسمع نشيجها في فراشها حتى الفجر، وبعد ذلك تأتي إلى الفطور وعيناها منتفختان نتيجة البكاء، وقد بدت أكثر تجهماً وتسلطاً مما مضى. التعاسة التي كنا بها أنا وأخي كانت تعاسة من النادر تكرارها، لكنني كنت قد هيأت نفسي لأتحملها حتى النهاية، لأنني كنت أعرف أن رأيها وليس رأينا هو الذي سيسود في آخر المطاف. وعلى كل حال فقد جابهها أخي مسلحاً بقوة شخصيته وصيف السعادة والهناء الذي أصبح جحيماً بالنسبة لنا. حادثة أنقليس المواري كانت القشة الأخيرة. في الليلة ذاتها وبينما كنا مستلقيين في سريرينا مصغيين إلى الوقع المتواصل لخطوات الآنسة فوربيس وهي تذهب وتجيء في غرفة نومها، ترك أخي متنفساً لكل عفن الكراهية في روحه وقال:

" سوف أقتلها "

أصابني الاندهاش، ليس بسبب قراره بقدر ما هو بسبب حقيقة أني كنت أفكر بنفس الأمر منذ العشاء. وعلى كل حال فقد حاولت ثنيه عن فكرته وقلت له:

" سوف يقطعون رأسك ".

" ليس لديهم مقصلة في صقلية " قال أخي ثم أضاف: " ومن ناحية أخرى، فلن يعرف أي كان من قام بذلك ".

فكرت بجرة الأمفورة التي انتشلت من الماء، حيث الثفل من الخمر المميت كان ما يزال فيها. كان أبي قد احتفظ به لأنه كان يريد أن يجري

له تحليلاً شاملاً لكي يحدد طبيعة السم، والذي يمكن أن يكون تشكله غير عائد لانقضاء تلك المدة من الزمن. تسميم الآنسة فوربيس بتناولها الخمر سيكون سهلاً حيث لن يدور بفكر أحد بأن ذلك لم يكن بمحض المصادفة أو انتحاراً. وهكذا وعند الفجر، عندما سمعناها وقد انهارت منهكة مهزومة بالنوم نتيجة سهرها الطويل. قمنا بصب الخمر من جرة الأمفورة في زجاجة الخمر الفاخرة العائدة لأبي. حيث كنا قد سمعنا بأن تلك الجرعة كافية لأن تقتل حصاناً.

تناولنا طعامنا بحيطة في المطبخ في الساعة التاسعة، قدَّمت الآنسة فوربيس بنفسها الأرغفة اللذيذة التي تركتها فولفيا فلامينيا على سطح الموقد منذ الصباح المبكر. بعد يومين من استبدالنا الخمر وبينما كنا نتناول الفطور أفهمني أخي بومضة ذات دلالة من عينيه، بأن الزجاجة المسمومة ما زالت لم تمس على نضد المائدة. كان اليوم يوم جمعة وبعدها بقيت الزجاجة دون أن يمسها أحد فترة العطلة الأسبوعية بكاملها. بعدئذٍ وفي يوم الثلاثاء شربت الآنسة فوربيس نصف الزجاجة وهي تشاهد الأفلام الخليعة في التلفزيون.

ومع ذلك فقد قدمت يوم الأربعاء إلى الفطور في موعدها الدقيق المعتاد. وكالعادة بدا وجهها وكأنها قضت ليلة سيئة؛ ظهر القلق على عينيها من خلف النظارات السميكة، وأصبحتا أكثر قلقاً عندما وجدت في سلة الأرغفة رسالة على غلافها طوابع ألمانية. قرأتها وهي تحتسي قهوتها، حيث كانت قد أخبرتنا ولمرات عديدة بأن المرء يجب ألا يفعل ذلك، وبينما كانت تقر ؤها، ومضات من الضوء المتوهج من الكلمات المكتوبة كانت تلمع على وجهها. بعد ذلك نزعت الطوابع عن الظرف ووضعتها في السلة مع الأرغفة المتبقية حيث باستطاعة زوج فولفيا فلامينيا أخذها وإضافتها إلى مجموعته. وعلى الرغم من تلك التجربة

السيئة التي خبرَتْها منذ الصباح، فقد اصطحبتا ذلك اليوم في جولة اكتشافنا لأعماق البحر، حيث جلنا في بحر من المياه الساكنة حتى بدأ الأوكسجين في أنبوبات الغطس التي زودنا أنفسنا بها بالنفا د، وعدنا إلى المنزل دون أن نأخذ درساً في الأخلاق الحميدة. لم تبدُ الآنسة فوربيس في مزاج وردي خلال النهار وحسب، بل إنها بدت أكثر حيوية وحميمية خلال العشاء. على كل حال فإن أخي لم يستطع تحمل خيبته. حالما تلقينا الأوامر بالبدء بالأكل، دفع صحن شوربة الشعيرية من أمامه وقال بأسلوب استفزازي وهو يشير إليه:

" هذا الماء المليء بالدود يسبب لي ألماً في المؤخرة ".

بدا الأمر وكأنه رمى قنبلة يدوية على الطاولة. انقلبت الآنسة فوربيس شاحبة و بقيت شفتاها متيبستان إلى أن بد أ دخان الانفجار بالانقشاع، و تلطخت عدستا نظارتها بالدموع. بعدئذٍ خلعتها و جففتها بمنديلها، وضعت المنديل على الطاولة وهي تشعر بمرارة هزيمة مخزية، ثم وقفت وقالت:

" افعلا ما يحلو لكما، أنا غير موجودة ".

بقيت مقفلة على نفسها في غرفتها منذ الساعة السابعة. لكن قبل منتصف الليل، وعندما تظاهرنا بأننا كنا نياماً، رأيناها تتجاوزنا وهي تلبس زي طالبة المدرسة، حاملة إلى غرفة نومها نصف كعكة بالشوكولا وزجاجة بها أكثر من أربعة أصابع من الخمر المسموم. شعرت برعشة رثاء وقلت: " مسكينة الآنسة فوربيس ".

أخي الذي لم يكن قد أحس بالطمأنينة بعد قال:

" لا مساكين إلا نحن إذا لم تمت هذه الليلة ".

تحدثت مع نفسها مرة أخرى تلك الليلة ولوقت طويل، ألقت قصيدة لشيللر بصوت عالٍ مدفوعة بجنون مسعور، وانتهت بصرخة أخيرة

ملأت البيت كله . بعد ذلك تنهدت لمرات عديدة من أعماق روحها واستسلمت وهي تطلق صفرة مستمرة حزينة مثل موكب طاف على غير هدى. عندما استيقظنا كنا ما نزال منهكين من التوتر الذي تعرضنا له في الليل، كانت الشمس تسلك طريقها إلى الداخل من خلال الستائر السميكة لكن المنزل بدا وكأنه غارق في بركة ماء. بعد ذلك أدركنا بأنها قاربت العاشرة ونحن لم نوقظ بالصباح الرتيب للآنسة فوربيس. لم نسمع دفق الماء في الحمام في الساعة الثامنة، أو صوت مياه الحنفية في المغسلة، أو الضجة الناتجة عن سحب الستائر السميكة، أو الصوت المعدني لجزمتها، أو الثلاث ضربات الرهيبة على الباب بباطن كف يدها الشبيهة بيد مراقب العبيد. وضع أخي أذنه على الجدار، أوقف أنفاسه محاولاً الاستدلال على أدنى إشارة حياة من الغرفة، وفي النهاية أصدر تنهيدة حرية قائلاً:

" ذاك هو المطلوب! صوت البحر هو كل ما تستطيع سماعه ".

حضَّرنا فطورنا بأنفسنا قبل الحادية عشرة بقليل. بعد ذلك وقبل أن تصل فولفيا فلامينيا برفقة جيشها من القطط لكي تنظف البيت، نزلنا إلى الشاطئ وكل منا يحمل أنبوبتي هواء وواحدتين أخريين احتياطيتين. كان أوريستي قد سبقنا إلى الرصيف البحري، حيث كان ينظف أحشاء سمكة حفَّار تزن ستة أرطال اصطادها للتو. أخبرناه بأننا انتظرنا الآنسة فوربيس حتى الحادية عشرة، وبما أنها كانت لا تزال نائمة فقد قررنا أن ننزل إلى البحر من تلقاء أنفسنا. قلنا له أيضا أنها عانت من نوبة بكاء على طاولة العشاء الليلة الماضية، وربما لم تتم كما ينبغي وقد أرادت البقاء في السرير. تماماً وكما توقعنا، لم يكن أوريستي مهتماً بشروحنا، واصطحبنا في عملية نهبنا لقاع البحر لأكثر من ساعة بقليل. بعد ذلك قال لنا بأن علينا الصعود إلى المنزل للغداء، وغادرنا في قاربه

لكي يبيع سمكة الحفَّار في الفنادق السياحية. لوحنا له مودعين من على الدرجات الحجرية، موهمين إياه بأننا على وشك الصعود إلى البيت، وبقينا حتى اختفى وراء الجرف. عندئذٍ ركبنا أنبوبات الهواء على جسدينا وتابعنا السباحة من دون أوامر أي كان.

كان النهار ملبداً بالغيوم، وكان هناك دوي رعد متجهم عند الأفق، لكن البحر كان أملس وصافياً وكان بريقه الذاتي كافياً للرؤية. سبحنا على سطح البحر حتى محاذاة منارة بانتيليريا، بعد ذلك تجولنا مئات الأمتار باتجاه اليمين وغطسنا في البقعة التي حسبنا بأننا كنا قد رأينا فيها الطوربيدات في بداية الصيف. وبالفعل وجدناها هناك: كان يوجد ستة منها، مطلية بأصفر بلون الشمس وأرقامها المتسلسلة ما زالت كما هي لم تمس، مستلقية في القعر البركاني بترتيب محكم من الصعب أن يكون بمحض الصدفة. تابعنا الجولان حول المنارة، نبحث عن المدينة الغارقة التي أخبرتنا عنها فولفيا فلامينيا، لكننا لم نستطع العثور عليها. وبعد ساعتين، وبعد أن اقتنعنا بأنه لم يعد هناك مجاهل جديدة لنكتشفها، صعدنا إلى السطح مع الجرعة الأخيرة من الأوكسجين.

هبت عاصفة صيفية بينما كنا نسبح، واضطرب البحر، وطار سرب من الطيور المتعطشة للدم وهو يصرخ صرخات متوحشة فوق مجموعة من السمك الميت على الشاطئ. ومع ذلك وبدون الآنسة فوربيس بدا ضوء العصر جديداً تماماً وبدت الحياة هنيئة. لكن عندما انتهينا من كفاحنا وبينما كنا نصعد الدرجات المحفورة في الجرف، وجدنا حشداً من الناس في المنزل وسيارتي شرطة عند الباب، وللمرة الأولى بتنا مدركين لفعلتنا. بدأ أخي بالارتجاف وحاول أن يستدير راجعاً وهو يقول:

" لن أدخل " .

أنا بالمقابل، دارت في ذهني فكرة مشوشة مفادها أنه إذا دخلنا المنزل ونظرنا إلى الجسد فإن ذلك سيجعلنا في أمان من كل الشبهات.

قلت له: " خذ الأمر ببساطة، خذ نفساً عميقاً وفكر بأمر واحد فقط: نحن ليس لدينا علم بأي شيء ".

لم يعرنا أحد انتباهاً. تركنا أنبوبات الهواء، الأقنعة، وزعانف السباحة عند البوابة وذهبنا إلى الشرفة الجانبية، حيث جلس رجلان على الأرض بجانب حمَّالة وهما يدخنان. بعد ذلك انتبهنا إلى أنه كان هناك سيارة إسعاف عند الباب الخلفي، والعديد من الجنود المسلحين ببنادق. في غرفة المعيشة كانت هناك نسوة من الجوار، حيث كن يجلسن على كراسٍ دفعت باتجاه الحائط وهن يصلين باللهجة المحلية، بينما احتشد أزواجهن في البهو المفتوح متحدثين عن أشياء لا تمت للموت بصلة. ضغطت بقوة أكبر على يد أخي الجليدية المتخشبة ومشينا إلى داخل المنزل من خلال الباب الخلفي. كانت غرفة نومنا مفتوحة، وما زالت على حالها كما تركناها في الصباح. في غرفة الآنسة فوربيس التي كانت تلي غرفتنا، كان يقف رجل مسلح ببندقية وهو يحرس المدخل، لكن الباب كان مفتوحاً. مشينا باتجاهه بقلبين واجفين، وقبل أن تتح لنا الفرصة للنظر إلى الداخل. خرجت فولفيا فلامينيا كسهم صاعق من المطبخ وأغلقت الباب مصدرة صرخة رعب: " كرم ى لله، يا أولاد، لا تنظروا إليها! ".

كانت قد تأخرت جداً في طلب ذلك، لن ننسى لبقية حياتنا ما رأينا في تلك اللحظة الخاطفة. كان هناك شرطيا تحرٍ يقيسان المسافة ما بين السرير والجدار، بينما كان آخر يأخذ صوراً بكاميرا ذات كم أسود شبيهة بالتي يستخدمها المصورون في الحديقة. لم تكن الآنسة فوربيس في السرير المخلع. كانت ممددة على جانبها، عارية في بركة من الدم

الجاف الذي لطخت به الأرضية بكاملها، وكان جسمها مشوهاً بطعنات سكين. كان هناك سبع وعشر ون طعنة قاتلة، الوحشية التي نفذت بها توحي للمرء بأن الهجوم كان نتيجة نوبة حب لم تجد لها قراراً، وأن الآنسة فوربيس تلقتها بنفس العاطفة، من دون أن تصرخ أو تبكي، وهي تتلو أشعار شيللر بصوتها الجميل الهياب، وهي تدرك حقيقة أن ذلك كان الثمن الذي لا يرحم لصيفها السعيد.

1976

الضوء مثل الماء

في صبيحة عيد الميلاد عاد الولدان وطلبا زورق تجديف.
أجاب باباهما: " حسناً، سنشتريه عندما نقفل راجعين إلى قرطاجنة ".

كان تصميم توتو ابن السنوات التسع، وجويل بنت السبع سنوات، أكبر بكثير مما اعتقد والديهما وقالا بصوت واحد:
" لا، نحن نريده الآن وفي التو ".

قالت لهما أمهما: " كونا واقعيين فالمياه الوحيدة التي يمكن للمرء هنا أن يفكر بالملاحة فيها هي المياه الخارجة من الدوش ".

كانت وزوجها على حق، فبيتهما في قرطاجنة دي أنديز كان له ساحة تنتهي بمصطبة على الخليج، وقبو يمكن أن يتسع ليختين ضخمين. وبالمقابل هنا في مدريد، كانوا محشورين في شقة في الطابق الخامس، بناء 47، شارع قشتالة. لكن بالنتيجة فإن أياً منهما لم يكن بمقدوره الرفض، لأنهما كانا قد وعدا الأولاد بزورق تجديف كامل التجهيز مع جهاز السدسية لمراقبة ارتفاع النجوم وبوصلة فيما إذا نجحا بتفوق في مواد الدراسة في المدرسة الابتدائية، وقد تفوقا بالفعل. وهكذا فقد اشترى لهما أبوهما كل ما طلبا دون أن يخبر زوجته التي كانت أكثر امتعاضاً منه لدفع الرهان. كان قارباً جميلاً من الألمنيوم ذا شريط ذهبي عند خط الماء.

" القارب الآن في الكاراج " أعلن أبوهما ذلك على الغداء ثم أضاف: " المشكلة أنه ليس هناك من طريقة لنحضره إلى هنا سواء بالمصعد أو على الدرج، وليس هناك متسعاً إضافياً في الكاراج ".

وعلى كل حال، ففي عصر يوم السبت التالي دعا الولدان رفقاء صفيهم ا ليساعدوهما في نقل القارب إلى المنزل عن طريق الدرج واستطاعوا إيصاله إلى غرفة الخادمة.

" تهانينا، وماذا بعد " قال باباهما.

رد الولدان: " انتهى الأمر، كل ما أردناه هو أن يكون القارب في المنزل، وها هو الآن هنا ".

في مساء الأربعاء، وكالعادة في كل أربعاء، ذهب الوالدان إلى السينما. الولدان اللذان أصبحا أصحاب المنزل وساد ته، أغلقا النوافذ والأبواب وكسرا اللمبة المتوهجة في أحد مصابيح غرفة المعيشة. بدأ فيض من الضوء الذهبي دافئاً كالماء بالتدفق من اللمبة المكسورة، وقد

تركاه يجري إلى أن أصبح بعمق ثلاثة أقدام تقريباً. بعدئذٍ أطفأا التيار الكهربائي، أخرجا قارب التجديف، وأبحرا قدر ما شاءا بين الجزر داخل البيت.

هذه المغامرة الأسطورية كانت نتيجة عبارة طائشة قلتها أثناء المشاركة في نقاش حول العلاقة بين الشعر وأغراض المنزل. في ذلك الحين سألني توتو لماذا يخرج الضوء بمجرد لمس المفتاح الكهربائي. ولم يكن لدي الهمة لكي أفكر بالموضوع فقلت:

" الضوء مثل الماء، فأنت عندما تفتح الصنبور يتدفق الماء في الحال ".

وهكذا فقد تابعا الإبحار كل مساء أربعاء، يتعلمان كيفية استخدام جهاز السدسية والبوصلة، إلى أن يعود والد اهما إلى المنزل و يلاقياهما نائمين كالملائكة على الأرض الجافة. بعد عدة أشهر، وفي توقهما للذهاب أبعد من ذلك، طلبا عدة غطس جلدية: أقنعة، زعانف، أنبوبات هواء، وبنادق ضغط هوائية.

قال الأب: " إن وضعكما قارب تجديف لن تتمكنا من استخدامه في غرفة الخادمة لهو بالأمر السيئ، لكنكما تجعلان الأمر أكثر سوءاً بطلبكما لعدة غطس ".

ردت جويل: " وماذا لو حصلنا على جائزة الكاردينيا الذهبية للتفوق في الفصل الأول ؟ ".

" لا، ذلك كاف " قالت أمهما بلهجة تحذير. لكن الأب وبَّخها لكونها متصلبة.

ردت أمهما: " هؤلاء الأولاد لن يحققوا أدنى نجاح عندما يتعلق الأمر بشيء يجب عليهم اكتسابه، لكن في سبيل تلبية مطالبهم الشخصية فإنهم قادرون على فعل كل شيء حتى جلب كرسي المدرس إلى هنا إن تطلب الأمر ذلك ".

وفي النهاية لم يجب الأبوان سواء بالنفي أم بالإيجاب. لكن في شهر تموز حصل كل من توتو وجويل على جائزة الكاردينيا الذهبية وعلى شهادة التميز العام من مدير المدرسة. وفي عصر ذلك اليوم، ودون تكرار طلبهما، وجدا عدة الغطس في علبها الأصلية في غرفة نومهما. وهكذا في يوم الأربعاء التالي، وبينما كان والد اهما في السينما يشاهدان فيلم " التانغو الأخير في باريس " ملأا الشقة إلى عمق قامتين، وغاصا مثل أسماك قرش أليفة تحت الأثاث بما فيه الأسرَّة، وانتشلا من القعر المضيء أشياءً كانت قد ضاعت في ظلمات السنين.

في حفل تسليم الجوائز نهاية السنة، احتفي بالولد ين كمثل أعلى للمدرسة كلها، وتلقيا شهادات الامتياز. هذه الأثناء لم يطلبا أي شيء، لأن والديهما سألاهما ما الذي يريدانه. كانا في غاية التعقل بحيث أن كل ما أراداه كان حفلة في المنزل يحتفلان بها مع رفقاء صفيهما.

بدت السعادة على أبيهما عندما كان يجلس مع زوجته لوحدهما وقال:

" إن ذلك لدليل على رشدهما "

" من فمك إلى باب السماء " ردت الأم.

في يوم الأربعاء التالي وبينما كان والداهما يشاهدان في السينما فيلم " حرب الجزائر " رأى الناس المارون في شارع قشتالة شلالاً من الضوء يتساقط من البناء القديم المختبئ بين الأشجار. اندلق فوق الشرفات، وانسكب في شكل سيول على واجهة البناء واندفع في الشارع العريض محدثاً فيضاً ذهبياً أضاء المدينة على طول الشارع كله وصولاً إلى الجواداراما.

في استجابة لهذه الحالة الطارئة، اقتحم رجال الإطفاء الباب في الطابق الخامس ووجدوا الشقة مشتعلة بالضوء على كامل الارتفاع

وصولاً إلى السقف. الأريكة والمقاعد الوثيرة المغطاة بجلد النمر كانت تطفو في مستويات مختلفة في غرفة المعيشة، بين زجاجات البار والبيانو الضخم مع غطائه المصنوع من نسيج المانيلا والذي كان يرفرف نصف مغمور مثل سمكة شيطان بحر ذهبية. أغراض المنزل، وبمنتهى ما لديها من حس شعري، كانت تطير بأجنحتها في عنان سماء المطبخ. آلات الموسيقا الاستعراضية العسكرية التي كان يستخدمها الأولاد أثناء الرقص انجرفت بين أسماك ذات ألوان براقة هاربة من مربى أمها المائي، والتي كانت المخلوقات الوحيدة الحية والسعيدة في ذلك الاستعراض الكبير المضيء. فراشي أسنان العائلة بكاملها كانت تطفو في الحمام، ما بين الواقيات الذكرية العائدة للبابا، وعلب الكريم التي تخص الماما ونظارتها الاحتياط، وجهاز تلفزيون غرفة نوم الوالدين كان يطفو على جانبه وهو ما يزال مضبوطاً على المشهد الأخير من فيلم منتصف الليل الخاص بالكبار.

في نهاية الصالة، كان المركب يسير بمساعدة التيار والتشبث بالمجاديف، حيث كان يجلس توتو في مؤخر المركب لابساً قناعه ومعه من الهواء ما يكفيه فقط للوصول إلى المرفأ، وهو يبحث عن المنارة، وكانت جويل طافية في مقدم المركب ما تزال تبحث عن نجم القطب بواسطة آلة السدسية. كانا يجولان عائمين على طول وعرض البيت بأكمله حيث رفقاء صفيهما السبع والثلاثون كانوا مسمرين بسرمدية لحظة التبول في أصيص إبرة الراعي، بينما كانوا يغنون أغنية شعار المدرسة بكلمات تتغير لغاية الاستهزاء بالمدير وهم يختلسون كؤوس البراندي من زجاجة البابا. ولأنهم أضاؤوا مصابيح كثيرة في نفس الوقت، فقد طافت الشقة، وصف‌ان كاملان من مدرسة القديس جوليان الشافي الابتدائية غرقا في الطابق الخامس، بناء 47، شارع قشتالة. مدريد في

أسبانية مدينة قصية ذات فصول صيف سافعة ورياح جليدية شتائية، ومن دون محيط أو نهر كبير، حيث سكانها المتشبثين بالأرض بفطرتهم لم يكونوا أبداً ضليعين بعلم الملاحة في الضوء.

كانون أول 1978

أثر دمك في الثلج

عندما وصلا الحدود وقت هبوط الليل، انتبهت نينا داكونتي بأن إصبعها الذي يحمل خاتم الزفاف كان ما يزال ينزف. موظف حرس الحدود الذي كان يلبس دثاراً من الصوف الخشن يغطيه حتى قبعته المثلثة الزوايا المصنوعة من الجلد الصقيل، تفحص جوازي سفرهما على ضوء فانوس الكربيد وهو يجهد نفسه ليبقى راسخ القدمين في خضم الرياح الضارية التي تهب قادمة من جبال البيرينيه. برغم أن جوازي

السفر الدبلوماسيين كانا تماماً حسب الأصول، رفع موظف الحرس الفانوس ليتأكد من أن صورتيهما تشبه وجهيهما. نينا داكونتي كانت طفولية الملامح، بعيني عصفور سعيد، وبشرة غامقة كالمولاس ما تزال تشع بشمس كاريبية براقة في الظلام الكئيب لكانون الثاني، وكانت تلف نفسها حتى ذقنها بمعطف من فرو المنك من غير الممكن ابتياعه بالراتب السنوي لحامية حدود كاملة. زوجها بيلي سانشيز دي ألفيا، الذي كان يقود السيارة، كان يصغرها بسنة ويكاد يقاربها في الجمال، وكان يلبس سترة مربعة النقوش وقبعة البيسبول. وبخلاف زوجته، كان طويلاً ورياضياً وذا فك حديدي لسفاح رعديد. لكن الذي كان يوشي بالمنزلة الاجتماعية لكليهما هو السيارة الفضية التي كانت تطلق من داخلها نَفَساً لحيوان مفعم بالحياة، والتي لم يُرَ شبيهاً بمثلها أبداً على طول تلك الحدود المقفرة. كان المقعد الخلفي طافحاً بالحقائب التي كانت في غاية الجدة، وبصناديق هدايا عديدة ما تزال على حالها لم تفتح بعد. وكان هناك أيضاً ساكسفون التينور والذي كان يمثل شغفاً جارفاً في حياة نينا داكونتي قبل أن تستسلم للحب الصارخ لسفاح الشاطئ الحنون.

عندما أعاد حارس الحدود الجوازات الممهورة. سأله بيلي سانشيز أين بإمكانهما أن يجدا صيدلية لكي يعالج إصبع زوجته، وصاح الحارس بصوت شق الريح بأن عليهما أن يسألا في هنديه على الجانب الفرنسي من الحدود. لكن الحراس في هنديه كانوا داخل غرفة حراسة زجاجية دافئة جيدة الإضاءة، وجلَّ ما أرادوا أن يروا هو حجم ونوع السيارة لكي يُسمح لهما بدخول فرنسة بتلويحة من أياديهم. ضغط بيلي سانشيز على بوق التنبيه لمرات عدة، لكن الحرس لم يفهموا أنه كان يريد أن يكلمهم، وفتح واحد منهم النافذة وصرخ بالفرنسية بصوت أكثر ضراوة من الريح نفسها:

" تباً ! تابعوا إلى داخل البلد ! ".

عندئذٍ خرجت نينا داكونتي من السيارة متدثرة بمعطفها الذي يلفها حتى أذنيها وسألت الحارس بفرنسية فصيحة أين يمكن أن يجد المرء صيدلية. كعادته أجاب الحارس وفمه مملوء بقطعة من الخبز بأن الأمر ليس من شأنه، وخصوصاً في عاصفة كهذه ثم أغلق النافذة. لكن بعدئذٍ نظر باهتمام أكبر إلى الفتاة المتدثرة بوميض المنك الطبيعي وهي تلعق إصبعها المجروحة، وشعر بأن عليه أن يتعامل معها كطيف سحري في تلك الليلة الرهيبة، فقد تغير مزاجه في التو والحال. شرح لها بأن المدينة الأقرب هي بياريتز، لكن في منتصف الشتاء، وفي خضم تلك الريح التي تعوي كالذئاب، فربما لن يجدا صيدلية مفتوحة حتى بايونيه التي هي أبعد قليلاً.

ثم سألها: " هل هو خطير ".

" الأمر جد بسيط " أجابت نينا داكونتي، وهي تبتسم وتريه الإصبع الذي يحمل الخاتم الألماسي والخدش الذي لا يكاد يُرى والناتج عن وردةٍ بساقٍ مقصوصةٍ ثم أضافت:

" إنه مجرد شوكة ".

قبل أن يصلا بايونيه، بدأ الثلج بالتساقط ثانية. لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة، لكنهما وجدا الشوارع خاوية والمنازل مغلقة نظراً لضراوة العاصفة، وبعد أن جالا العديد من الشوارع ولم يجدا صيدلية، قررا متابعة السير. قرارٌ أسعد بيلي سانشيز. فلديه هوس لا يشبع بالعربات النادرة وأبٌ ذو شعور كبير بالذنب ومصادر أكبر من كافية ليرضي له نزواته، وهو لم يقدْ في حياته أبداً عربة تماثل البينتلي ذات الغطاء القابل للفتح التي قدِّمت له كهدية عرس. كانت نشوته عارمة جداً وهو يقود بحيث أنه بقدر ما تطول مدة قيادته للسيارة بقدر ما يقل إحساسه بالتعب. لقد أراد الوصول إلى بوردو تلك الليلة. كانا قد حجزا جناحاً خاصاً بالعرائس في فندق " سبلينديد " ولن تستطيع كل الرياح

المعترضة أو الثلج الذي في السماء أن يجعله يقفل راجعاً. بالمقابل فإن نينا داكونتي كانت تشعر بالإنهاك، وبالأخص في الامتداد الأخير لتلك الطريق الطويلة المتجهة من مدريد إلى فرنسا، حيث كان طرف الجرف ملائماً للماعز الجبلي وكانت العربة تبدو وكأنها منخوسة بالعواصف البردية. وهكذا بعد بايونيه لفت منديلاً حول خاتم الزواج، وهي تعصره بقوة لتوقف الدم الذي كان ما يزال ينزف، واستسلمت لنوم عميق. لم يلاحظ بيلي سانشيز ذلك حتى قرابة منتصف الليل، عندما انتهى سقوط الثلج، والرياح التي كانت تعصف بأشجار الصنوبر توقفت فجأة، والسماء فوق المروج المعشبة امتلأت بنجوم باردة. كان قد تجاوز أضواء بوردو النائمة لكنه توقف فقط لكي يملأ خزان الوقود في محطة على طرف الطريق، فهو ما يزال لديه من الطاقة ما يكفي لكي يصل باريس دون أي توقف للاستراحة. كان شديد الابتهاج بتلك الدمية الكبيرة التي يبلغ ثمنها خمساً وعشرين ألف جنيه بحيث أنه حتى لم يسأل نفسه إن كان المخلوق المتوقد جمالاً الذي ينام بقربه – انتقعت العصابة على إصبع الخاتم بالدم وانثقب حلم مراهقتها لأول مرة ببروق ساطعة من عدم اليقين – يشاركه نفس الشعور أيضاً.

كانا قد تزوجا منذ ثلاثة أيام مضت، وعلى بعد عشرة آلاف كيلومتر في قرطاجنة دي أنديز، وسط دهشة والديه، وتبديد لكل مخاوفها، وبمباركة شخصية من رئيس الأساقفة. لم يكن بمقدور أحد غيرهما أن يفهم الأسس الحقيقية أو يعرف أصول ذلك الحب غير المتوقع. لقد بدأ ذلك قبل الزواج بثلاثة أشهر، في يوم أحد، بجانب البحر، عندما اقتحمت ثلة بيلي سانشيز غرف تغيير الملابس الخاصة بالنساء على شاطئ ماربيلا. كانت نينا داكونتي قد بلغت الثامنة عشر للتو، وقد عادت للوطن من مدرسة شاتيلينيه في سان بليز، سويسرا، وهي تتكلم أربع لغات بطلاقة، وب مهارة في العزف على الساكسفون،

وكان ذلك أول يوم أحد لها على الشاطئ منذ عودتها. كانت قد تجردت من كامل ملابسها وكانت على وشك أن تضع على جسدها لباس البحر عندما اندلعت صرخات القرصان وبدأ الفرار الجماعي مصحوباً بالذعر في أكواخ التبديل المجاورة. لكنها لم تفهم ما الذي يجري إلى أن خُلع مزلاج بابها من مكانه ورأت أجمل قاطع طريق يمكن تخيله واقفاً أمامها. لم يكن يلبس شيئاً سوى سروال تحتيّ خيطيّ من قطعتين من جلد النمر الاصطناعي، و كان ذو جسد واثق مرن، وشعر ذهبي كمثل الذين يعيشون بجانب المحيط. كان يضع حول رسغه الأيمن قلادة معدنية كتلك الخاصة بالمصارعين الرومان، وحول قبضته اليمنى لف سلسلة معدنية يستخدمها كسلاح مهلك، وحول رقبته علق ميدالية خالية من نقش قديس، حيث كانت ترتعش بصمت مع خفقان قلبه. كانا قد درسا معاً في نفس المدرسة الابتدائية وكسرا العديد من أوعية البيناتا الفخارية المعلقة بالسقف والمليئة بالهدايا والحلوى في نفس حفلات أعياد الميلاد، فهما قدما معاً من العائلات الريفية التي أصبحت تتحكم بقدر المدينة كما تشاء منذ أيام الاستعمار، لكنهما لم يرَ أحدهما الآخر ولسنوات عديدة حيث أنهما لم يتعرفا على بعضيهما للوهلة الأولى. بقيت نينا داكونتي واقفة بلا حراك بدون أن تفعل شيئاً لتخفي عريها. بعدئذٍ قام بيلي سانشيز بأداء طقوسه الصبيانية: خفض سروال جلد النمر القصير وأراها رجولته الشامخة بامتياز. نظرت إليه مباشرة، وبدون أن تبدي أية علامة من الاندهاش، وقالت وهي تحاول أن تخفي هلعها:

" لقد رأيت منها ما هو أكبر وأشد صلابة، لذلك فكر ثانية بالذي تفعله، فمعي عليك أن تؤدي أفضل من رجل أسود ".

في الحقيقة لم تكن نينا داكونتي عذراء وحسب، بل إنها حتى تلك اللحظة لم تكن قد رأت رجلاً عارياً، ومع ذلك فقد كان تحديها ذا جدوى. جُلَّ ما استطاع بيلي سانشيز أن يفكر به هو أن يضرب بقبضته

الملفوفة بالسلسلة على الحائط ويكسر يده. أخذته معها في سيارتها إلى المشفى، وبقيت تعتني به في فترة نقاهته، وفي النهاية تعلما معاً كيف يمارسا الحب بالشكل الصحيح. قضيا بعد ظهيرات حزيرانية قاسية لا تعرف الكلل في التراس الداخلي من المنزل الذي مات فيه ستة أجيال من الأسلاف الشهيرين لنينا داكونتي، وهي تعزف أغان شعبية على الساكسفون، وهو ويده في الجبيرة، ينظر إليها من الأرجوحة الشبكية بانشداه لا يخمد أو اره. كان للمنزل نوافذ لا عديد لها تمتد من الأرضية وحتى السقف، مواجهة للمياه الساكنة النتنة للخليج، وكانت تلك النوافذ الأكبر والأقدم في مقاطعة لاماغنا، والأكثر بشاعة دون جدال. لكن التراس المبلط بآجر مختلف الألوان حيث تعزف نينا داكونتي على الساكسفون كان واحة في قيظ الساعة الرابعة، وكان مفتوحاً على حديقة وارفة الظلال وفيها أشجار المانجو وشجيرات الموز التي كان تحتها قبراً ذو شاهدة مغفلة من الاسم أقدم من البيت نفسه ومن ذاكرة العائلة. حتى أولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الموسيقا اعتقدوا بأن الساكسفون كان مفارقة تاريخية في مكان نبيل كهذا. " إن صوته شبيه بصوت باخرة " قالت جدة نينا داكونتي ذلك عندما سمعته للمرة الأولى. حاولت أم نينا داكونتي عبثاً أن تجعل ابنتها تعزف عليه وهي تجلس بوضعية مختلفة، حيث أنها، ودون أن يكون قصدها الراحة في جلستها، كانت تقعد وتنورتها مرفوعة إلى أعلى فخذيها وركبتاها متباعدتان، وبحس شهواني لا يبدو ضرورياً للموسيقا. وكانت تقول لها أمها: " أنا غير معنية على أية آلة تعزفين طالما تعزفين عليها ورجلاك متلاصقتان ".

لكن أغاني وداع البحارة، والانغماس في الحب هما ما سمحا لنينا داكونتي أن تكسر تلك المحارة المرة التي تغلف بيلي سانشيز. فتحتَ شهرته الرديئة جداً كشخص بهيمي أخرق، والتي دُعمت بشكل كبير بالتقاء اسمي عائلتين شهيرتين، اكتشفت يتيماً، لطيفاً، مرتعباً. وبينما

كانت عظام يده آخذ ةٌ بالالتئام، هي وبيلي سانشيز تعلما كيف يعرف أحدهما الآخر كما ينبغي، فحتى هو كان مندهشاً للسلاسة التي تم بها الحب عندما صحبته إلى فراش عفتها بعد ظهيرة يوم مطير عندما كانا لوحدهما في المنزل. وفي كل يوم بللموعد نفسهولحوالي أسبوعين كانا يضجعان عاريين متقدي العاطفة ومخمورين، تحت النظرات المندهشة لفرسان الحرب الأهلية والجدات النهمات اللواتي سبق نهما إلى جنة ذاك السرير التاريخي. حتى في الاستراحات بين فترات ممارسة الحب كانا يبقيان عاريين ويتركان النوافذ مفتوحة، يتنشقان الهواء القادم من نفاية السفن الذي ينبعث من الخليج وينفذ إلى المنزل والذي كان له رائحة القذارة، ويصغيان في صمت كامل للساكسفون إلى أصوات وقع حياة النهار القادمة من الحديقة، النداء المنفرد لضفدع تحت شجيرات الموز، رقرقة المياه المتساقطة على القبر الذي لا يُعرف صاحبه. تلك اللحظات الطبيعية من الحياة التي لم تتح لهما الفرصة لكي يعرفاها من قبل.

عندما عاد والداها إلى المنزل، كانت نينا داكونتي و بيلي سانشيز قد تقدما في الحب إلى حد بعيد بحيث أن العالم لم يعد يتسع لأي شيء آخر، وقد مارسا الحب في كل الأوقات وكل الأمكنة، محاولين أن يعيدا صياغته في كل مرة. في البداية تم الأمر بمشقة في السيارات الرياضية والتي حاول بواسطتها والد بيلي سانشيز أن يخمد مشاعر الخطيئة لديه. بعد ذلك عندما أصبح الأمر مع السيارات سهلاً مملاً بالنسبة لهما، ذهبا في الليل إلى الأكواخ الشاطئية المهجورة في ماربيلا حيث جمعهما القدر ببعضيهما للمرة الأولى، وخلال مهرجانات شهر تشرين الثاني كانا يذهبان متنكرين إلى الغرف المعدة للإيجار في منطقة جيتسماني القديمة الفقيرة تحت حماية القيمات اللواتي حتى أشهر قليلة خلت كن ملزمات لتحمل بيلي سانشيز وعصابته المسلحة بالسلاسل. كرست نينا داكونتي نفسها لتختلس الحب وبنفس الإخلاص المسعور الذي ضيعته من قبل

على الساكسفون، حتى فهم قاطع طريقها المدجن في نهاية الأمر ما الذي عنته عندما قالت بأن عليه أن يؤدي مثل رجل أسود. كان بيلي سانشيز يبادلها الحب دائماً وبمهارة وبنفس الحماس. عندما أصبحا زوجين، نفذا قسمهما بأن يتبادلا الحب فوق الأطلسي، عندما كانت المضيفات نائمات وكانا محشورين في مرحاض الطائرة، منهوكين من الضحك أكثر منه من المتعة. عرفا آنذاك فقط، وبعد أربع وعشرين ساعة من الزفاف بأن نينا داكونتي كانت حاملاً في شهرها الثاني.

وهكذا عندما وصلا مدريد كانا أبعد عن أن يكونا حبيبين أشبعا رغباتهما، بل كان لديهما الكثير من التحفظ لأن يتصرفا كزوجين جديدين عفيفين. أبواهما رتبا كل شيء. قبل أن يغادرا الطائرة، أتى موظف المراسم إلى قمرة الدرجة الأولى ليسلم نينا داكونتي معطف فرو المنك الأبيض ذا الزركشة السوداء الوامضة الذي كان هدية زفافها من والديها، وسلم بيلي سانشيز سترة من جلد الخروف القصير الصوف التي كانت آخر زي في ذاك الشتاء، كما سلمه المفاتيح غير الموسومة لسيارةٍ كانت المفاجَأةِ التي تنتظره في المطار.

رحبت بهما بعثة بلدهما الدبلوماسية في صالة الاستقبال الرسمية. لم يكن السفير وزوجته أصدقاء قدامى لكلا العائلتين وحسب، بل كان أيضاً هو الطبيب الذي ولَّد نينا داكونتي، وكان ينتظرها ومعه سلة من الورود شديدة التألق والطراوة لدرجة أن قطرات الندى عليها بدت اصطناعية. رحبت بهما بقبل زائفة، غير ظاهر عليها الارتياح لحالتها كعروس قبل الأوان، ثم أخذت الورود. وحالما أخذتها دخلت شوكة في إصبعها، لكنها تعاملت مع ذلك الحادث العرضي ببراعة قائلة:

" لقد فعلت ذلك قصداً، وهكذا سوف تنتبه إلى خاتمي ".

في الحقيقة، أبدت البعثة الدبلوماسية بكاملها إعجابها الشديد بالخاتم النفيس، الذي لا بد وأنه يكلف ثروة، ليس بسبب نوعية

الألماسات بقدر ما هو بسبب كونه قديماً جداً ومحافظاً على حالته الممتازة في نفس الوقت. لكن أحداً لم يلاحظ أن إصبعها قد بدأت بالنزيف. حوَّل الجميع انتباههم إلى السيارة الجديدة. كان السفير هو صاحب الفكرة المثيرة القاضية بجلبها إلى المطار وتغليفها بالسيلوفان وربطها بوشاح ذهبي كبير. لم ينتبه بيلي سانشيز إلى إبداعه الحاذق ذاك. كان متلهفاً جداً لرؤية السيارة بحيث مزق الغلاف في الحال وبسرعة ثم وقف بقربها مقطوع الأنفاس. كانت طراز تلك السنة من سيارة بينتلي ذات الغطاء القابل للطي، مع فرش كامل من الجلد الطبيعي. بدت السماء مثل بطانية من الرماد، رياح جليدية قارصة هبت من الجواداراما، ولم يكن الوقت مناسباً للبقاء في العراء. لكن بيلي سانشيز بقي هناك غير مكترث بالبرد إطلاقاً. ترك أفراد البعثة الدبلوماسية واقفين في ساحة وقوف السيارات المكشوفة، غير مدرك بأنهم كانوا يتجمدون برداً لدواعي الكياسة، إلى أن أنهى تفحص أدنى التفاصيل في السيارة بعد ذلك جلس السفير في السيارة بجانبه لكي يرشده إلى المقر الرسمي، حيث كان يجهز الغداء. وعلى الطريق كان يشير له إلى أكثر المعالم شهرة في المدينة، لكن بيلي سانشيز بدا منتبهاً إلى سحر السيارة ليس إلا.

لقد كانت المرة الأولى التي يسافر فيها خارج بلده. كان قد جرَّب كل المدارس الخاصة والرسمية متنقلاً من واحدة إلى أخرى، معيداً المقررات مرة تلو المرة، إلى أن تُرك طافياً من غير مرساة في مجاهل اللامبالاة. مشهد النظرة الأولى للمدينة بدا على خلاف مع مدينته، صفوف المباني الرمادية المضاءة الأنوار في وضح النهار، الأشجار العارية، المحيط القصي، كل شيء كان يزيد الشعور بالكآبة، شعور جاهد ليحشره في إحدى زوايا قلبه. لكن أحس على الفور، ودون إرادة منه، أنه وقع في الفخ الأول للنسيان. عاصفة صامتة مفاجئة، الأبكر

في ذاك الفصل، هبت من الأعالي، وعندما غادرا مقر إقامة السفير بعد الغداء ليبدأا رحلتهما إلى فرنسة، وجدا المدينة مغطاة بالثلوج اللامعة. عندئذٍ نسي بيلي سانشيز السيارة وأصبح يصرخ بابتهاج في وجه كل من يلاقيه، وهو يرميه بملء قبضته من الثلج على رأسه، بعد ذلك بدأ يتدحرج وسط الشارع وهو يلبس معطفه الجديد.

لم تنتبه نينا داكونتي بأن إصبعها كانت تنزف إلى أن غادرا مدريد بعد ظهيرة منقشعة السماء بعيد العاصفة. لقد أدهشها الأمر، لأنها عندما كانت برفقة زوجة السفير، والتي طلبت منها أن تغني ألحاناً إيطالية بعد الغداء مصحوبة بالعزف على الساكسفون، انتبهت بالكاد إلى مضايقة إصبع الخاتم. بعد ذلك، وبينما كانت تخبر زوجها عن أقصر الطرق إلى الحدود، لعقت إصبعها بشكل غير واع كل مرة أدمت فيها، وفقط عندما وصلا البيرينيه فكرت بالبحث عن صيدلية. بعدئذٍ استسلمت إلى الأحلام المتأخرة من الأيام القليلة الماضية، وعندما استيقظت مع جفلة نتيجة منام كابوسي مفاده بأن السيارة تتخبط غارقة في المياه، كان قد مضى الكثير من الوقت قبل أن تتذكر المنديل الملفوف حول إصبعها. نظرت إلى الساعة المضيئة على لوحة القيادة وكانت قد تجاوزت الثالثة، وجعلها ذلك تقوم ببعض الحسابات العقلية، وفقط عند ذلك أدركت بأنهما قد تجاوزا بوردو، علاوة على أنغوليم وبواتييه، وأنهما كانا يقودان السيارة على طول مانع الفيضان الطافح بالمياه لنهر اللوار. رشح ضوء القمر من خلال الضباب، والصور الشاحبة للقلاع التي يمكن رؤيتها من خلال أشجار الصنوبر بدت وكأنها قادمة من حكايا الجنيات. نينا داكونتي التي كانت تعرف المنطقة عن ظهر قلب خمَّنت بأنهما كانا على بعد حوالي ثلاث ساعات من باريس، و بيلي سانشيز كان ما يزال على عجلة القيادة غير مثبط الهمة.

قالت له: " إنك رجل وحشي، لقد مضى عليك أكثر من إحدى عشرة ساعة وأنت تقود السيارة ولم تأكل أي شيء ".

نشوة السيارة الجديدة جعلته يستمر في القيادة. لم ينم كثيراً في الطائرة، لكنه شعر بأنه يقظ إلى حد بعيد ونشط بما يكفي لأن يصل باريس عند الفجر.

رد عليها: " ما أزال ممتلئ البطن من غداء السفارة " ثم أضاف وبدون منطق ظاهر: " و على كل حال، ففي قرطاجنة هم الآن للتو يغادرون دور السينما. يجب أن تكون الساعة الآن هناك قرابة العاشرة ".

ومع ذلك فإن نينا داكونتي كانت متخوفة من أنه سوف يستسلم للنوم وراء المقود. فتحت واحدة من الهدايا التي قدمت لهما في مدريد وحاولت أن تضع قطعة من البرتقال الملبس بالسكر في فمه. لكنه صدها عنه قائلاً: " الرجل الحقيقي لا يأكل الحلوى ".

انقشع الضباب بعد أن اجتازا أورليان بقليل، وأضاء قمر كبير جداً الحقول المغطاة بالثلوج، لكن السير أصبح أكثر صعوبة لأن قاطرات الغلال الضخمة و صهاريج الخمور اختلطت مع بعضها البعض على الطريق الرئيسي، والكل متجه إلى باريس. كان بودِّ نينا داكونتي أن تساعد زوجها في قيادة السيارة، لكنها لم تتجرأ حتى أن تقترح ذلك: لقد كان أخبرها في أول مرة يخرجان فيها معاً بأنه لا شيء أكثر إذلالاً للرجل من أن يركب عربة تقودها زوجته. أحست بصفاء الذهن بعد خمس ساعات من النوم العميق، وكانت سعيدة أيضاً لأنهما لم يتوقفا في أي فندق في الأقاليم الفرنسية، والتي كانت تعرفها مذ كانت بنتاً صغيرة تقوم برحلات لا عديد لها إلى هناك بصحبة والديها وقد قالت عنها: " لا يوجد ريف في العالم يضاهيها جمالاً، لكن يمكن أن تموت عطشاً ولا تجد شخصاً يقدم لك كأساً من الماء مجاناً ". كانت مقتنعة تماماً بهذا

بحيث أنها في اللحظة الأخيرة وضعت قطعة صابون ولفة من ورق التواليت في محفظتها الليلية، لأنه في الفنادق الفرنسية لا يوجد صابون أبداً، والورق الموجود في الحمامات هو جرائد الأسبوع الفائت مقطعة بشكل مربعات ومعلقة بمسمار. الشيء الوحيد الذي أبدت ندمها عليه تلك اللحظات هو كونها أضاعت ليلة بأكملها دون ممارسة الحب. كان الجواب الفوري لزوجها:

" كنت أفكر للتو في أنه لا بد وأن يكون أمراً فانتازياً أن تمارس الحب بين الثلوج " ثم أضاف: " ليكن الآن هنا، إذا رغبت في ذلك ".

فكرت نينا داكونتي بالأمر بكل جدية. الثلج المضاء بنور القمر على طرفي الطريق بدا زغِباً ودافئاً، لكن وهما يقتربان من الضواحي الباريسية بدأت حركة السير تزداد صعوبة نتيجة الازدحام، وكان هناك عناقيد من المصانع المضاءة، وأعداد هائلة من العمال الراكبين على الدراجات. لو لم يكن الوقت شتاء الآن لكان ضوء النهار في غاية الوضوح.

قالت نينا داكونتي: " علينا أن نؤجل الأمر حتى نصل باريس، فالأمر سيكون في غاية الحميمية في فراش دافئ ذ ي أغطية نظيفة، كما يفعل الناس المتزوجون ".

قال لها: " إنها المرة الأولى التي تصديني فيها ".

" هذا أكيد " ثم أضافت: " فهي المرة الأولى التي نتعامل فيها كزوجين " .

قبل قليل من طلوع الفجر غسلا وجهيهما وتبولا في مطعم على جانب الطريق وتناولا القهوة مع كعكتي كرواسان ساخنتين على النضد، حيث سائقو القاطرات كانوا يشربون النبيذ الأحمر مع الفطور. في غرفة الحمام لاحظت نينا داكونتي أنه كان هناك لطخات دم على كنزتها وتنورتها، لكنها لم تحاول أن تزيلها بالماء. قذفت منديلها المنقوع بالدماء

في سلة القمامة، نقلت خاتم زفافها إلى يدها اليسرى، وغسلت الإصبع المجروح بالماء والصابون. كان بالامكان رؤية الخدش بالكاد. ومع ذلك فما أن رجعا عائدين إلى السيارة حتى بدأ ينزف ثانية وعلَّقت نينا داكونتي ذراعها خارج النافذة، متيقنة بأن الهواء الجليدي القادم من الحقول له صفات العلاج بالكي. هذا التكتيك أثبت أيضاً بأنه بلا جدوى، لكنها بقيت مطمئنة النفس.

" إذا ما أراد أيٌّ كان أن يكشف مكان وجودنا فسيكون الأمر سهلاً جداً " قالت ذلك بعفويتها الساحرة الطبيعية ثم أضافت: " كل ما عليهم فعله هو أن يتبعوا أثر دمي في الثلج ". ثم فكرت أكثر بما قالته، وتورَّد وجهها في إشراقة الفجر الأولى:

" تخيل " قالتها ثم أردفت: " أثر من دمٍ في الثلج على طول الدرب من مدريد إلى باريس. ألا يشكل ذلك مطلع أغنية جميلة ؟ ".

لم يتسن لها الوقت لتفكر في الأمر ثانية. في ضواحي باريس بدأ إصبعها ينزف في فيض لا يمكن ضبطه، وشعرت وكأن روحها كانت تفر منها من خلال الجرح. حاولت أن توقف تدفقه عن طريق أوراق التواليت التي تحملها في حقيبتها، لكنها كانت تقضي وقتاً لتلف إصبعها أطول بكثير من الوقت الذي تنتظر لترمي بعدها نتف الورق المتشبعة بالدم من النافذة. الثياب التي كانت تلبسها، المعطف، مقاعد السيارة أصبحت كلها ممتقعة بالدماء، وبشكل تدريجي لكن من غير الممكن السيطرة عليه. أصبح بيلي سانشيز متخوفاً من غير ريب، وأصرَّ على البحث عن صيدلية، لكن عند ذاك الوقت عرفت بأن الأمر لم يعد من شأن الصيادلة.

قالت له: " كدنا نصل إلى منطقة مطار أورلي، اتجه مباشرة إلى الأمام، على طول شارع الجنرال ليكليرك، ذاك العريض بين الأشجار، وبعد ذلك سأخبرك ما يستوجب عليك فعله ".

كان ذلك هو الجزء الأكثر صعوبة في مسار الرحلة. كان شارع الجنرال ليكليرك مزدحماً في كلا الاتجاهين، حيث كان هناك تجمع جهنمي متداخل من السيارات الصغيرة والدراجات والشاحنات الضخمة يحاول الوصول إلى الأسواق المركزية. جلبة الأبواق التي لا طائل منها جعلت بيلي سانشيز مهتاجاً جداً حيث تفوه صارخاً بشتائم تعود للغة مسلحي السلاسل في وجه عدد من السائقين بل وحتى همَّ بالخروج من سيارته لضرب واحدٍ منهم، لكن نينا داكونتي استطاعت أن تقنعه بأن الفرنسيين برغم كونهم من أكثر الناس في العالم جلافة إلا أنهم لا يستخدمون قبضاتهم أبداً. كان ذلك دليلاً آخر لحسن محاكمتها للأمور، حيث كانت نينا داكونتي في تلك اللحظات تكافح بجهد كي لا تفقد وعيها.

استغرق الأمر معهما أكثر من ساعة لعبور طريق ليون دو بيلفور الدائري. كانت المحال والمقاهي مضاءة وكأنها في رابعة النهار، لأنه كان ثلاثاء نموذجياً في كانون ثاني باريساً ضبابياً خانقاً وملبداً بالغيوم، مع مطر لا يتصلب ويتحول إلى ثلوج أبداً. لكن كان هناك حركة سير أقل في شارع دنفر – روشيرو، وبعد عدة صفوف من البنايات، أشارت نينا داكونتي إلى زوجها لأن يتحول إلى اليمين، ومن ثم أركن سيارته خارج مدخل الإسعاف لمستشفى شاحب ضخم.

كان لزاماً مساعدتها لكي تخرج من السيارة، ومع ذلك فهي لم تفقد هدوءها أو صفاء ذهنها. وبينما كانت مستلقية على مسند المرضى تنتظر الطبيب المناوب، أجابت على أسئلة الممرضة الروتينية فيما يخص هويتها وتاريخها المرضي. حمل بيلي سانشيز حقيبتها وأمسكها من يدها اليسرى، التي كانت تلبس فيها خاتم زواجها، و شعر بها واهنة وباردة، أما شفتاها فقد فقدتا لونهما. جلس في مقعدها ماسكاً بيدها، إلى أن وصل الطبيب وقام بفحص سريع لإصبعها المجروح. كان رجلاً فتياً

جداً وذا بشرة بلون النحاس العتيق. لم تبدِ نينا داكونتي أي انتباه له، لكنها بعثت بابتسامة شاحبة إلى زوجها.

قالت له بظرافتها التي لا تقهر: " لا تخف، فالشيء الوحيد الذي يمكن أن يحصل هو أن آكل لحم البشر هذا سيقطع يدي ويأكلها ".

أنهى الطبيب فحوصاته، بعد ذلك أدهشهما بتكلمه بكلمات أسبانية صحيحة تماماً مع لكنة آسيوية غريبة.

" لا يا أولاد " قال الطبيب ثم أضاف: " آكل لحم البشر هذا يفضل الموت جوعاً على أن يقطع يداً جميلة كهذه ".

أحسا بالارتباك، لكن الطبيب أعاد إليهما هدوءهما بإيماءة ودية. بعد ذلك أمر بتحريك السرير النقال ذي العجلات إلى مكان آخر، وحاول بيلي سانشيز أن يلحقهما وهو يتعلق بيد زوجته لكن الطبيب أمسك بذراعه وأوقفه عن فعل ذلك.

" أما أنت، فلا " ثم قال الطبيب مضيفاً: " إنها ذاهبة إلى العناية المشددة ".

ابتسمت نينا داكونتي ثانية في وجه زوجها، واستمرت تلوح له مودعة حتى اختفت عن الأنظار في نهاية الممشى. بقي الطبيب وراءها، وهو يقرأ المعلومات التي كتبتها الممرضة على دفتر المعاينة. ناداه بيلي سانشيز قائلاً:

" دكتور، إنها حامل " .

" منذ متى ؟ " .

" من شهرين " .

لم يعطِ الطبيب لهذه الملاحظة الأهمية التي توقعها بيلي سانشيز وقال له: " حسن أنك أخبرتني " ثم تابع مشيه خلف السرير النقال. ترك بيلي سانشيز واقفاً في الغرفة الكئيبة التي تفوح منها روائح تعرق المرضى، تُرك غير عارف ما الذي يجب عليه فعله وهو ينظر إلى

الممشى الخاوي الذي أخذوا عبره نينا داكونتي، ثم جلس على المقعد الخشبي حيث ينتظر الناس الآخرون. لم يعرف كم جلس من الوقت لكن عندما قرر مغادرة المشفى كان الليل قد حلَّ ثانية ولم تنقطع السماء عن التهطال بعد، وكونه مازال مغموماً من جراء أثقال هذا العالم، فقد استمر حائراً لا يدري ماذا يجب عليه أن يفعله.

تم قبول نينا داكونتي في الساعة التاسعة والنصف من يوم الثلاثاء، السابع من كانون الثاني، كما عرفتُ من سجلات المشفى بعد عدة سنوات. في الليلة الأولى نام بيلي سانشيز في السيارة، والتي أركنها خارج مدخل الطوارئ، وباكراً جداً في اليوم التالي أكل ست بيضات مسلوقة وشرب فنجاني قهوة بالحليب في أقرب كافتيريا استطاع أن يجدها، فهو لم يتناول وجبة كاملة مذ كان في مدريد. بعدئذٍ قفل راجعاً إلى غرفة الإسعاف ليتمكن من رؤية نينا داكونتي، لكنهم تدبروا الأمر لإفهامه بأن عليه الذهاب إلى المدخل الرئيسي. وهناك، أخيراً، ساعده رجل صيانة نمساوي لكي يتخاطب مع موظف الاستقبال، الذي في حقيقة الأمر أكد بأن نينا داكونتي قد قُبلت في المشفى، لكن الزوار يسمح لهم بالزيارة في أيام الثلاثاء فقط وذلك من الساعة التاسعة وحتى الرابعة. وهذا يعني أنه ليس قبل ستة أيام تالية. حاول أن يرى الطبيب الذي يتكلم الأسبانية، والذي وصفه بالرجل الأسود ذ ي الرأس الحليق، لكن أحداً لم يستطع إفادته بأي شيء بناء على تفاصيل بسيطة كهذه.

عادت إليه الطمأنينة مع وصول أخبار بأن نينا داكونتي كانت في مكتب التسجيل، وعاد إلى سيارته. طلب منه شرطي السير بأن يركن سيارته على بعد صفين من الأبنية، في شارع ضيق جداً، في الجانب المخصص للأرقام الزوجية. كان يوجد في ذاك الشارع مبنى مرمماً وعليه لافتة كتب عليها " فندق نيكول " كان فندقاً بنجمة واحدة فقط، وذا بهو استقبال صغير جداً فيه أريكة وبيانو عمودي قديم ليس إلا. لكن

المالك الذي كان صوته صا دحاً وعالياً جداً، بإمكانه أن يتفاهم مع الزبائن بأية لغة كانت طالما هم يحملون نقوداً. شغل بيلي سانشيز مع حقائبه الإحدى عشرة وصناديق الهدايا التسعة الغرفة الوحيدة المستقلة وهي علية مثلثية الشكل في الطابق التاسع، حيث وصلها مقطوع الأنفاس بعد صعوده درجاً دائرياً له رائحة القرنبيط المسلوق. كانت الجدران مغطاة بورق جدران داكن، ولم تكن النافذة الوحيد ة تسمح سوى بمرور ضوء خافت من الساحة الداخلية. كان هناك سريراً مزدوجاً، خزانة كبيرة، كرسي مستقيمة الظهر، " بيديه " محمول، ومغسلة مع زبدية وإبريق، وهكذا فالطريقة الوحيدة التي تسمح لك بالتواجد في الغرفة هي أن تستلقي على السرير. كان الأثاث يبدو سيئاً أكثر منه قديماً، حيث بدت الغرفة بائسة لكن نظيفة جداً، مع رائحة مطهرة لعقار استخدام للتو.

لو صرف بيلي سانشيز بقية حياته لحلِّ شفرة أحاجي ذاك العالم المبني على موهبة الشح والحرص فإنه لن يستطيع. هو لم يحل أبداً اللغز الغامض لضوء الدرج الذي ينطفئ قبل أن يصل إلى سطح الطابق الذي ينزل فيه، ولم يستطع أبداً أن يكتشف كيف يمكن إشعاله ثانية. لقد احتاج نصف صبيحة يوم لكي يعرف بأنه على بسطية كل طابق كان هناك غرفة صغيرة مجهزة بتواليت، وإن الماء يتدفق فيه بسحبك لسلسلة معدنية، وقد قرر سلفاً استخدامه في العتمة دون إشعال الأنوار حيث اكتشف مصادفة بأن الضوء يشتعل عندما يُرتَج القفل من الداخل، وبالتالي فلن ينسى أحد إطفاءه ثانيةً. أما الدوش الذي كان في نهاية البهو، والذي أصر على استخدامه مرتين يومياً كما كان يفعل في بلده الأصلي، فقد كان عليك أن تدفع لقاء استخدامه بشكل مستقل ونقداً وبالحال، والماء الساخن الذي يتم التحكم به من مكتب الإدارة ينفذ خلال ثلاث دقائق. ومع ذلك فقد كان بيلي سانشيز مقتنعاً تماماً بأن طريقة كهذهفي التعامل مع الأمور والمختلفة جداً عما يناسب طبيعته، كانت

في كل الأحوال أفضل من أن يبقى في العراء في شهر كانون الثاني، وقد شعر بأنه مشوش جداً ووحيد إلى درجة أنه لم يستطع أن يفهم كيف كان يعيش سابقاً دون حماية ومساعدة نينا داكونتي.

عندما صعد إلى غرفته صباح الأربعاء، رمى بنفسه في مواجهة الفراش وهو ما يزال مرتدياً معطفه، مفكراً في المخلوق الملائكي الذي ما يزال ينزف دماً على بعد صفين من المباني، وغطَّ حالاً في نوم عميق. وعندما استيقظ كانت ساعته تدق الخامسة، لكنه لم يستطع أن يتبين إن كان الوقت بعد الظهر أو صباحاً، أو أي يوم من الأسبوع كان، أو في أية مدينة، حيث كانت النوافذ تصطفق بعنف بفعل الريح والمطر. انتظر، يقظاً في الفراش، وهو يفكر بنينا داكونتي، حتى تأكد بأنه في واقع الأمر كان قد بدأ ينبلج النهار. عندئذٍ خرج ليتناول الفطور في نفس الكافتيريا كما في اليوم السابق، وهناك علم بأن اليوم كان خميساً. كانت الأنوار مضاءة في المشفى وقد توقفت السماء عن التهطال، وبالتالي استلقى ملقياً ظهره على ساق شجرة كستناء خارج المدخل الرئيسي، حيث كان الأطباء والممرضات في معاطفهم البيضاء يدخلون ويخرجون من المشفى، وكان كله أمل بأنه سيلقى الطبيب الآسيوي الذي قبِل نينا داكونتي. لم يتمكن من رؤيته في ذلك الحين، أو عصر ذلك اليوم بعد الغداء، عندها وجب عليه أن ينهي جولته لأنه أحس بأن أوصاله قد بدأت بالتجمد. في السابعة تناول مرة أخرى القهوة بالحليب وبيضتين مسلوقتين جيداً اختارهما بنفسه من الطعام المعروض على النضد بعد يومين من أكله نفس الطعام وفي نفس المكان. عندما عاد إلى الفندق لينام، وجد سيارته وحيدة على جانب من الشارع، مع بطاقة وقوف موضوعة على واقية الريح، بينما كل السيارات الباقية كانت مركونةً على الجانب الآخر. كانت مهمة صعبة بالنسبة للبواب في فندق " نيكول "

لأن يشرح له بأنه في الأيام الفردية على المرء أن يركن سيارته في الجانب المرقم برقم فردي من الشارع، وعلى الجانب الآخر في الأيام الزوجية. استراتيجية منطقية كهذه ثبت أنها غير مفهومة لشخص عريق المحتد مثل سانشيز دي ألفيا والذي من قرابة سنتين مضتا قاد سيارة المحافظ داخل دار سينما في الجوار وأحدث خراباً كاملاً بينما وقف رجال الشرطة الجسورين موقف المتفرج. وكان فهمه حتى أقل من ذلك عندما نصحه البواب بأن يدفع الغرامة لكن أن لا يحرك سيارته في ذلك الوقت، لأنه من غير المسموح له أن يحركها ثانية حتى منتصف الليل. عندما كان يتقلب قلقاً في الفراش، غير قادر أن ينام، كانت المرة الأولى التي لم يفكر فيها بنينا داكونتي، بل بلياليه الفاحشة في بارات الخلاعة في السوق الرئيسي في قرطاجنة الكاريبي. تذكر طعم السمك المقلي والأرز المطبوخ بجوز الهند في المطاعم المنتشرة على طول الرصيف البحري، حيث ترسو مراكب " السْكونات " القادمة من أروبا. تذكر بيته، الجدران المغطاة بزهرة الثالوث، حيث أنها ستكون السابعة من الليلة الماضية هناك، وتراءى له أبوه في ثوب النوم الحريري وهو يقرأ الجريدة في التراس الذي تسوده البرودة المنعشة.

تذكر أمه – لم يتمكن أحد أبداً من أن يعرف أين تكون في أي وقت كان – أمه الجذابة المهذار، التي كانت تلبس ثوب يوم الأحد وتضع وردة خلف أذنها عند حلول الليل، تكاد تختنق بحرارة ذلك القماش الفخم المقيد لحركتها. بعد ظهر أحد الأيام عندما كان في السابعة من عمره، دخل إلى غرفتها دون أن يقرع الباب ووجدها عارية في الفراش مع أحد عشاقها العرضيين. ذلك الحادث المزعج، الذي لم يشر أي منهما إليه أبداً، أسس بينهما رابطة مبنية على إثم ثبُت أنها أكثر جدوى من الحب. لكنه لم يكن يعي ذلك، أو الكثير جداً من الأشياء المزعجة

في عزلته الطفولية، إلى أن جاء ذلك المساء الذي وجد فيه نفسه يتقلب قلقاً في تلك العليَّة الباريسية الكئيبة، وبدون رفيق لكي يبث له أحزانه، وهو يشتعل غضباً على نفسه لأنه لم يتمكن أن يستجيب لرغبته الإجهاش بالبكاء.

كان أرقاً مفيداً. قام من الفراش يوم الجمعة ونفسه مجروحة نتيجة الليلة البغيضة التي قضاها، لكنه قرر أن يعطي معنىً لحياته. قرر في النهاية أن يكسر قفل حقيبة سفره ويغير ملابسه، حيث كانت كل المفاتيح في محفظة نينا داكونتي، برفقة معظم نقودهما ودليل الهاتف، والذي قد يجد فيه رقم شخص ما يعرفانه في باريس. في الكافتيريا التي اعتاد على ارتيادها لاحظ أنه تعلم أن يلقي التحية بالفرنسية، وأن يطلب سندويش لحم الخنزير والقهوة بالحليب. عرف أنه من غير الممكن أبداً أن يطلب زبدة أو أي نوع من البيض حيث لم يتمكن إطلاقاً من لفظ تلك الكلمات، لكن الزبدة تقدم دائماً مع الخبز، والبيض المسلوق جيداً كان معروضاً على النضد، حيث يستطيع أن يأخذه دون الحاجة إلى طلبه. أيضاً، في اليوم الثالث، تعرف عليه الخدم وساعدوه عندما حاول أن يجعل كلامه مفهوماً. وهكذا طلب على الغداء يوم الجمعة، وهو يحاول أن يزيل الكدر عن نفسه، شريحة لحم خاصرة العجل مع بطاطا مقلية وزجاجة من النبيذ. شرب قرابة نصفها ثم عبر الشارع بتصميم حازم على أن يشق طريقه إلى داخل المشفى. لم يعرف أين تكون نينا داكونتي، لكن الصورة القدرية للطبيب الآسيوي كانت عالقة في ذهنه، وكان متأكداً من أنه سوف يجده. لم يدخل من خلال الباب الرئيسي بل استخدم مدخل الطوارئ، الذي بدا له أنه مراقباً بشكل أقل، لكنه لم يتمكن من الذهاب أبعد من الممشى حيث لوحت له نينا داكونتي مودعة. سأله حارس يلبس رداءً فضفاضاً مبقعاً بالدماء عن أمر ما وهو يسير بجانبه،

لكنه لم يعره أي انتباه. تبعه الرجل مردداً نفس السؤال مرة تلو الأخرى بالفرنسية، وفي النهاية أمسكه بقوة شديدة من ذراعه جعلته يتيبس في مكانه. حاول بيلي سانشيز أن يتخلص منه بحيلة من حيل مسلحي السلاسل، وعندئذٍ سبَّ الحارس أمه بالفرنسية وهو يلف ذراعه عند الكتف بمسكة مطرقية، وبدون أن ينسى أن يشتم العاهرة التي ولدته ألف مرة وبأقذع الصفات حاملاً إياه حتى الباب، وهو يجيش بالغيظ والألم، ومن ثم قذفه خارجاً وسط الشارع مثل كيس من البطاطا.

بعد الظهيرة تلك، وبينما كان يتوجع من العقوبة التي تلقاها، بدأ بيلي سانشيز يصبح شخصاً راشداً. قرر، وكما كانت ستفعل نينا داكونتي، أن يتوجه إلى سفير بلاده. بواب الفندق وبرغم مظهره الانطوائي، كان ميالاً جداً إلى المساعدة وصبوراً جداً فيما يتعلق باللغات، وجد رقم وعنوان السفارة في دليل الهاتف ودوَّنه على بطاقة. أجابته امرأة لطيفة على الهاتف، وفوراً لاحظ بيلي سانشيز الأسلوب الأنديزي في صوتها الرزين الخالي من الإيقاع. بدأ بتعريفها عن نفسه مستخدماً اسمه الكامل، واثقاً من أن اسمي العائلتين العظيمتين سوف يحركان مشاعر المرأة، لكن الصوت على الهاتف لم يبدُ عليه أي تغيير. سمعها تتلو درسها عن ظهر قلب: سعادة السفير ليس في مكتبه في الوقت الحاضر، ومن غير المتوقع أن يعود حتى الغد، وفي جميع الأحوال لا يمكن لقاؤه إلا بموعد مسبق، وحدوث ذلك مرتبط فقط بظروف استثنائية. عرف بيلي سانشيز بأنه لن يمكنه أن يصل إلى نينا داكونتي عبر هذا التكتيك، وشكر المرأة للمعلومات التي قدمتها وبنفس القدر من اللطافة التي استخدمتها في إعطا ءه إياها. بعدئذٍ استقل سيارة أجرة وذهب إلى السفارة.

كانت السفارة متواجدة في البناء 22 شارع ميدان الأليزيه، في واحدة من أكثر المناطق الباريسية هدوءاً، لكن الشيء الوحيد الذي ترك انطباعاً لا يمحى لدى بيلي سانشيز، كما أخبرني هو نفسه في قرطاجنة الأنديز بعد عدة سنوات، هو أنه وللمرة الأولى منذ وصوله كانت أشعة الشمس ساطعة جداً كما هي في الكاريبي، ولاح برج إيفل عالياً في سماء المدينة المتألقة. الموظف الذي استقبله نيابة عن السفير بدا وكأنه تعافى من مرض مميت، ليس فقط بسبب سترته السوداء ذات الياقة القابضة على الرقبة، وربطة عنق الحداد، لكن بسبب صوته الواجف وإيماءاته التي تشي بالحكمة والحذر. تفهم قلق بيلي سانشيز لكن ذكَّره، دون أن يفقد شيئاً من تعقله بأنهم موجودون في بلد متحضر بنيت قوانينه الصارمة على معايير هي الأكثر قدماً والأكثر علمية، على النقيض من أمريكا البربرية، حيث كل ما على المرء فعله ليتمكن من دخول المشفى هو تقديم رشوة للبواب. وختم كلامه: " لا، يا ولدي العزيز، الأمر غير ممكن ". وبالتالي كان ملاذه الوحيد هو الخضوع لحكم العقل والانتظار حتى الثلاثاء.

" وفي كل الأحوال، لم يتبقَ سوى أربعة أيام " كان ذلك ما انتهى إليه ثم فكر: " في الوقت المتخلل، لأذهب إلى اللوفر، إنه يستحق المشاهدة ".

عندما خرج بيلي سانشيز، وجد نفسه في ميدان الكونكورد غير عارف ما الذي عليه فعله. رأى برج إيفل من وراء سقوف البيوت، وبدا كأنه قريب جد اً بحيث حاول أن يمشي إليه عبر الأرصفة. لكن بدا له في الحال أنه أبعد مما ظهر، وما فتئ يبدل موقعه كلما تطلع إليه. وهكذا بدأ يفكر بنينا داكونتي عندما جلس على مقعد على ضفة السين. راقب الزوارق التي تعبر تحت الجسور، ولم تكن شبيهة بالقوارب بل

أشبه ما تكون ببيوتٍ متنقلة، مع سقوف حمراء وأصص أزهار على عتبات النوافذ وأسلاك غسيل تمتد عبر ظهر المركب. بقي لوقت طويل يراقب صياداً ساكناً، وبيده قصبة ساكنة تنتهي بخيط صيد ساكن في الماء، وتعب من انتظار شيئٍ ما لكي يتحرك، إلى أن بدأ يعم الظلام وعند ذلك قرر أن يستقل سيارة أجرة ويعود إلى الفندق. وفي تلك اللحظة انتبه إلى أنه لا يعرف اسمه ولا عنوانه وليس لديه أدنى فكرة عن مكان توضع المشفى في مدينة باريس.

وهو على هذه الحال من الذعر الذي أصابه، دخل أقرب مقهى صادف في طريقه، طلب الكونياك، وحاول أن يعيد ترتيب أفكاره. وبينما كان يفكر رأى صورته تتكرر مرة تلو مرة ومن زوايا مختلفة في المرايا التي لا عديد لها على الجدار، رأى أنه كان مرتعباً ووحيداً. ولأول مرة منذ ولادته فكر بواقعية الموت. لكنه شعر أن حاله أصبحت أفضل مع ثاني كأس من الكونياك، وامتلكته الفكرة القدرية بالعودة إلى السفارة. بحث في جيبه عن البطاقة المدون عليها عنوانها، واكتشف بأن اسم ورقم شارع الفندق كانا مطبوعين على الجانب الآخر. كان إحساسه بالصدمة نتيجة المحنة التي مر بها شديداً بحيث أنه لم يغادر غرفته لفترة عطلة نهاية الأسبوع بكاملها عدا لكي يأكل ويحرك السيارة من أحد جانبي الشارع إلى الجانب الآخر. واستمرت لثلاثة أيام بالسقوط نفس الأمطار الموحلة التي سقطت صباح وصولهما. بيلي سانشيز الذي لم يقرأ كتاباً كاملاً أبداً، تمنى لو كان لديه واحد لكي يقاتل به غرفة نومه وهو مستلق على السرير، لكن الكتب التي وجدها في حقائب زوجته كانت فقط بلغات غير الأسبانية وهكذا بقي ينتظر حتى الثلاثاء، يتأمل الطواويس المتكررة عبر ورق الجدران وهو دائم التفكير بنينا داكونتي. في يوم الاثنين رتَّب غرفته، متسائلاً ما الذي يمكن أن تقوله فيما لو رأت

الغرفة على تلك الحال، وعند ذلك فقط اكتشف بأن معطف فرو المنك كان ملطخاً بالدم الجاف. قضى فترة بعد الظهر وهو يغسله بصابونة معطرة وجدها في حقيبة سهرتها، إلى أن نجح أخيراً في إعادته إلى ما كان عليه عندما حُمل إلى داخل الطائرة في مدريد.

بزغ صباح الثلاثاء ملبداً بالغيوم وجليدياً، لكن بدون أمطار. كان بيلي سانشيز عند السادسة متأهباً ومنتظراً على مدخل المشفى مع حشد من أقارب المرضى وقد جلبوا الهدايا وسلال الورود إلى مرضاهم. دخل مع الحشد حاملاً معطف الفرو على ذراعه، بدون أن يسأل أحداً وبدون أن يكون لديه أدنى فكرة عن مكان وجود نينا داكونتي، لكنه كان مؤازراً باليقين بأنه سوف يقابل الطبيب الآسيوي. مشى عبر ساحة داخلية واسعة جداً، زرعت بالورود وفيها طيور برية، والأجنحة موجودة على كلا الجانبين: النساء على اليمين والرجال على اليسار. تبع الزوار الآخرين ودخل جناح النساء. رأى صفاً طويلاً من النساء المريضات وهن يرتدين عباءات المشفى ويرتبن أسرتهن في غرفهن المنارة بالضوء القادم من خلال النوافذ الكبيرة، حتى أنه اعتقد بأن الوضع أكثر بهجة إلى حد كبير مما يتخيل المرء من الخارج. وصل نهاية الموزع ثم مشى راجعاً، إلى أن تأكد في النهاية من أنه ولا واحدة من المريضات كانت نينا داكونتي. بعدئذٍ مشى حول الصالة من الخارج ثانيةً، محدقاً من خلال النوافذ في جناح المرضى، حتى تراءى له أنه تعرف إلى الطبيب الذي كان يبحث عنه.

وفي الواقع كان هو بعينه. كان الطبيب يفحص مريضاً بمشاركة بعض الأطباء الآخرين والعديد من الممرضات. دخل بيلي سانشيز إلى داخل الجناح، مبعداً واحدة من الممرضات عن المجموعة، وجلس في

مواجهة الطبيب الآسيوي الذي كان منحنياً فوق المريض. تكلم إليه. رفع الطبيب عينيه الحزينتين، فكر للحظة، ثم تعرف إليه.

قال له: " لكن بحق الله قل لي أين ذهبت ؟ ".

أحس بيلي سانشيز بالارتباك.

" كنت في الفندق، قريباً من هنا عند المنعطف " رد بيلي سانشيز.

عند ذلك عرف الحقيقة. نينا داكونتي كانت قد نزفت حتى الموت في الساعة السابعة وعشر دقائق من مساء يوم الخميس، التاسع من كانون الثاني، بعد ستين ساعة من الجهود التي باءت بالفشل من قبل أكثر الاختصاصيين كفاءة في فرنسا. كانت قد أرشدتهم لكي يبحثوا عن زوجها في " البلازا – أتينيه " حيث كانت و بيلي سانشيز قد حَجزا، وأعطتهم المعلومات الضرورية للوصول إلى والديها. تم إعلام السفارة عن طريق برقية عاجلة من وزارة الخارجية يوم الجمعة، حيث كان والد ا نينا داكونتي يطيران إلى باريس في ذلك الحين. قام السفير شخصياً بالإشراف على إجراءات تضميخ الجسد ومراسم الجنازة، وبقي على اتصال دائم مع مدير الشرطة في باريس خلال عملية البحث عن مكان بيلي سانشيز. بلاغ طوارئ يتضمن وصفه أذيع من مساء الجمعة وحتى بعد ظهر الأحد عبر الإذاعة والتلفزيون، وخلال تلك الساعات الأربعين كان الرجل المطلوب الأول في فرنسا. صورته التي وجدت في حقيبة نينا داكونتي، كانت معروضة في كل مكان. ثلاث من سيارات البينتلي ذات الغطاء القابل للطي ومن نفس الطراز تم العثور عليها، لكن التي تخصه لم تكن أياً منها.

وصل والدا نينا داكونتي ظهر السبت وبقيا بقرب الجسد في كنيسة المشفى، آملين حتى اللحظة الأخيرة بأنه سيتم العثور على بيلي سانشيز. تم إعلام أبويه أيضاً وكانا جاهزين للسفر إلى باريس، لكن في

النهاية لم يسافرا بسبب بعض التشوش في فحوى البرقيات. بدأ الموكب الجنائزي في الثانية من بعد ظهر الأحد، على بعد مائتي متر فقط من غرفة الفندق القذرة حيث كان يستلقي بيلي سانشيز و هو يعاني كربات الوحدة التي سببها حبه لنينا داكونتي. أخبرني بعد عدة سنوات الموظف الذي كان قد استقبله في السفارة بأنه هو نفسه الذي تلقى البرقية من وزارة الخارجية بعد ساعة فقط من مغادرة بيلي سانشيز لمكتبه، وذهب للبحث عنه في البارات الهادئة على طول شارع فابورغ – سان – أونريه. اعترف لي بأنه لم يلقِ كبير اهتمام لبيلي سانشيز عندما رآه، لأنه لم يتخيل أبداً بأن صبياً من سكان الشواطئ، مبهوراً بالحداثة الباريسية، ويلبس معطفاً من جلد الخراف المقصوص وغير اللائق، يمكن أن يكون من عائلة على هذا القدر من الشهرة.

في نفس الليلة التي كبتَ فيها رغبته بالعويل بكاءً، كان والدا نينا داكونتي قد أوقفا البحث ونقلا الجسد المضمخ بالعطر في تابوت معدني، وأولئك الذين رأوه أعادوا المرة تلو المرة ولسنوات عديدة بأنهم لم يروا امرأة أكثر منها جمالاً، ميتة كانت أم حية. وهكذا عندما دخل أخيراً بيلي سانشيز المشفى، كان الدفن قد جرى للتو في مقبرة كئيبة في لامانجا على بعد أمتار قليلة من المنزل الذي فكا فيه مغالق المفاتيح الأولى لسعادتهما. أراد الطبيب الآسيوي الذي أخبر بيلي سانشيز بالمأساة أن يعطيه بعض المهدئات في صالة انتظار المشفى، لكنه قابل ذلك بالرفض. غادر بيلي سانشيز دون أن يقول وداعاً، وبدون وجود ما يستدعي منه الشكر عليه، معتقداً بأن الشيء الوحيد الذي يحتاجه وبشكل ملح هو أن يلقى شخصاً ما ويُخرج دماغه من رأسه بضربة من سلسلة معدنية انتقاماً لسوء حظه. عندما مشى خارج المشفى، لم يلاحظ حتى أن الثلج الذي لا أثر للدم فيه كان يتساقط من السماء بشكل رقائق

براقة طرية بدت مثل ريش حمام ناعم زغب، ولم يلاحظ أيضاً بأنه كان هناك جوٌ احتفاليٌ في شوارع باريس لأنه ا كانت المرة الأولى التي يتساقط فيها الثلج بهذا الكم الكبير منذ عشر سنوات.

1976